

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أمدرمان الإسلامية

كلية الدراسات العربية

قسم الدراسات الأدبية والفنية

الصحراء في الشعر الجاهلي

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد الطالب :

محمد صديق حسن عبد الوهاب

إشراف الدكتور :

عبد الرحمن عطا المنان

٢٠٠٧م – ٢٠٠٨م

١٤٢٨ هـ - ١٤٢٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استهلال

قال تعالى: (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (١)

ويقول تعالى (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهار ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (٢)

صدق الله العظيم

١ سورة النحل الآية (١٠٣)

٢ / سورة الرعد الآية (٣)

إهداء

إلى والدي العزيزين الذين سهلا لي الطريق وغرسا في محبة العلم والمعرفة.
إلى اللذين قال الله تعالى فيهما (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً
إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما
قولا كريما) (١)

إلى أهلي وعشيرتي جميعا، إلى من كادوا يكونون رسلا أساتذتي الأجلاء .
إلى حملة مشاعل العلم والمعرفة تقديرا لهم .
إلى كل هؤلاء أهدي مجهودي المتواضع .

١/ سورة الإسراء الآية (٢٣).

شكر و عرفان

يقول تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم) (١)

الشكر أولا وأخيرا لله رب العزة والجلالة الذي هداني لهذا وسهل لي طريق العلم وارتياحه وبعده أتقدم بوافر الشكر والتقدير والعرفان لفضيلة الأستاذ الدكتور عبدا لرحمن محمد، مثال الصدق والصبر والتواضع وبحر العلم الذي أشرف على هذا البحث. فقد كان نعم المعين والموجه والمشرف نسأل الله له الصحة وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

كما أخص بالشكر أسرتي وعشيرتي التي ضحت من أجلي وأفسحت لي الطريق والشكر أجزله للأخوين الكريمين الجليلين الأخ صديق خالد، والأخ العوض عبدا لله صديق اللذين سهلا لي كثيرا من الصعاب.

والشكر أيضا لجامعة أم درمان الإسلامية الصرح الشامخ للعلم والمعرفة .

والشكر لكل من ساعدني .

الباحث

١/ سورة إبراهيم من الآية (٧)

مقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأصلي وأسلم على حبيبنا محمد ﷺ صلاةً وتسليماً تتفك بهما العقد وتتفرج بهما الكرب، وتتقضي بهما الحوائج، وتنال بهما الرغائب وحسن الخواتم، فقد دلل القرآن على كل مظاهر الحياة ومخلوقاته تعالى، يقول عز وجل: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾^(١). ويقول جل شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢). صدق الله العظيم.

ما أنبل وأجل التفكير في مخلوقات الله تعالى، ومنها تلك الصحراء الممتدة وهي إحدى مخلوقاته تعالى، فقد أثرت صحراء الجزيرة العربية في الحياة العربية على وجه العموم والحياة الأدبية والفكرية على وجه الخصوص. فهي الرحم الذي ولدت ونشأت وترعرعت فيه اللغة العربية التي حملت فكر وأدب وحياة وطبيعة الصحراء فصاغت في قوالب بلاغية وفكرية فصيحة ورسينة وجزلة. والصحراء العربية أيضاً ميقات مكاني لمهبط وحي الرسالات والرسالة الخاتمة.

أمدت الطبيعة الصحراوية خيال العربي بالمادة التي صنع منها صورته وأخيلته ومعانيه في جميع أغراض شعره فأعارته الواقعية وطبعت فيه الصراحة والوضوح والصفاء والقوة والجمال وحب الأرض، وملأت جوانب ومسارح خياله وسمعه وفؤاده وبصره فكراً ودهاءً وعبقرية فذة.

إن الشاعر البدوي الذي عاش في العصر الجاهلي في تلك البقاع الممتدة قوي التفكير بعيد النظر، واستطاع أن يصور الصحراء في كل مراحلها ونظمها وأن يربط بين الجزئيات المكونة لمفرداتها وتكاملها، وينظر للكون نظرة شمولية، ويحس بوحدة الحياة وتكاملها لأنه واسع الفكر والرؤية وتمثل ذلك في أشعاره،

(١) سورة الحجر، الآيتان ١٩-٢٠.

(٢) سورة الرعد الآية ٣.

فالصحراء أمامه وحدات مختلفة، فيها الجبل والكثيب والوادي والحيوان والسماء ومن ثم ربط بين هذه الأشياء وتعمق في أسرار الوجود فقد كان يرى في المطر معاني الحياة والغبطة، فجاءت أدق بصيرة وأنفذ فكراً، وأوفى تصوراً، وأثرت تلك البيئة في سلوكيات وانفعالات وقيم وطرائف تفكير البدوي وتناوله للقيم المتوارثة فتقوم حياته على التنافس والعنف والقسوة، ولذلك كانت القوة في كل صورها هي المثل الأعلى الذي آمن به العربي في الصحراء، وحرص عليه ليضمن بقاءه فيها كما كانت القبيلة عندهم هي الشجاعة والإقدام والكرم ودرء المخاطر، فالصحراء تتشابه في شكلها وربوعها وامتدادها كتشابه فكر وعقلية البدوي. يقول عنتر بن شداد^(١) في هذا المعنى:

هل غادر الصحراء من متردم *** أم هل عرفت الدار بعد توهم^(٢)

فما أشبه قصائدهم وأشعارهم في تصوير فضاء الصحراء الواسع الممتد المترامي الأطراف وتلك الفيافي التي تضم في حضانها مناظر وصور متباعدة الشكل والمدلول، ترى الوديان والسهول والجبال والرمال والحيوان المستأنس وغير المستأنس والسهول، فتأتي افتتاحية القصيدة معبرة عما يتراءى أمام بصر الشاعر. لم تقتصر أهمية الصحراء في الشعر العربي على كثرة الأسماء والصفات الخاصة بها بل تجاوزها إلى مفردات وألفاظ ومعاني ودلالات تدل عليها حتى شملت معانيه وإيقاعه وأخيلته وهذا يدل على مدى تأثيرها في الحياة عامة. ومن هذا المفهوم وما تحدثنا عنه من جوانب لهذه البيئة الغنية بمضامينها ومعانيها رأى الباحث أن هذا الموضوع جدير بالبحث والعناية فجاء الموضوع بعنوان "الصحراء في الشعر الجاهلي". هذا الموضوع الذي حمل الشعر العربي صورته ومؤثراته.

(١) عنتر: هو عنتر بن شداد وقيل أبو عمرو بن شداد ويلقب بعنتر الفلحاء وهو احد فرسان العرب المشهورين واجوادهم المعروفين من بني عبس وكان أبوه نفاه واستبعده على عادة العرب مع أبناء الإماء أحب ابنة عمه عبله وقال فيها شعراً — أنظر ديوان عنتر بن شداد دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م ص ٥ .

(٢) ديوان عنتر بن شداد طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م ص ١١٧ .

أسباب اختيار الموضوع:

- ١- أن الصحراء هي أساس فكر وفهم وإدراك وخيال وميلاد وترعرع ونمو وبداية خطوات الشعر العربي في العصر الجاهلي حتى قويت شوكته.
 - ٢- أن الشعر العربي الجاهلي يحمل لغة ولون ورائحة وذوق وسمات وأثر الطابع البدوي في البيئة الصحراوية وصفاتها.
 - ٣- الوقوف على مكونات وخبايا وأسباب قوة وجزالة وتصوير الشعر البدوي الجاهلي في الصحراء وموضوعاته الفنية المتنوعة ولغته الرفيعة وكيف أن البدوي امتلك عنان عبقرية الشعر والذي تخرج من مدرسة الصحراء وقد منحته هذا التفكير العميق دون وجود وسائل تعليم .
 - ٤- بروز مكونات ومؤثرات الصحراء وطفوح مفرداتها على ثنايا القصيدة العربية.
 - ٥- لم أجد هناك دراسة منفصلة عن الصحراء وأثرها في التشكيل الأدبي والحياة العامة وبروزه بهذه الصورة الواضحة.
 - ٦- أن الشعر الجاهلي في الصحراء ما زال يحمل إلينا من السمات والمميزات ما يؤكد أصالة الشعور فيه والتعبير على السواء.
 - ٧- على الرغم من كثرة الدراسات التي قامت حول الشعر العربي واهتمام الباحثين به ما زالت هناك جوانب متعددة في حاجة إلى مزيد من الدراسة لسر قوة الشعر الجاهلي وتوضيح وكشف ما غمض منه وما حجب الرؤية ورد البصر.
 - ٨- بروز أثر المكان في الشعر الجاهلي بصورة واضحة من خلال تناوله لكثير من الموضوعات الشعرية .
- وحين تناول الباحث هذا الموضوع كان واضحاً إليه تمام الوضوح تلك الدراسات التي تنقلت في أشعار الجاهليين من صور بيانية وفنية، أو تلك المؤلفات الكثيرة المختلفة والمؤتلفة في كثير من الأحيان، والتباين في عدد المعلمات السبع أو العشر التي حملت جوانب متفرقة من حياتهم، فكل ذلك يشكل رؤى متباينة حول الأدب الجاهلي.

ولذا كان لابد من الخروج بمفهوم يراعي ذلك التباين ويصل لجوهر الموضوع برؤية واضحة.

فقد اتبع الباحث في هذه الدراسة أكثر من منهج من مناهج البحث مما رآه يحقق الغاية وهو المنهج التكاملي، فقد أخذ بالمنهج التاريخي للوصول للبيئة الاجتماعية والأدبية والفكرية والمكانية للصحراء، واستعان بالمنهج الوصفي للوقوف على جوانب الحياة العامة وطبيعة ومناخ البيئة الصحراوية ووصفها، ثم تناول البحث الجانب النفسي للشاعر البدوي من خلال عرض بعض أشعارهم، كما تناول المنهج التطبيقي لأشعارهم في الصحراء، ومدى دلالة ما تناولناه من رؤى في جوانب طبيعتها الجغرافية والمناخية وغيرها.

وقد اعتمد الباحث في جمع هذه المادة وتوظيفها على عدد من دواوين الشعراء الجاهليين وغيرهم التي تدلل وتحقق الغرض وعلى عدد من المصادر والمراجع ذات الصلة بالموضوع التي تخدم منهج البحث.

هيكل البحث:

قُسمت هذا البحث إلى أبواب وكل باب إلى فصول وبعض الفصول إلى مباحث ، بدأ بإهداء وشكر وعرفان ثم مقدمة تم فيها عرض أسباب اختيار البحث وخطة البحث يليها تمهيد تناول البيئة الصحراوية طبيعتها ومناخها، وما اشتملت عليه من مكونات ومفردات شكلت ملامح البيئة لصحراوية وأثرها على طبيعة الحياة فيها.

فأما الباب الأول فمعني بمدلول وطبيعة الصحراء وأهميتها. والثاني تناول الحياة الاجتماعية في الصحراء. أما الباب الثالث تناول طبيعة الصحراء في الشعر الجاهلي ومكوناتها. أما الباب الرابع تناول مظاهر الصحراء في الخصائص الفنية للشعر الجاهلي واختتمت البحث بخاتمة توصلت فيها إلى أهم النتائج والتوصيات وفهرست يوضح محتويات البحث وفهرست للموضوعات مستعيناً في ذلك بجملة من المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع البحث . هذا ولا يفوتني أن أشكر كل من أعان وأسهم في هذا البحث وتقويمه الممثل في لجنة المناقشة والحكم والشكر لله من قبل ومن بعد .

وفي النهاية يكون دائماً في الذاكرة قول العماد الأصفهاني "إني رأيت ألا يكتب إنسان كتاباً تاماً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

وهذه الدراسة بقدر ما يطمع فيها أن يصل إلى النتائج كان طمعه فيها أن تكون بين يدي الدارسين للاستفادة ومزيد من البحث والإضافة وفتح طريق في هذا المنحى.

والله المستعان وهو يهدي السبيل

الباحث

تهييد:

إن الاهتمام بالمكان أصبح له أهميته فارتبط بعالمية الأدب وهو أحد أسباب الوصول للعمل الأدبي تأثيره وتأثره وهو طريقة لرؤية النص الأدبي من الداخل والخارج معاً فهو أكثر استيعاباً لمعاني النص وفنيته ولذا جاء الحديث عن الصحراء في الشعر الجاهلي يمجّد المكان ويحمل صفاته وسماته فأنت الأوصاف التي تصور البيئة الحية والجامدة في الصحراء، ولذلك جاء حديث الشاعر عنها متمكناً من مكانتها محتوياً لها وهو لا يكون إلا لمن ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً وعاشها معاشة حية قريبة جعلته قادراً على فهم طبيعتها فكانت الصحراء ملهمة للشعراء العرب القدماء منهم واللاحقين حيث فجرت فيهم ينابيع الشعر والفصاحة على ألسنتهم وهم الذين عاشوا في أكنافها واستظلوا بظلها وجاسوا مراتبها، ولذا جاء إحساسهم بها إحساساً صادقاً وزوجوا بين حبهم للصحراء وحبهم للمرأة فجعلوا الحديث مدخلاً في كثير من أشعارهم وصفاً لمشاعرهم وأحاسيسهم تجاه المرأة التي سكنته فكان الحديث عن الطلل الذي تميزت به مقدمة القصيدة الصحراوية الجاهلية فقد سكن العرب في جاهليتهم في أرض واسعة ذات بقاع متباينة تختلف بيئاتها الطبيعية اختلافاً يكاد يجعل كل منها مواطن متعددة .

وأما صحراء الجزيرة العربية وهي المعنية في هذا البحث والتي تقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا وسميت جزيرة "الإحاطة البحار والأنهار بها من كل جوانبها" ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت قسماً من أفريقيا الشرقية فحدثت في العصور الجيولوجية المتأخرة سلسلة من الحركات الأرضية أدت إلى تكوين الأخدود الذي يشكل البحر الأحمر وخليج السويس وبذلك انفصلت جزيرة العرب عن قارة أفريقيا^(١).

فالصحراء بها كثير من التضاريس السهلية والرمليّة والجبلية (فتخترق جزيرة العرب سلسلة جبال السراة الحجازية للساحل الغربي من الشمال إلى الجنوب مكونة انحداراً شديداً نحو الغرب وخفيفاً تدريجياً نحو الشرق وتسمى المنطقة

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د نوري حمودي القيسي، طبعة مكتبة النهضة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م،

الساحلية تهامة ، وقد تذكر مضافة إلى القسم الذي تحاذيه فيقال تهامة اليمن وتهامة الحجاز، وتضيق هذه المنطقة وتتسع في أماكن معينة حتى يصل عرضها في بعض الأحيان إلى الأربعين أو الخمسين ميلاً، وتسمى الغور لانخفاض أرضها^(١).

فالصحراء العربية تتوسط جزيرة العرب وفي أطرافها بعض المناطق الحضرية كالشام والعراق واليمن وحضرموت والبحرين وعمان والمناخ الصحراوي تغلب عليه قلة الأمطار والجفاف أحياناً كثيرة وبذا أفرز بعض المكونات البيئية، كالجفاف والترحال والهجرة والمجاعة، والحرب والحر الشديد، والبرودة الشديدة، ونبتت بها بعض الأشجار والأعشاب والحشائش التي تتحمل العطش، فتخضر الأرض في فصل الشتاء فترتدي غطاء أخضر من العشب عند نزول الأمطار بها وفيما عداها من الفصول تصبح جدياً كما ورد في أشعارهم وكذلك في قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أنزل هو وذريته في صحراء الجزيرة العربية فقد كانت خالية لا ماء فيها ولا ضرع كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^(٢).

فحياة الصحراء اتسمت بعدد من السمات التي ميزتها عن حياة الحضر، فالبيئة الصحراوية كان لها أثرها ولونها بل أثرت في حياة الناس وتناولوها في أشعارهم معبرة عن مواقفهم وحياتهم وسلوكياتهم وتطلعاتهم وخيالهم وأحلامهم. يصف الأعشى^(٣) جزئية من صورة الصحراء بقوله:

وبلدة يرهب الجواب دلجتها * حتى تراه عليها يبتغي الشيعا**

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د نوري حمودي القيسي، طبعة مكتبة النهضة العربية، الطبعة الثانية، ص ١٤.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٣) الأعشى هو ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل بن عوف بن سعد المعروف بأعشى قيس ويقال له أعشى بكر بن وائل والأعشى الكبير (أبو بصير) من شعراء الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات ولد في قرية منفوحة باليمامة قرب مدينة الرياض ووفد على كثير من الملوك ولا سيما ملوك فارس ولذلك كثرة الألفاظ الفارسية في شعره أدرك الإسلام ولم يسلم وعمي في آخر عمره وتوفي في منفوحة سنة ٧هـ من آثاره ديوان شعر — أنظر معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية عمر رضا كحالة، ط ١ بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م، ج ٣، ص ٩٤٩.

لا يسمع المرء فيها ما يؤنسه *** بالليل إلا نائم البوم والضوفا
كلفت مجهولها نفسي وشاييني *** همي عليها إذا ما آلهامعا⁽¹⁾

ولعل الشعر كان وسيلة التعبير في الحياة البدوية في الصحراء، وهو يمثل الصورة والكتابة للتاريخ والجغرافيا ويمثل النقل الحي لكل مظاهر الحياة، فالشعر عكس إبداعهم وفكرهم وأخلاقهم ورؤيتهم للحياة ووسائل حياتهم وإحساسهم بالجمال والقبح وعلو الهمة والفخر والاعتزاز بالنفس وسمو الروح ومظاهر الحياة الاجتماعية لديهم وكل أغراض الشعر ولذلك نشأ الشعر العربي في هذه البيئة الخصيبة بالفكر والإبداع والوضوح والجمال .

فالصحراء ملأت على البدوي قلبه ونفسه وكيانه وتفكيره وعاطفته وخياله فكان نتاج ثمرة ذلك أشعارهم التي بين أيدينا وأعطته حضور البديهة والذكاء اللامح ولذا جاء أدبه أدب السليقة والبديهة ينزع الوضوح والإيجاز في المعنى، وتغنى البدوي بالصحراء رغم ما بها من شدة فأجاد في وصفها لما فيها من جمال فكان الجمال في الإنسان والنبات والماء والكواكب والسماء والجبل الأشم والصخر وفي الصحراء الموحشة، والجمال مائل في كل خلق من مخلوقات الله تعالى فجاشت نفسه بكلام يحمل صفاء ونقاء قريحة الإنسان البدوي الذي حمل تراثه العريق وتقاليد الأصيل في كل منزل نزل به ومن كل موطن استقر به فانطلق الشعر يملأ آفاق الصحراء فكان هذه البيئة الصحراوية منحته سراً من أسرارها قبل أن يرحل في صدور الرجال وقوافل الرواة.

(والبدوي في الصحراء هو أقدم من الحضري وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها لأن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم

⁽¹⁾ ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1972م، ص 99، الجواب: الكثير الأسفار، الشيع: المعين أو المشجع، النيثم: صوت الضوفا، الضوفا: طائر ليلي كالغراب .

العاجزون عما فوقه، وأن الحضر الموصوفون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم وحوائجهم^(١).

ونجد البدو هم الجزء الأكبر في شبه الجزيرة العربية الذين يسكنون الصحراء، وكونت البيئة الصحراوية حالتهم الاجتماعية فاحتقروا الصناعة والزراعة وعاشوا تحت الخيام على رعي الأغنام يطعمون من لحمها ولبنها ويكتسبون بصوفها ووبرها ويبتغون مواقع المطر يرحلون من مكان إلى آخر في طلب الكأ والماء، وإذا احتاجوا إلى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا من طريق البدل فاستبدلوا بالماشية ونتاجها وما يتطلبون من تمر ولباس ولجأوا إلى الغزو والسلب إن عضتهم الحاجة أو دعاهم طلب الثأر^(٢).

برزت الطبيعة الصحراوية في الأدب العربي وما اشتملت عليه من رموز ودلالات في البيئة الجامدة منها مثل الصخور والرمال والسهول والجبال والوديان أو المتحركة كالحیوان الأنیس كالإبل والفرس، والمتوحش منها والطيور بأنواعها أو الأمطار والأنواء وكل ما يحيط به فكانت الملكة التشبيهية لدى الشاعر الذي عبر عنها في بيئته فكان لها دور في إثراء الشعر العربي بكثير من المعاني والمفردات والأفكار والألفاظ المستوحاة من البيئة بل التفكير العميق في الحياة، فأنتت فكرة الموت والفناء كنتاج طبيعي لواقع الحياة والأثر النفسي الذي فرضته طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والبيئية، وما تشربه الشاعر من خلال حله وترحاله ونمطه الاجتماعي الذي ولد نتيجة ذلك.

فالحياة الاجتماعية تطلبت منه العيش في مجموعات وبذلك تشكلت القبيلة التي أصبحت واقعا كسرا للوحشة وسلوانا للسائر والقاطن، وزودا عن الحياض وتماسكا في وجه الحياة وتعاوناً وتذليلاً لنصب الحياة، وإكراماً للضيف، وعوناً للفقير وإغاثة للملهوف، وإجارة للضعيف، وتماسكا للأسرة بل ودفناً نفسياً وشعوراً بالطمأنينة، فالقبيلة حلقة انبثقت منها حلقات خُقية وصفات كريمة وجليلة كثيرة لكن

(١) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمد شكري الألويسي، عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، الجزء الثالث، طبعة دار الفكر العالمية، ص ٤٣٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، طبعة بيروت، لبنان بدون، ص ١٥.

على الرغم من ذلك كانت هناك الحروب والثارات والحمية القبلية العصبية بين القبائل والعشائر لإثبات الذات وكسباً للعيش فحركة حياة الصحراء الضغن والرحلة والتنقل بكل أسبابه أدى لإثراء الحياة الأدبية فرحلة الشاعر مع قبيلته من وادٍ لآخر جعل انتقال القصائد وزيوعتها من مكان لآخر فتأتي الرحلة في الصحراء معبرة عن مقاصد البدوي وقد أخذت حيزاً في شكل ومضمون القصيدة ووزنها ومفرداتها، وللصحراء على الإنسان فضل لا ينكر في توجيه حياته وفكره وسلوكه وهي مكان وظرف وبذا تركت به أثراً عميقاً لا تمحوه الأيام في تكوين حياته وبناء مجده فانطلق منها بتكوين حضارة عريقة في قوتها وسموقها فخلعت عليه كثيراً من الصفات الخلقية القويمة فكان هذا التأثير القوي الذي جعل منه الإنسان المتفرد الذي أرسى إرثاً عظيماً من خلال تجوال فكره وبصره وجسده في ذاك المكان الفسيح الرحب الذي يمتع الناظر ويسر النفس ويبدع الشاعر والفنان فعرف العربي الصحراء قبل معرفته بالبحار والأنهار وجمال في وديانها ووهادها وسهولها ورمالها وتنسّم أريج نبتها وأزهارها وعبق وردّها فاستنبت الماء من جوفها وذاق هجيرها وحرّها وزمهرير شتائها وظلها واعتدال جوها خريفاً فتخضر وديانها وسهولها وينحسر ويبيض وجهها بعده، فكانت حركته الدائبة بحثاً وضرباً في الأرض عن العيش الكريم بنهاره فإن جنّ الليل آوى إلى مضجعه هانئاً من لذة البحث المضني ينتقل مع مناخها صيفاً وشتاءً، وامتزج البدو بهذه البيئة حتى أصبحت جزءاً من حياته فلا يجد لها بديلاً ولا عنها متحولاً، ومنها استمد تجارب حياته ونمط عيشه وأسلوب كلماته وثقافته ورؤيته للحياة وعرف سلوك وطبائع حيواناتها وطيورها وأحيائها الأخرى فزادته علماً ودراية وعزيمة لا تلين وإصراراً على تكبد المشاق والطموح الثواب والذكاء والبديهة

الحاضرة والشجاعة والشكيمة كقول طرفة^(١):

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه * حُشاش كُرأس الحية المتوقد^(٢)**

وانعكست هذه الصفات قوة في أسلوبهم فالأشعار التي ولدت في تلك البيئة عبرت عنها وكانت وما زالت هي المرجع والتمكأ لما فيها من لغة رفيعة وأسلوب بليغ وموضوعات غنية، ومتنوعة استمدت من تلك البيئة الرحبة فالصدق والعفة، تزين صدرها وتوشحت به قصائدهم يقول ليبد معبراً عن حق الجار والجاراة وإطعامها:

وجارته إذا حلت إليه * لها نفل وحظ في السنام**

فإن تقعد فمكرمه حصان * وإن تظعن فمحسنة الكلام^(٣)**

وكذلك نجد الناقة والفرس يسيطران على معظم القصائد فهما وسيلتا حله وترحاله حربه وسلمه، سفره ومكوته، صيده ونزهته، وهما السلوى في المسير الطويل وما يحمله من تفكير وخيال ووصف للحياة وبكاء على الأطلال ومواقع الحبيبية ومنتكراً تلك الأيام الخوالي التي كانت مسرحاً للسمر والأنس في بقاع الحبيبية فأصبحت كل هذه المكونات تعبر عن شئ واحد في حياته وتتقاسم مسمياتها حتى كُنيت المرأة بالشاة وكلاهما يتبادلان المنافع. يقول عنتره في معلقته:

يا شاه ما قنص لمن حلت له * حرمت على وليتها لم تحرم^(١)**

(١) طرفة هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو جاهلي من الطبقة السادسة ولد في بادية البحرين نحو (٨٦ وتوفي سنة ٦٠ ق هـ) موافق ٥٦٤ م ، تنقل في بقاع نجد واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامل على البحرين وعمان) يأمر فيه بقتله لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها فقتله المكعبر شاباً وقيل ابن ست وعشرين سنة من آثاره ديوان شعر — أنظر الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . خير الدين الزركلي ، ط ١٠ بيروت دارالعلم للملايين ١٩٩٢ م ، ج ٣ ص ٢٢٥ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبدالرحيم بن العباس تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد بيروت عالم الكتب ١٩٤٧ م ، ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢) ديوان طرفة بن العبد البكري ، شرح يوسف الأعلم بيروت دار صادر ١٩٠٠ م ص ٥٤ .

(٣) ديوان ليبد بن أبي ربيعة ، دار صادر بيروت ١٩٦٦ م ص ٢١٠ . ويروى نقل وحق . النفل : العطية، حصان: عفيفة ، محسنة الكلام : تنتهي ثناء حسناً .

فهنا الشاة كناية عن المرأة وتكنى أيضاً المرأة بالنعجة، وكما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ﴾^(٣) في قصة داود عليه السلام في سورة (ص)، أن النعجة هنا المرأة^(٤). فالعربي أدرك الجمال فتغنى له بمختلف أشكاله وألوانه فتمثل عنده في المرأة والطبيعة فبثها آلامه ونسي عندها أحلامه وأثارت الأطلال شجونه ولذلك تمثل الحياة البدوية بكل أركانها.

امتاز البدوي بالقوة والشجاعة ومغالبة الصعاب ومجالدتها ووصفه للحيوانات بالقوة والسرعة نفسياً لمغالبة هذه الصعوبات بتصويرهم لهذه الحيوانات ثم الباعث النفسي في الغارات والحروب وقد انعكس ذلك في حياتهم الاجتماعية (فالرعي هو سبيل من سبل كسب عيشهم فكان تقديسهم للخصب ومواطن المياه والآبار وما جاء في بئر زمزم وحفرها روايات)^(٥).

وكما ذكرت آنفاً أن البدوي تفاعل مع الصحراء فأثرت في حياته (فأصبح يقيم في خيام يتنقل بها حيث طاب له المقام يكفيه القليل من التمر واللبن، فهو يدبر كل حياته وفق المعطيات والظروف الطبيعية فهذا يحتاج لشجاعة وصبر وإقدام ولذلك كان الفارس مكرمة من مكارم قومه ومفخرة من مفاخرهم التي يعتزون بها ويشيدون ببطولتها)^(٦).

ولذلك نجد الصحراء مكاناً وموطناً وعاطفة جياشة شفت قلوب الشعراء بمواردها ذات الطبيعة الحية منها والجامدة، فخلبت فكره واستمد منها ضوءها

(١) ديوان عنتر بن شداد ، ص ١٢٥. لمن حلت له: لمن قدر عليها، يقال معنى حرمت على أي جارتني، قنص: صيد، لبيتها لم تحرم: أي لبيتها لم تكن لي جارة حتى لا تحرم عليّ.

(٢) سورة ص من الآية ٢٣.

(٣) سورة ص من الآية ٢٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الإمام العلامة عبدالرحمن بن ناصر ، دار الحديث القاهرة طبعة ٢٠٠٥م، ص ٧٨٤.

(٥) السيرة النبوية، لابن هشام قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبدالرؤوف سعد دار الجيل طبعة بيروت ١٩٧٥م ، ج ١، ص ١٥٤.

(٦) مقدمة ابن خلدون للعلامة عبدالرحمن بن خلدون منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية طبعة بيروت لبنان ص ١٢٥.

ومعانيها وأثرت فيه فورد حياضها الدافئة منها والباردة، فكونت هذا الصرح الشامخ والرصيد الأدبي القديم، وتلك القوائد النيرات المتراسة المتباينة في غرضها ونوعها تبياناً ألبسها ألقاً ونضارة وصارت نبراساً يهتدي به وأساساً ثابتاً مشى عليه الشعراء والأدباء يستمدون من ضوءه ونوره.

الباب الأول

بيئة الصحراء ومدلولها وأهميتها

الفصل الأول

إسم ومدلول الصحراء في اللغة والشعر

اسم ومدلول الصحراء في اللغة والشعر

اتسعت اللغة العربية بألفاظ ومعاني الصحراء كاتساعها في فضاءها الرحب، وقد وردت معاني ودلالات وألفاظ شتى تدل على هذه البيئة الصحراوية العتيقة فمثلاً "لفظة صحر" المكونة من "الصاد والحاء والراء". أصل في بنية الكلمة تدل على أصليين أحدهما البراز من الأرض والآخر لون من الألوان يقال: أصحر القوم إذا برزوا إلى الصحراء لا يستترهم شيء، وأصحر الرجل نزل الصحراء، وبرز إلى فضاء واسع لا يواريه شيء والأصل الآخر الصُّحرة وهي لون أبيض مُشرب بحمرة^(١) يقول النابغة^(٢) الذبياني :

وغارة ذات أظفار ململمة *** شعواء تعتسف الصحراء والأكما^(٣)

"صحر: هي الأرض المستوية في لين وغلظ دون القف، وقيل هي الفضاء الواسع زاد ابن سيده^(٤) لا نبات فيها، قال ابن شميل^(٥): الصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا إكمام ولا جبال ملساء، يقال صحراء بينة الصَّحْر والصُّحرة، أصحر المكان أي اتسع، أصحر الرجل نزل الصحراء، أصحر

(١) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، ج٣، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، مادة "صحر"، ص ٣٣٣.

(٢) النابغة: إسمه زياد بن معاوية بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، اعتذر من النعمان بن المنذر فيما وشى به بنو قريع في أمر المتجرده - أنظر ديوان النابغة الذبياني صنعة ابن السكيت تحقيق الدكتور شكري فيصل دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٩٠م ص ١٩ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني صنعة ابن السكيت تحقيق الدكتور شكري فيصل دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٩٠م ص ١١١ . غارة: خيل تغير (أراد ورب بلد) أظفار: سلاح. شعواء: متفرقة، تعتسف: تسير على غير هدى.

(٤) ابن سيده هو علي بن اسماعيل المعروف بإبن سيده أبو الحسن إمام في اللغة وآدابها ولد بمرسية شرق الأندلس ولد سنة ٣٩٨هـ وتوفي ٤٥٨هـ صنف كتاب المخصص في سبعة عشر مجلداً وهو من أئمن كنوز العربية وكتاب المحكم والمحيط الأعظم وشرح ما أشكل من كتاب المتنبي - أنظر الأعلام ج٤ ص ٢٦٣ - انباه النحاة : الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م ج٢ ص ٢٢٥ .

(٥) ابن شميل هو النضر بن شميل بن خرشنة بن كلثوم بن عبده زهير التميمي المازني البصري أبو الحسن ولد بمرور ونشأ بالبصرة وأخذ عن الخليل بن أحمد وأقام بالبادية زمناً طويلاً وعاد إلى مرو وولي قضاءها واتصل بالمأمون العباسي وأكرمه توفي بمرور سنة ٢٠٤هـ من تصانيفه الصفات في اللغة في خمس أجزاء. المدخل إلى كتاب العين. غريب الحديث. الشمس والقمر. كتاب الطير - أنظر معجم المؤلفين ج٤ ص ٣٠ - بقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم بيروت المكتبة العصرية ج٢ ص ٣١٦ .

القوم برزوا في الصحراء، الجمع الصحاري، الصحاري، ولا يجمع على صُحر لأنه ليس بنعت، وجاء قول ابن سيده في لسان العرب لابن منظور^(١) الجمع صحراوات وصحار والمُصاحِر الذي يقاثل قرّنه في الصحراء ولا يخاتله^(٢).

وأياً كانت التعريفات نجدها تتفق في معنى أن الصحراء فضاء متسع ممتد قليل الأمطار لا أنهار فيها ولا مياه متوفرة ولا عيون جارية ممتدة متفرق عشبها وشجرها ونموذج للصحاري صحراء الجزيرة العربية التي هي موقع بحثنا، والصحراء الكبرى في شمال أفريقيا وغيرها من الصحاري المتفرقة في العالم.

فقد وضع العرب للصحراء عدداً من الأسماء في معاجم اللغة المختلفة تلمح فيها صفات ومعاني الصحراء ونلاحظ دلالاتها على ما تمتاز به الصحراء من غيرها من أنواع البقاع والأراضي، وهي في الأصل صفات ونعوت للبقاع التي تتفرد بصفات لا تخرج عن المعنى المفهوم للصحراء وما يدل عليها في مفهومها العام وهذا يدل دلالة واضحة على مقدرة العرب في ذلك الزمان على اختيار اللغة المناسبة للدلالة على المعنى المائل في الذهن وعلى مقدرة واضعي اللغة من تسجيلها وتدوينها والحرص عليها. وتدل كثرة أسماء الصحراء على الاحتفاء والتقدير وحبهم لها والفخر بها واتساع فكر البدوي في استنباط المعاني والدلالات للشئ الواحد وكثرة الأسماء تدل على عظم المسمى.

وتحتل الصحراء في مساحتها أكبر بلاد العرب في الوسط والشمال والجنوب ونذكر هنا بعض الأسماء التي وردت في المعاجم أو الأشعار التي تدل على اسم الصحراء، فهي تحمل صفات ومعاني ودلالات الصحراء، وتختلف الصحراء

(١) ابن منظور هو محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين أبو الفضل المعروف بابن منظور الأديب اللغوي ولد سنة ٦٣٠هـ وتوفي بمصر سنة ٧١١هـ من مصنفاته لسان العرب في اللغة - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر تهذيب الخواص من درة الخواص للحريري - أنظر هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل باما البغدادي طبعة استانبول ١٩٥٥م منشورات مكتبة المتني ببغداد، ج ٢ ص ١٤٢.

(٢) لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، مادة صحر، ج ٤، ص ٤٤٣-٤٤٤. قالوا: صحارى بفتح الراء لتسلم الألف من الحذف عند التثوين ليفرقوا بين الياء المنقلبة من الألف للتأنيث نحو ألف مرمى ومغزى.

العربية من موضع لآخر حسب طبيعتها في الوسط والشمال والجنوب" (١) ومن صفات الصحراء ومسمياتها وقد رتبها حسب الحروف الأبجدية :

١- البثنة: الأرض السهلة وبه سميت المرأة بُثينة. ويقال بثته (٢).

٢- البرية: هي الصحراء والجمع البراري (٣)

٣- البسبس: هو البر المرتفع الواسع والجمع البسابس (٤).

٤- البلقع: والبلقعة هي الأرض القفر التي لا شئ فيها من شجر ونحوه (٥).

قال جرير :

حيّوا الديار وسائلوا أطلالها *** هل ترجع الخبر الديار البلقع (٦)

٥- البهُر: الواسع من الأرض الذي لا جبال فيه (٧).

٦- البيداء: وهي الفلاة والمفازة لا شئ بها، وسميت الصحراء بيداء

لأنها تبيد سالكها، والإبادة الإهلاك والجمع بيد وبيداوات (٨).

كقول زهير:

وبيداء تيه تحرج العين وسطها *** مخفقةً غبراء صرماء سملق (٩)

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد عبد العزيز سالم، الناشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية بدون، ص ٦٦.

(٢) المخصص تأليف أبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، المجلد الرابع، المكتب التجاري، دار صادر، بيروت بدون، ج ٤ ص ١٢٢.

(٣) القاموس المحيط، مادة برر، ص ٢٨٥.

(٤) لسان العرب، لابن منظور، ج ٢، دار صادر بيروت ٢٠٠٠م مادة بس، ص ٨٦.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، ج ٨ ص ٢١ مادة (بلقع).

(٦) ديوان جرير طبعة دار الكتاب اللبناني، ص ٤١٧.

(٧) المخصص لابن سيده، ج ٤ ص ١٢٢.

(٨) القاموس المحيط، محي الدين بن يعقوب الفيروزبادي، دار الجيل بيروت بدون، ج ١ ص ٣٨٥.

(٩) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٨٢. تحرج: تدهش الحرج في العين الحيرة. مخفقة: تخفق بالسراب. صرماء: لا ماء فيها. سملق: لا نبات فيها.

وقال أبو الطيب المتنبي فيما بعد:

أما الأحبة فالبيداء دونهم *** فليت دونك بيداً دونها بيد^(١)

٧- التنوفة: وهي المفازة أو الأرض القفر، وقيل الأرض المتباعدة

الأطراف والتي لا ماء فيها من الفلوات ولا أنيس وإن كانت

معشبة والجمع تنائف^(٢).

قال امرؤ القيس:

وتنوفة جدباء مهلكة *** جاوزتها بنجائب فُتل^(٣)

٨- التيماء: وهي الفلاة الواسعة قال الأصمعي^(٤) التيماء التي لاما

فيها وأرض تيماء مهلكة^(٥).

٩- التيهاء: هي المفازة. يتاه فيها أي يضل ولا يهتدي لطريق،

والأرض الضلة الواسعة لا أعلام فيها ولا جبال ولا آكام^(٦).

كقول ذي الرمة:

وتيهاء مقفار يكاد ارتكاضها *** بآل الضحى والهجر بالطرف يمصح^(٧)

١٠- الجدجد: قال صاحب العين هي الأرض الملساء^(٨).

١١- الجؤ: قال أبو زيد: هي الوطاء السهل في الأرض، ومالان

ورق وجمعه الجواء^(١).

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، ج ٢، شرح أبي البقاء العكبري والمسمى بالتبنيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري، دار المعرفة بيروت لبنان ١٩٧٨م، ص ٣٩.

(٢) لسان العرب لابن منظور، ط ١ بيروت دار صادر للطباعة والنشر ٢٠٠٠م ج ٢ ص ٢٤١ مادة تنف.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ١٣٠. الفتل: مفردها فتلاء، وهي الناقة إذا كان في ذراعها فتل وبعد عن جنبها، ويكون ذلك أقوى وأسرع لها في المسير.

(٤) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب واسم قريب عاصم يكنى أبابكر بن عبدالله بن أصمع كان صاحب النحو واللغة والأخبار والملح مولده ووفاته بالبصرة ولد سنة ١٢٢هـ وتوفي سنة ٢١٦هـ أخباره كثيرة تصانيفه كثيرة منها الإبل - الأضداد، شرح ديوان ذي الرمة - انظر الأعلام للزركلي ج ٤ ص ١٦٢.

(٥) لسان العرب، لابن منظور، ج ٥، ص ٢٠٩. مادة (تيم).

(٦) لسان العرب، ابن منظور، (تياه)، ص ٨٩.

(٧) ديوان ذي الرمة، ص ٨٦. ووردت: أيضاً ببداء في أول البيت. مقفار: قفر. إرتكاضها: ركضها.

الآل: السراب. الهجر: الهاجرة. الطرف: العين. يمصح: يذهب بالعين.

(٨) المخصص ابن سيده، ج ٤، ص ١٢٢.

يقول النابغة الذبياني :

داراً تعفت لا أنيس بجوها *** إلا بقايا دمنةٍ وأواري^(٢)

١٢ - الخرق: وهي الفلاة الواسعة والأرض البعيدة مستوية كانت أو

غير مستوية سميت بذلك لإنخراق الريح فيها والجمع خروق^(٣).

منها قول امرئ القيس:

وخرق بعيد قد قطعت نياطه * * * على ذات لوث سهوة المشي مذعان^(٤)

وقوله :

وخرق كجوف العير قفر مضلة * * * قطعت بسام ساهم الوجه حسان^(٥)

١٣ - الخفقة: مفازة ملساء ذات آل^(٦).

١٤ - الدوّ: هي الفلاة الواسعة والمفازة، وقيل الأرض المستوية

الملساء يخاف فيها الضلال ويسار فيها بالنجوم^(٧).

كقول ذي الرمة:

ودوٌ ككف المشتري غير أنه * * * بساط لأخماس المراسيل واسع^(٨)

وقول امرئ القيس:

ودوية لا يهتدي لفلاتها * * * بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب^(١)

(١) المخصص: ابن سيده، ج ٤ ص ١٢٢.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ٩٦. نصب الدار على قوله: (وما استخباري داراً تعفت).

(٣) لسان العرب ابن منظور، ج ٥ ص ٥٣ مادة(خرق).

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١٦٤، نياطه: أوساطه، على ذات لوث: على ناقة كأن بها جنون بسرعتها، سهوة: سهلة المشي مذعان: مطاوعة.

(٥) المصدر السابق ص ١٦٤، كجوف العير: خال، سام: فرس، ساهم الوجه: متغير الوجه، حسان: غاية الحسن.

(٦) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٧) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٤. مادة (دوا).

(٨) ديوان ذي الرمة ص ٣٩، الدوية: هي الفلاة المقفرة التي تردد فيها الأصوات والتي لا أعلام لها. شبه الدو في استوائه وانبساطه بكف المشتري إذا بسطه وصفق براحته على راحة البائع عند إمضاء صفقة البيع، المراسيل: الناقة السريعة، أخماس: ورود الماء في اليوم الخامس.

١٥ - **دوم**: وهي الفلاة التي يدوم السير فيها^(٢).

١٦ - **الديمومة والديموم**: وهي الفلاة يدوم السير فيها لبعدها وأرض مستوية لا أعلام بها ولا طريق ولا ماء ولا أنيس وإن كانت مكتئبة، والجمع الدياميم. قال أبو عمرو الدياميم الصحارى الملس المتباعدة الأطراف^(٣). يقول الأعشى:

فوق ديمومة تغول بالسف — * رقفار إلا من الآجال^(٤)**

١٧ - **السبب**: هو القفر والقفر البعيدة مستوية وغير مستوية وغلظة وغير غلظة لا ماء فيها ولا أنيس، والسبب الأرض الجدبة والجمع السباسب^(٥).

وقول عبيد الأبرص:

إني اهتديت لركب طال سيرهم * في سبب بين دكداك وأعقاد^(٦)**

١٨ - **السهب**: وهي ما بعد من الأرض واستوى في طمأنينة وهي أجواف الأرض وبطن الأرض تكون في الصحارى^(٧).

وقول الأعشى:

وكم دون ليلي من عدو وبلدة * وسهب به مستوضح الآل يبرق^(٨)**

١٩ - **السهمج والدهمج**: هي الأرض الواسعة السهلة^(٩).

(١) ديوان امرئ القيس، ص ٣١ .

(٢) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، مادة دوم ص ٢١٤ .

(٣) لسان العرب، ص ١٦٦، (دوم).

(٤) ديوان الأعشى ص ١٦٦، تغول: تشبه الغول في إلحاق الأذى بالمسافرين. الآجال: مفردها إجل وهو القطيع من بقر الوحش.

(٥) المصدر السابق مادة سب ص ٤٠٥ .

(٦) ديوان عبيد الأبرص، دار صادر للطباعة والنشر طبعة ١٩٥٨م ص ٦٢ . الدكداك: ما استوى وتلبد من الرمل، الأعقاد: مفردها عقد بفتح أوله وكسر ثانيه، وفتحه.

(٧) لسان العرب، ابن منظور، ج ١، ص ٤٧٦ .

(٨) ديوان الأعشى، ص ١٢٢ . السهب : الفلاة . ليلي : إبنته

(٩) المخصص: ابن سيده، ج ٤ ص ١٢١ .

٢٠ - الصحاح: الواحد صحصح وهو ما استوى من الأرض وقيل الأرض السهلة^(١).

يقول النابغة:

فيحملها على المكروه همي * * * تخطى الحزن والبلد الصحاحا^(٢)

٢١ - الصحراء : هي الأرض المستوية الواسعة^(٣).

وقول امرئ القيس :

ترى الفأر في مستنقع القاع لاجباً * * * على جدد الصحراء من شد ملهب^(٤)

وقول النابغة الذبياني :

جمع يظل به الفضاء معضلاً * * * يدع الإكام كأنهن صحاري^(٥)

٢٢ - الصرداح: والصدراح والصدحة: هي الصحراء لا شجر فيها ولا نبت، والفلاة لا شئ فيها والجمع الصرداح^(٦).

(١) لسان العرب لابن منظور ، ج ٨ ص ٢٠٢ مادة (صحصح) .

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٢٥٢، الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٣) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكريا، ج ٣ ص ٣٣٣.

(٤) ديوان امرؤ القيس، ضبطه وصححه وحققه الأستاذ مصطفى عبدالشافي منشورات محمد علي دارالكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الخامسة ٢٠٠٤م ص ٣٦. مستنقع القاع : الماء المنتقع في منخفض الأرض، لاجباً: ظاهراً، جدد الصحراء: المرتفع من الأرض . الشد الملهب: العدو الشديد .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٠٢ . معضلاً: ضيقاً ، الإكام: أصغر من التلال .

(٦) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٤٣، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

قال ذو الرمة:

فجاءت كذود الخاربين يشلها *** مصك تهاده صحرٍ صراح^(١)

٢٣- الصرماء: هي الفلاة من الأرض لا ماء فيها^(٢).

٢٤- الضراء: أرض مستوية يكون فيها السباع وكثير من الشجر^(٣).

٢٥- العربسيس: قال أبو دريد متن مستو من الأرض، وقد يقال أرض عربسيس^(٤).

٢٦- الفحص: ما اتسع من الأرض واستوى والجمع فحوص^(٤).

٢٧- الفدافد: هي الفلاة التي لا شئ فيها وقيل الأرض الغليظة ذات

الحصى، وقيل الموضع الصلب والمكان المرتفع فيه صلابة وقيل

الأرض المستوية وجمعها فدافد^(٥).

يقول النابغة في ذلك :

سقى دار سعدى حيث حلت بها النوى * * * فأفعم منها كل ربعٍ وفدافد^(٦)

٢٨- الفلاة: وهي القفر. قال أبو حاتم: سُميت فلاة لأنها فُليت من

كل خير وقيل هي التي لا ماء فيها والجمع فلا وفلاوات وفلي^(٧).

ويقول عنتره بن شداد في وصف محبوبته عبلة :

ورنت فقلت غزاة مذعورة *** قد راعها وسط الفلاة بلاء^(٨)

(١) ديوان ذي الرمة، ص ١٠٩، جاءت ضمير يعود على الحمر الوحشية، الذود: من ثلاث إلى تسع، وقد يتجاوز العدد الخاربان، الخارب: المفسد، يشلها: يطردها، مصك: قوي، يريد به الحمار الوحشي، تهاده: ترمي به صحراء إلى صحراء أخرى.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ج ١٢، ص ٣٣٩.

(٣) المخصص: ابن سيده، ج ٤ ص ١٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٥) لسان العرب لابن منظور، ص ٢١٩ مادة فدافد .

(٦) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٤٦.

(٧) المخصص: ابن سيده، ج ٤ ص ١١٣.

(٨) ديوان عنتره بن شداد ، ص ٧.

ويقول زهير في مدح هرم بن سنان :

يقطعن أميال أجواز الفلاة كما *** يغشى النواتي غمار اللج بالسفن^(١)

٢٩- **الفيفاء:** هي الصحراء الملساء والمفازة لا ماء فيها والجمع

الفيافي^(٢).

وقول ذي الرمة^(٣) في ديوانه:

طواها إلى حيزومها وانطوت لها *** جيوب الفيافي حزنها ورمالها^(٤)

٣٠- **قاع وقيعه:** وهي الأرض المستوية الملساء يخفق فيها

السراب^(٥).

٣١- **القاع:** جمعها قيعان ويراد بها الصحراء الواسعة^(٦).

ومنها قول امرئ القيس:

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعاتها *** كأنه حـب فافل^(٧)

٣٢- **الفردد:** هي الأرض المستوية^(٨).

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة أبي العباس ثعلب قدم له ووضع هوامشه وفهرسه حنا نصر الحتي دار الكتاب العربي طبعة ٢٠٠٤م ص ١٠٩ الميل: القطعة من الأرض مد البصر، أجواز : أوساط ، النواتي : الملاحون، اللج: معظم الماء لا ترى جانبيه .

(٢) لسان العرب لابن منظور، ج ٢ ص ٣١٩ مادة فيف .

(٣) ذو الرمة: هو غيلان بن عقبة بن مسعود العدوي بن مضر أبو الحارث شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره وكان شديد القصر دميماً أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال يذهب في ذلك مذهب الجاهليين وكان مقيماً للبادية بحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً عشق مية واشتهر بها له ديوان شعر مطبوع ، توفي بأصبهان سنة ٧٣٥م - أنظر الأعلام للزركلي ، ج ٥ ص ١٢٤.

(٤) ديوان شعر ذي الرمة، غيلان بن عقبة العدوي، عنى بتصححه كارليل هنري هبس، عالم الكتب بدون، ص ٥٢٦. طواها: أضمرها ركبها، الحيزوم: الصدر، جيوب الفيافي: مداخلها، الحزن: ضد السهل مكان مرتفع ذو صلابة.

(٥) المخصص: ابن سيده، ج ٤ ص ١٢٢.

(٦) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبي زيد القرشي، تحقيق محمد البجاوي بدون، ص ١١٥.

(٧) ديوان امرئ القيس، ص ١١٠.

(٨) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٩) المخصص: ابن سيده، ج ٤ ص ١٢١.

٣٣- القفر: هو الخلاء من الأرض والمفازة لا ماء فيها ولا نبات^(١).

قال الأعشى:

وبيداء قفر كبرد السدير *** مشاربها دائرات أجن^(٢)

وقال النابغة الذبياني:

أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا *** أحنى عليها الذي أحنى على لبد^(٣)

٣٤- القنُع: هي أرض سهلة بين رملٍ تنبت الشجر والجمع أُنُع^(٤).

٣٥- المرْت: هي المفازة لا نبات فيها^(٥).

٣٦- المفازة: هي البرية، القفر، يقال لها المفاز والجمع مفاوز،

قال ابن الأعرابي^(٦) سميت الصحراء مفازة لأن من خرج منها

وقطعها فاز وقال سميت المفازة من فوز الرجل إذا مات^(٧).

وقول امرئ القيس:

تبوص وكم من دونها من مفازة *** ومن أرض جذبٍ دونها ولصوص^(٨)

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج ٥، ص ١١٠ مادة قفر .

(٢) ديوان الأعشى، ص ٢٠٨. السدير: اسم مكان، اليرد: ثوب مخطط، مشاربها: مفردتها مشرب وهو موضع الماء الذي يشرب منه، دائرات: مطموسات، أجن: مفردتها آجن وهو الماء المتغير الطعم واللون.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ٥، أحنى عليها: أفسد عليها الدهر الذي أفسد على لبد.

(٤) المخصص: ابن سيده، ج ٤، ص ١٢١.

(٥) لسان العرب لابن منظور ج ٢، ص ٨٩، مادة (مرت).

(٦) ابن الأعرابي هو محمد بن زياد المعروف بإبن الأعرابي الكوفي أبو عبدالله راوية لأشعار العرب ولد بالكوفة ١٥٠هـ وسمع من المفضل الضبي الدواوين ومحصها وأخذ عن الكسائي وابن السكيت وابي العباس أحمد بن يحيى ثعلب من آثاره النوادر، تاريخ القبائل، معاني الشعر، تفسير الأمثال — أنظر معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ج ٣ ص ٣٠٧ — أنظر مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان، ط ٢ بيروت مؤسسة الأعلى للطبوعات ١٩٧٠ ص ١٠٦.

(٧) لسان العرب، ابن منظور، ج ١١ مادة فوز، ص ٢٣٨.

(٨) ديوان امرئ القيس، ص ٩١. المفازة: الطريق المهلك، وسميت مفازه تفاعلاً بالفوز من أخطارها.

ويقول تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١)، معنى المفازة: هي الفوز والنجاة ، أي لا ينجون من العذاب.

٣٧- المهلكة: المفازة لأنه يهلك فيها كثير من يسلكها^(٢).

٣٨- المهمه: هي المفازة البعيدة والفلاة لا ماء فيها ولا أنيس، والبرية الفقر، والجمع مهمه^(٣).

قال امرؤ القيس:

كَم كَم وَكَم كَم ثُمَّ كَم وَكَم وَكَم *** قَطَعْتَ الْفِيَّافِي وَالْمَهَامَه لَمْ أَمَلْ^(٤)
ويقول عنتره:

كَم مَهْمَهٍ قَفَرٌ بِنَفْسِي خَضْتَهُ * * * وَمَفَاوِزُ جَاوَزْتَهَا بِالْأَبْجَرِ^(٥)

٣٩- موم - الموماة: وهي المفازة الواسعة الملساء، والفلاة التي لا

ماء فيها ولا أنيس والجمع موام^(٦).

قال تأبط شراً^(٧):

يُظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيَمْسَى بِغَيْرِهَا *** جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَهَالِكِ^(٨)

٤٠- اليهماء: المفازة لا ماء فيها ولا يسمع بها صوت، وقيل الفلاة

لا ماء فيها ولا علم ولا يُهتدى لطريقها^(٩).

قال الأعشى:

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٨.

(٢) لسان العرب لابن منظور، ج ١٠ ص ٥٠٥ مادة (هلك).

(٣) لسان العرب لابن منظور، ج ٣ ص ٢١٧ مادة مهمه.

(٤) ديوان امرؤ القيس، ص ١٤٨.

(٥) ديوان عنتره بن شداد، ص ٧٠، الأبرج: فرس عنتره.

(٦) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، ج ١٢، ص ٥٦٦.

(٧) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، ج ١٢، ص ٥٦٦.

(٨) تأبط شراً: هو ثابت بن جابر بن سفيان أبو زهير الفهمي بن مضر شاعر عداء من فتاك العرب في الجاهلية كان من أهل تهامة قتل في بلاد هذيل وألقي في غار يقال له رخصان نحو ٨ق هـ من آثاره ديوان شعر - أنظر الأعلام للزركلي، ج ٢ ص ٩٧.

(٩) ديوان تأبط شراً، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر للطباعة والنشر ١٩٩٦م، ص ٤٩، جحيشاً: منفرداً، يعروري: يركب.

(١٠) لسان العرب لابن منظور، ج ٥، ص ٩٩، مادة (يهم).

يهماء موحشة رفعت لعرضها *** طرفي لا قدر بينها أميالها^(١)

هذه الأسماء والصفات العديدة تدل دلالة واضحة كيف أن العرب قد عنوا بالصحراء واهتموا بها لذا أتوا بأسماء عديدة حوتها كتب اللغة والأدب ذلك لتأثير البيئة الصحراوية في نفس البدوي وفكره إذ نجد أهميتها أن أول شاعر جاهلي كما جاء في كتب التراجم هو امرؤ القيس واسمه مشتق من الأرض وهو حُندج بن حجر بن الحارث "والحندج بضم الحاء والذال بينهم ساكنة في الأصل رملة طيبة تثبت ألواناً من النبات"^(٢)، (ولم يكن تأثيرها في الفكر والأدب فحسب بل "في الأجسام والحواس الظاهرة والباطنة والصور والأخلاق والقوة ولهجة اللسان وسماحة اليد والشجاعة)^(٣).

(١) ديوان الأعشى ، ص ١٥٢ .

(٢) لسان العرب ابن منظور ، ج ٤ ص ٢٤٤ مادة (حندج) ، الحندج والحندجة رملة طيبة تثبت ألواناً من النبات وقيل الحندجة الرملة العظيمة .

(٣) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمود شكري الألوسي، ص ٤٣٤ .

الفصل الثاني

أهمية المكان عند البدوي في الصحراء

أهمية المكان عند البدوي في الصحراء

لما كان موضوع البحث يتحدث عن ظرف مكاني "الصحراء" في الشعر الجاهلي رأيت أن أبدأ بأهمية المكان في الشعر الجاهلي وما برز من انفعال به في قصائدهم، ولما كان للشعر الجاهلي من تصوير مخلص ووفي لتلك البيئة الصحراوية وعكس حياتهم ونفسياتهم، كان من الضروري أن أعقد الصلة بين أهمية المكان وبروزه في أشعارهم من خلال بيئة الصحراء وما كان لهم من عادات وقيم ومثل مثلت تلك البيئة، فتحدثوا عن الدار والمنزل والطلل والظعن والترحال وكلها تتحدث عن المكان وقد وردت آيات في القرآن الكريم تبرز أهمية المكان عند المسلمين يقول تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^(١)، ويقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾^(٢).

تتشابه بيئات الصحراء في كثير من نواحيها وتتنوع وديانها ومنحدراتها وسهولها ورمالها ومنخفضاتها ولذلك أتى هذا السحر الذي تغنى له الشعراء ويقصدون تلك الأماكن بأسمائها من خلال امتداد الصحراء .

ولذا برزت أهمية المكان بصورة كبيرة في تبلور فكر وثقافة وتركيبة الأمم (ومن أبلغ آثاره على الكلمات سوى اختلاف معانيها وتنوع مدلولاتها من موضع إلى موضع ما يضيفه على الكلمة الواحدة من لون حسن أولون قبيح من دون تأثير كبير في جوهر مدلولاتها)^(٣).

وجاء في لسان العرب لابن منظور تحت مادة "كون" أن الكون هو الحدث، وقد كان كوناً وكيوناً والمكان الموضع، والجمع أمكنة وأماكن^(١). وجاء أيضاً في لسان العرب تحت جذر مكن فقال: المكان والمكانة

(١) سورة الحج الآية ٢٦ .

(٢) سورة يونس الآية ٨٧ .

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، مطبعة جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الرابعة، ١٩٩١م، الجزء الثاني، ص ٣١-٣٢ .

(١) لسان العرب ، لبن منظور دار صادر ج ١٣ ص ٣٦٣ مادة كون .

واحد وهو تقدير للفعل مفعّل لأنه موضع لكيئونة الشئ فيه غير أنه لما كثر أجروه مجرى فعال فقالوا مكنأ له وقد تمكن^(٢).

ولذا أتى ذكر المكان في معظم أشعار الجاهليين وتحديده له أهميته في نفس الشاعر وتسميته وتعيده لأن وقوفهم على هذه المواقع يدخل السرور في نفوسهم، وقد جرت الأسماء في أشعارهم لأماكن وقوفهم عليها كوصفهم للإطلال أو الوقوف عندها أو وصف أماكن السراب أو في المديح أو الرحيل والظعن، ومكان وقوف المحبوبة أو أماكن النبات والعشب، أو قطع مفاوز الناقة وقوتها وسرعتها، وليس كل من يسافر في الصحراء يعرف الوصول إلى مكانه وهدفه لاتساعها وتشابه أماكنها. قال الأعشى:

يقول الدليل بها للصحاب * لا تخطئوا بعض أرسادها^(٣)**

فالشعر الجاهلي تاريخ سجل كل الأماكن والصور فهو أصل الأدب العربي وجذره الذي منه نبت وفرع وأزهر، وقد أكثر معظم الشعراء من ذكر أسماء أماكن في الصحراء، منهم امرؤ القيس ووردت في أشعاره أسماء أماكن مثل: (الدخول - حومل - توضح - المقرأة - سحام - الهضب) ، وغيرها، وجاءت في العديد من قصائد القدماء كطرفه، عنتر، زهير، النابغة، وفي شعر عبيد ابن الأبرص، ولذا ارتبط المكان عند الشاعر ارتباطاً حسيّاً ووجدانياً به.

وقد تتبع الشعراء الأثر في الأرض لأهميته عندهم في سبل حياتهم والذي ارتبط بمكان الأرض المنبسطة فقد شبه لبيد الأثر في الأرض بالكتابة على الأحجار ورسمها

ومن ذلك قوله:

فمدافع الريان عرى رسمها * خلقاً كما ضمن الوحي سلامها^(١)**

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٦ مادة مكن .

(٣) ديوان الأعشى، ص ٥٩. إرسادها: الأعلام في الطرق.

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، العامري، ص ١٦٣.

ويشبه زهير بن أبي سلمى رسوم الدار الدارسة برق مكتوب قد أتى عليه الدهر فأذهب معالمه فيقول:

أمن آل ليلى عرفت الطلولا * بذى حرض ماثلاث مثولاً؟^(١)**

ويشبهه بشر بن أبي خازم^(٣) ما بقي من آثار الديار بالألواح المزخرفة كقوله:

فكان أطلالاً وباقى دمنة * بجدود ألواح عليها الزخرف^(٤)**

فالصحراء العربية متنوعة التضاريس فيها رمال ووديان ومرتفعات ومنخفضات، (وقد قسم اليونان والرومان بلاد العرب قديماً لثلاثة أقسام طبيعية تتفق مع الناحية السياسية التي كانت عليها بلاد العرب في القرن الأول الميلادي هي: "بلاد العرب الصخرية وتقع شمال بادية العرب إلى بادية الشام بلاد العرب السعيدة والمقصود بها بلاد اليمن أو الأرض الخضراء بلاد العرب الصحراوية وكانت تطلق على بادية الشام ثم شمل اسمها البادية الواسعة في المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المبتدئة)^(٥).

والعرب فتحت الحياة في هذه البقعة الوسطية وأشعلوا فيها جزوة الحياة بكل ما تحمله من مكونات وأسدت الصحراء لها طابع القوة والعزيمة والإصرار والتحدي فاشتعلت شمعة مضيئة تحمل التحدي والفكر والدراية والأدب نبراساً (فكان موقع الصحراء في الجزيرة العربية الذي يقع في هضبة كبيرة مكونة من جبال وصحارى رملية، أما الصحارى فأهمها صحراء السماوة أو صحراء النفوذ وتشمل معظم شمال الجزيرة ورمالها وعتاء يصعب فيها السير وتسوح فيها القدم وسكانها بدو رحل يقيمون فيها شتاء ويرحلون منها صيفاً إلى التخوم الشمالية طلباً للماء والكأ، وصحراء الربع الخالي وفيها بلاد الأحقاف وهي شمالي حضرموت ومع

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٥٤. حرض: اسم وادي لبني قطفان، ماثلاث: منتصبات، مثولاً: انتصاباً
(٣) بشير بن أبي خازم: هو عمرو بن عوف الأسدي أبو خوفل شاعر جاهلي من الشجعان من أهل نجد من بني أسد بن خزيمة له قصائد في الفخر والحماسة توفي قتيلاً في غزوة أغار بها على صعصة بن معاوية سنة ٢٨ قبل الهجرة له ديوان شعر حققه الدكتور عزة حسن في دمشق - أنظر الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٥٤.

(٤) المفضليات المفضل الضبي كلية اكسفورد بيروت ١٩٢٠، ص ٦٦٣.

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد عبد العزيز سالم، ص ٦٦.

هذه الصحراء جزء يسمى الدهناء شمالي مهرة، وتتصل هذه الصحراء ببادية السماوة وتمتد شرقاً إلى الخليج الفارسي وأرضها مستوية صلبة مجدبة، وقد ينزل بها مطر قليل^(١).

نظر علماء الفلسفة والاجتماع وعلماء الأدب والكتاب إلى المكان من منطلقات مختلفة ، ورؤى متفاوتة ، لهذا كان للمكان أهمية بارزة في الوصول للمكونات إذ أن العمل الأدبي حين يفقر المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته، فالمكانية طريقة لرؤية النص من الداخل والخارج معاً ويمكننا فهم النص من خلال الشاعر والمجتمع ، ولذلك نجد المكان الأداة الأكثر وضوحاً لمعاني النص والمعاني المراده الأخرى، ولذلك جاء الحديث عن الصحراء المكان في الشعر الجاهلي وهذا يتطلب معرفة المكان ومناخه والتطورات الاجتماعية وعلاقاته مع أشيائه.

ولذا (نجد أن اللغة من حيث طبيعتها هي أداة زمانية تتكون من مجموعة من الأصوات ، والمقاطع المحددة ، وكذلك أن الجانب الصوتي هو النافذة لسائر التأثيرات في القصيدة ، وأن الشاعر حينما يستخدم اللغة للتعبير عما يدور في نفسه فإنما يشكل بنية زمانية مكانية متعاقبة التأثير ذات نسق نفسي ودلالي خاص)^(٢).

وبذا جاء شعر البدوي في الصحراء حاوياً وعارفاً بجميع تفاصيله الصغيرة منها والكبيرة ولا يعرفه إلا من تجذر فيه وارتبط به ارتباطاً وثيقاً وجعله فاهماً لطبيعة الأشياء وأماكنها وفجرت الصحراء فيهم ينابيع الشعر على ألسنتهم وملهمة لهم حيث عاشوا في كنفها منذ امرئ القيس ومن بعده، فقد كانت الصحراء هدفاً رئيساً من أهدافهم وموضعاً شعرياً مهماً عندهم فوصفوا امتدادها ورمالها وحرّها وقرّها وحيواناتها وكل مخلوقاتها وهذا ليس غريباً لتجذرهم العميق في رمالها تجذراً أهلم لأن يفهموا مكنوناتها، فأتى إحساسهم بها إحساساً صادقاً وزاوجوا بين حبهم للصحراء وحبهم للمرأة وكل متعلقات المكان، وجعلوا الحديث عن المكان في كثير

(١) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، تأليف عبد الله عبد الجبار محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٠م، ص١٣.

(٢) التفسير النفسي للأدب : تأليف د.عزالدين اسماعيل الناشر مكتبة غريب العامة الطبعة الرابعة ١٩٦٣م ، ص١٥٥.

من الأحيان كما ذكرنا من قبل للتعبير عن مشاعرهم ووصف كل ما يحيط بهم فأنفقوا المرأة رمزاً لذلك، وجعلوا المكان الخاص بالمرأة من الأمكنة المهمة فتحدثوا عن الظعن والطلل والأرض وسمرات الحي، ولذلك وصفوا مكانها وصفاً دقيقاً ومؤثراً وكثيراً ما بكوا تلك الأماكن بكاءً حاراً، وامرؤ القيس استوقف رفيقيه للبقاء بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(١)**

ولذلك نجد تعلق العرب بالمكان تعلقاً بيناً في أشعارهم فمزجوا بين حبهم للمكان الصحراء وممارسة حياتهم وعاداتهم عليه ولنتبين ذلك لنقف عند ثلاث ساحات تأثرت وتأثر بها المكان أولاً رحلة الظعن، ثانيها رحلة الشاعر، وثالثها رحلة الصيد في الصحراء وقد أفردنا للوقوف على الأطلال فصلاً في الباب الثالث.

وإذا كانت الرحلة والترحال في الصحراء أخذت حيزاً كبيراً في أشعار الجاهليين نتيجة لمؤثرات وتأثيرات الصحراء يجدر بنا أيضاً أن نقف على رحلة وترحال خص ذكره الشعراء في قصائدهم وهو الظعن والظعينة وهو ركب يرحل في بوادي الصحراء لأغراض شتى. يقول تعالى: (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)^(٢) وقد أكثر الشعراء الحديث عن الظعن في قصائدهم واصفين فيه أشواقهم وحبهم لمحباتهم على الجمال وهيئة الظعن، وما يصاحبه من لوعة وألم، ولعل من وسائل تخفيف سطوة الزمن وبعث الأمل في الحياة التفات الشاعر مباشرة بعد الأطلال إلى الطعائن وما فيها من جمال وما تحمل من آمال وآلام، فرحلة الطعائن تأتي غالباً في قصيدة الشاعر بعد الأطلال، وبذلك لا بد أن تكون هي الأخرى نتاجاً ومؤثراً طبيعياً لطبيعة الصحراء فهي فكرة حالة طبيعية اجتماعية كان يحياها، وعندما يصف الشاعر الظعن وهو واقف على الأطلال، يرى أهله وأحبابه رحلوا عن هذه الديار، وتركوها عرضة للظروف الطبيعية الصعبة فتلاعبت بها وتغيرت ملامحها وتسرح فيها الأشباح، كقول النابغة:

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١١٠.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٠.

فلما أن رأيت الدار قفراً *** وخالف بال أهل الدار بالي
نهضت إلى عذافة صحت *** مذكرة تجل على الكلال^(١)

فالظروف الطبيعية هي التي تجبر البدوي للرحيل والتجوال من قسوة المناخ وقلة الماء وذهاب ما يؤكل من العشب للحيوانات فهذه الأسباب وغيرها هي التي جعلت العربي دائم الترحال يبحث عن مكان آخر ينتجع فيه مخلفاً وراءه في الصحراء مكانه الأول. يقول لبيد مصوراً جانباً من ذلك:

شافتك ظعن الحي حين تحملوا *** فتكنسوا قطناً تصر خيامها^(٢)

وهنا يقف عمرو بن كلثوم^(٣) مخاطباً وملتماً الحبيبة التي تتوي الرحيل فيقول لها أيتها الحبيبة قفي قبل أن ترحلي وقبل أن نفترق لكي نحكي لك مؤكدين بما قاسينا ولاقينا من آلام الهوى ونيران الجوى قفي نحكي كل تصاريف الهوى وجراح الحب:

قفي قبل التفرق يا ظعينا *** نخبرك اليقيناً وتخبرينا^(١)

ويذكرها قفي أيتها الحبيبة: قبل الرحيل نسألك هل دعتك سرعة الفراق المؤلم إلى الظعينة وإلى أن تخوني حبيبك الذي أوفى لك بالعهد:

قفي نسألك هل أحدثت صرماً *** لوشك البين أم خنت الأميناً^(٢)

(١) ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٣٨ .

(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٦ . ويروى يوم تحملوا ، شافتك: أثار شوقك .

(٣) عمرو بن كلثوم: هو بن مالك بن عتاب من بني تغلب أبو الأسود شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد في شمال الجزيرة العربية في بلاد ربيعة وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند مات سنة ٤٠ ق هـ — أنظر الأعلام للزركلي ج ٥ ص ٨٤ .

(١) شرح القصائد العشر تأليف أبي زكريا بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي، حقق أصوله وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محمي الدين عبد الحميد الناشر مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ميدان الأزهر مصر الطبعة الأولى ١٩٦٢م ص ٢٨٨ . ظعينا: مرخمة أصلها ظعينة، وهي المرأة في اليهودج أو في بيت زوجها.

وهكذا نجد الصراع في جوف الصحراء يؤدي بساكن المكان إلى تركه والارتحال عنه وغالباً ما يكون هذا في أول الصيف حيث تجف مصادر المياه ويبيس النبات، فالطبيعة متأثرة بالزمان وتعاقب الفصول التي أدت إلى تهمد المكان، ولذا يقف الشاعر ضعيفاً أمام سطوة الطبيعة التي تقوم بإجباره على الارتحال عن المكان وتركه عرضة للرياح وغيرها من العناصر الأخرى المختلفة التي فرضت عليه الترحال والصراع والمصير المجهول والحب المشتت. وقد بدأ الشاعر طرفة ابن العبد معلقته بالنواح والاحتجاج ثم عبر عن الحزن وكان سببه الوطن المتنقل والطلل البالي والإنسان المرتحل "الظعن"، والرحيل الذي تتبعه الشاعر يوحي له بتتابع الحياة، فالطلل دلالة على الرحيل والتحول ثم رحيل الظعائن الذي يشير إلى الهجرات الجماعية في الصحراء ثم يصبح الموت الذي لا مفر منه وهو الرحيل الذي لا يخطئ شخصاً قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي *** عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة *** وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى *** نكالطول المرخي وثياه باليد^(٣)

فالشاعر يصور في رحلة الظعن كل ما هو جميل فيصف الرحل وصفاً دقيقاً جميلاً ويتمنى لمحبووبته كل ما هو أحسن في الصحراء ولكن عندما يصور رحلته نلحظ أنها غالباً ما تشوبها الصعاب والمعاناة والكدر، وناقته التي تئن من طول الطريق وصعوبته وفي اعتقادي أن وصفه لمحبووبته والظعن الذي يرحل بغير ما يصف به رحلته ربما لأن الظعن فيه رجال أشداء يحمونه من آفات وأهوال الصحراء وما تلاقيه أو أن الظعن لا تجابهه متاعب ومصاعب أصلاً وتكون هي عادة من عادات العرب قديماً في الصحراء أو لأنه يحمل المرأة وهي تمثل له جانباً ومتنفساً لمعاناته في الصحراء.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٨. صرماً: الصرم هو القطيعة، الوشك: هو السرعة، البين: هو الفراق، الأمين: المأمون الوفي.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٢٩، الطول: الحبل، ثياه اليد: ما انثنى على يديه منه.

وفي ترحالهم عادة ما ينزل العرب في شكل جماعات بعضهم إلى بعض فيصور لنا الشنفرى^(١) أصواتهم وجلبتها في قوله:

كأن وغاها حجرتيه وحوله * أضاميم من سفر القبائل نزل^(٢)**

فالشاعر يتتبع رحلة الطعائن بتفاصيلها باعتبارها امتداداً للمكان فيصف شكل الطعن ومعانيه ولونه وما يخطر بباله من صفات يضيفها عليه من جمال المنظر وروعة المشهد والتفاؤل والأمل بمواصلة الرحلة. يقول لبيد:

شافتك ظعن الحي حين تحملوا * فتكنسوا قطناً تصر خيامها**

من كل محفوف يظل عصيه * زوج عليه كلة وقرامها**

حفزت وزايلها السراب كأنها * أجزاع بيثة أثلها ورضامها^(٣)**

فقد وصف لبيد وصول الطعن للوادي الخصيب الأخضر فليس من المعقول أن يخرج من حالة اليأس إلى حلم غير جميل، والنزوع إلى المثال ظاهرة مألوفة في الشعر العربي القديم في العصر الجاهلي، ولم نجد شاعراً يحيد عن ذلك ويصور المرأة ومحبوبته في أبهى صورته.

ويقول امرؤ القيس معبراً عن حبه للصحراء وارتباط المكان في وجدانه:

ترى بعير الآرام في عرصاتها * وقيعانها كأنه حب فافل**

كأني غداة البين يوم تحملوا * لدى سمرات الحي ناقف حنظل**

(١) الشنفرى: هو عمرو بن مالك الأزدي من قحطان شاعر جاهلي يمني من فحول الطبقة الثانية وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائريهم وهو صاحب لامية العرب، وقد شرحها الزمخشري في أعجب العجب توفي سنة ١٠٠٠ق هـ - أنظر الأعلام للزكلي ج ٥ ص ٨٥ - تاريخ الأدب العربي ألفه بالألمانية كارل بروكلمان أشرف على الترجمة محمود فهمي حجازي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م ج ١ ص ١٦٣.

(٢) لامية العرب للشنفرى. دراسة نقدية ابداعية. د.محمد علي أبوحمده دار عمار للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ٢٠٠١م، ص ١٠.

(٣) ديوان لبيد، ص ١٦٦. الطعن: جمع طعينة وهي المرأة في اليهودج، التكنس: دخول الكناس والطعن جمع طعنة وهو الجماعة، الصرير: صوت الباب، العصى: عيدان اليهودج، الزوج: نمط من الثياب، الكلة: الستر الرقيق.

وقوفاً بها صحبي على مطيهم *** يقولون لا تهلك أسىً وتجمل^(١)

فالشاعر يشبه اشتياقه وانهمار الدموع من عيونه بصورة أخرى مستمدة من المكان والطبيعة الصحراوية بناقف الحنظل في سيلان الدموع لكليهما فالمكان له أهمية إذ يطبع الفكر والثقافة والألفاظ والمعاني بجاذبية سحرية إيحائية تستمد أنفاسها وروحها من وحيه.

وأما رحلة الشاعر في الصحراء وجه من وجوه البطولة ومظهر من مظاهر الشجاعة والقوة ومقدرة على مواجهة الأهوال والنصب وهذه المعاني نجدها تقترن عند الشعراء مع معاني السخاء وبسط اليد والمروءة والنجدة والشجاعة لملاقاة الأعداء وتكبد المشاق، وأن الشاعر كثيراً ما يذكر هذه المعاني عند وقوفه مفتخراً بنفسه وقوته، وأن الرحلة في وجدان الشاعر تمثل إحدى فضائله ومفاخره، والرحيل عند الشاعر قد يكون رحيلاً فعلياً صاغه في قصيدة فيصف متاعبه وما لاقاه من نصب أو رحيلاً ذهنياً تخيل الشاعر أن كل شيء أمامه فيقوم بنسج ما يترآى له في مخيلته فيروي متاعب ناقته وما وجدته من تعب في مجاهل الصحراء. يقول النابغة الذبياني واصفاً إحدى رحلاته في الصحراء:

باتت سعاد وأمسى حبلاً إنجذما *** واحتلت الشرع فالحيين من أضما
غراء أكمل من يمشي على قدم *** جسماً وأحسن من حاورته الكلما^(١)

ويقول النابغة أيضاً:

أفد الترحل غير أن ركابنا *** لما تزل برحالها وكان قد
في إثر غانية رمتك بسهمها *** فأصاب قلبك غير أن لم تقصد^(٢)

(١) ديوان أمراء القيس ص ١١١.

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٠٥-١٠٦. أضما: موضع، حبلاً: عهداً.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠، أفد: دنا وقرب، كأن قد: كأن قد زال.

وطبيعة الصحراء التي عاش فيها البدوي أثرت في حواسه وصقلتها، فكان قوى التكوين لترحاله المستمر حديد البصر سريع العدو، جاف العود، يتنبأ بالخطر في تلك الربوع الواسعة قبل قدومه ويتنبأ عن الطبيعة وأحوالها وتقلباتها، وقد ورد ذلك في كثير من أشعارهم وكان للرياضة أثرها في حياة أهل الصحراء فأصبحت لديهم هواية ومتعة. وامرؤ القيس يشيد بقدرة فرسه على صيد الوحشي وتمكنه منه في رحلته في الصحراء:

فعن لنا سرب كأن نعاجه * عذارى دوار في ملاء مذيّل**
فأدبرن كالجزع المفصل بينه * بجيد معمّ في العشيّة مخول**
فألحقنا بالهاديات ودونه * جواحرها في صرة لم تزيل^(٣)**

وقد ينتقل المرء فيغادر للصحراء عندما تأتيه هموم الحياة فهي متنفس فيبوح فيها بكل شئٍ كما مرئ القيس يركب فرسه قبل استيقاظ الطيور من وكناتها على حصانه العربي الكريم الأصل القوي، فهو مدرب على الكر والفر والإقبال والإدبار كميّت اللون ضخّم الجسم، ضامر قصير الساق، طويل، وظهره أملس في عدوه تتابع وسهولة، واتزان وسرعة تشل حركة الأوبد فيقذف براكبه الخفيف ويمزق ثياب الثقيل. يقول واصفاً رحلته وفرسه:

وقد اغتدي والطيّر في وكناتها * بمنجرد قيد الأوابد هيكل**
مكر مفر مقبل مدبر معاً * كجلمود صخر حطه السيل من عل^(٢)**

وفي أثناء هذه الرحلة التي يقوم بها الشاعر راكباً فرسه يعرض لهما سرب من البقر الوحشي كأن هذا القطيع نساء عذارى ولا تغير الشمس من ألوانهن ولم يستطع القطيع الفرار لسرعة فرسه، ولما كثر الصيد أصبح لظهاة ينضجون اللحم غلياً وشياً. يقول:

فعن لنا سرب كأن نعاجه * عذارى دوارٍ في ملاء مذيّل**
فظل ظهاة الحي من بين منضج * صفيف شواء أو قدير معجل**

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٠. الجزع: الخرز فيه أبيض وأسود، المفصل: الذي يفصل بينه اللؤلؤ، الهاديات:

المتقدمات من البقر، الجواحر: المتخلفات من الوحش، الصرة: الصيحة والضجة، لم تزيل: لم تتفارق.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٨-١١٩.

كأن دماء الهاديات بنحره *** عصارة حنا بشيب مرجل^(٢)

وعند العودة هناك كثير من المشقة والتعب ففي أثناء العودة تتلبد السماء بالغيوم في السماء ويظهر البرق وتهطل المطر فيصور لنا امرؤ القيس هذا المشهد في الصحراء بقوله:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه *** كلع اليدين في حبي مكلل
يضئ سناه أو مصاييح راهب *** أهال السليط بالذبال المفتل
قعدت وصحبي له بين ضارج *** وبين العذيب بعدما متألمي
علا قطناً بالشيم أيمن صوبه *** وأيسره على الستار فيذبل
وأضحى يسح الماء عن كل كتيفة *** يكب على الأنقان دوح الكنهبل^(٣)

فالشاعر يصور كل هذه المشاهد في قصيدته في رحلته في الصحراء وبعد هطول الأمطار التي اقتلعت بعض الأشجار والمنازل، وكان هناك خيراً فاخضرت الأرض اليباب وظهر العشب الأخضر فتلونت الأرض كالتاجر الذي أتى بألوان الأقمشة المختلفة وصاحت الطيور تغني لهطول الأمطار فرحة طربة يقول:

كأن مكاكي الجواء غديّة *** صبحن سلافاً من رحيق مفافل
وألقى بصحراء الغبيط بعاعه *** نزول اليماني ذي العياب المحمل^(١)

وهذه الرحلة التي حوت عدداً من المشاهد الخلابة المستقاة من مشاهد الصحراء وطبيعتها من وصف لفرسه وهو وسيلته للرحلة وتشبيهه ببعض مظاهر الطبيعة التي حوله كالحجر وهو جلمود في سرعة انحداره ولحاقه بالقطيع وصيده، وعند العودة كيف أن الطبيعة أصبحت خلابة بعد نزول الأمطار واخضرارها فهذه الصورة المرتبة في شكلها تصور لنا رحلة في الصحراء وكيف أن الشاعر صاغها

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠-١٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢، ضارج والعذيب: مكانان، بعدما متألمي: ما أبعدا تأملت.

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢١-١٢٢، صحراء الغبيط: الحزن وهي أرض بني يربوع، بعاعه: ثقله، مكاكي: هو طائر كثير الصغير، الجواء: البطن من الأرض.

على هذا النسق مبدياً أثر الصحراء في معانيه وكان أثرها البين في كل بيت من أبيات القصيدة.

وللشاعر لبيد كثير من الأشعار التي تتحدث عن الرحلة وهي خير علاج لشدة الشوق للسفر بذاك الطيف في ربوع تلك الصحراء، فقد كان في الجاهلية أغلب السفر للغارة أو المرعى أو بحثاً عن الكلاً كما ورد في أشعارهم. يصف لبيد في إحدى قصائده ذاك الطريق الممتد الذي سلكه بناقته مع طيف الحبيبة حتى أهلكه وأنه طريق ممتد واسع فهو كالثوب الأبيض الهاجري الصنع يذهب بين الآكام ثم يرتفع فوق النجاد والغوائل وكم من مسافر ضلّ الطريق فيها لاتساع نواحيها وبعدها، ولكن الناقة فيها نشطة مسرعة تتازع أطراف الآكام خفافها ثم تحاول أن تخلعها منها بجانب أنها ظلت على طول امتداد الطريق ووعورته تباري زمامها من سرعة السير حتى ذاك الماء الذي لم يطرقه أحد منذ زمن، هذا طريق السفر في الصحراء فهو يصف ناقته في ذاك الطريق الطويل يقول:

فكلفتها وهماً كأن نحيزه *** شقائق نساج يوم المناهلا
فعديتها فيه تباري زمامها *** تنازع أطراف الإكام النقائلا
منيفاً كسحل الهاجري تضمه *** إكام ويعروري النجاد الغوائللا

فسافت قديماً عهده بأنيسه *** كما خالط الخل العتيق التوابلا^(١)

ولم يقف الشاعر عند تصوير بعض المعالم الموجودة في الصحراء فحسب ولكنه وصف في شعره جمال ربوعها ووديانها وما تضمه من وحش وطير ووصف النجم والظلمة ورفاقه في الليل، والقمر والهدوء الشامل ويتخلله عذيف الريح وما يتوهمه

(١) ديوان لبيد، ص ١١٢-١١٣. كلفتها: جشمتها، الوهم: الطريق الواسع، النحيز: الطريق، الشقائق: جمع شقة وهي قطعة النساج، تباري: تحاذي وذلك من نشاطها، النقائل: جمع نقيلة وهي الخف أي أنها تحاول أن تخلص أخفافها من أطراف الإكام. منيفاً: غالباً، السحل: الثوب، الهاجري: المنسوب إلى هجر، يعروري: يسلك، الغوائل: التي تغول من يمشي فيها.

الساري من أصوات وما يلوح من نيران المضارب وما يراه من البروق. يقول في ذلك:

أصاح ترى بريقاً هب وهنا *** كمصباح الشعيلة في الذبال
أرقت له وأنجد بعد هده *** وأصحابي على شعب الرحال
يضئ ربابه في المزن حبشاً *** قياماً بالحراب وبالإلال
كان مصفحات في ذراه *** وأنواحاً عليهن المآلي
فأفرع في الرباب يقود بلقاً *** مجوفة تذب عن السخال
وأصبح راسياً برضام دهر *** وسال به الخمائل في الرمال
وحط وحوش صاحة من ذراها *** كأن وعولها رمك الجمال^(١)

ويأت على حجر فتخالط نفسه أشواقها وحنينها ويذكره معلماً وثيق الصلة بماضي تجاربه يقول لبيد:

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا *** صماً خوالد ما يبين كلامها
عربت وكان بها الجميع فأبكروا *** منها وغودر نؤيها وئامها
شافتك ظعن الحي يوم حملوا *** فتكنسوا قطناً تصر خيامها^(٢)

فحياة الصحراء ميزها التنقل والترحال المستمر فقد ارتبط عندهم الزمن فصاغوا له أسماء ومعاني، فحساب الزمن في هذه الأرض الفسيحة الواسعة يحتاج إلى فترات راحة وقيلولة من عناء الترحال، فخبروا الأنواء والنجوم (ولهم صفات وأسماء

(١) المصدر السابق، ص ١٠٩. أفرع: أسال ما فيه من ماء، الرباب: أرض بين ديار بني عامر وبني الحارث ابن كعب، البلق: جمع بلقاء ويعني السحابة، مجوفة: غمر جنوبها وبطنها البياض، تذب عن السخال: تدافع عن أولادها، راسياً: ثابتاً، الرضام: الحجارة، صاحه: اسم جبل، رمك: سود والمفرد أرمك.

(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٥-١٦٦. الصم: الصخور، الخوالد: البواقي يقول: كيف نسأل ما لا يفهم ما يبين كلامها: أي ليس لها كلام فيتبين، والمعنى أنه ليس بها من الأثر ما يقوم مقام الكلام فيبين لنا قرب العهد أو بُعد، عربت: أي خلعت من أهلها، التوى: حاجز يجعل حول الخباء لئلا يصل السيل إليها، الثمام: نبت، شافتك: أي دعتك إلى الشوق: حملوا: ارتحلوا بأحمالهم، تكنسوا: دخلوا في الهودج.

أطلقوها عليها "الساعة الأولى من ساعات الليل الغسق، والثانية العتمة، والثالثة العشوة، والساعة الأولى من ساعات النهار الشروق، والثانية الرأد، والثالثة المتوع"^(١).

والرحيل في الصحراء كما أسلفت ظاهرة اتسمت بها الحياة الاجتماعية في ذلك المكان وذلك لأسباب ذكرت آنفاً، ونجد معظم الشعر قيل في الرحل والترحال ولذا كان التداول بين القصائد في الصحراء بين الناس أسرع ما يمكن، وهناك عبارات النشر والتبليغ أو الإعلام عن فحوى قصيدته فهي كالنشر الصحفي الذي يذيع الخبر والمقصد منها كقول زهير يمدح هرم بن سنان في معلقته:

فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة * وذيبيان هل أقسمتم كل مقسم؟^(٢)**

ويقول أيضاً:

أبلغ بني نوفل عني فقد بلغت * مني الحفيظة لما جاءني الخبر^(٣)**

ويقول امرؤ القيس:

وقد اغتدي والطير في وكناتها * بمنجرد قيد الأوابد هيكل^(٤)**

ويقول النابغة الذبياني:

أفد الترحل غير أن ركابنا * لما تزل برحالها وكان قد^(٥)**

وقد ذكروا وسائل الرحلة في أشعارهم فهي عادة على الناقة والفرس فوصفوها وأعطوها العديد من الصفات الحميدة. وتلك عبارات تدل على الترحال المستمر يقول امرؤ القيس:

على قلص يظل مقلدات * أزمتهن ما يعدقن عودا^(٦)**

(١) الأدب الجاهلي قضاياه أعلامه فنونه، د. غازي طليمان، عرمان الأشقر . دار الفكر المعاصر دمشق سوريا

الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ص ٨٨.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٢، الحفيظة: الغضب يقال أحفظته، نوفل: من بني أسد.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١١٨.

(٥) ديوان النابغة الذبياني، ص ٣٠. أفد: دنا وقرب. كأن قد: قد زال .

(٦) ديوان امرئ القيس ص ٥٥. القلص: الناقة الشابة، مايلعقن: مايجمعن.

على كل مقصوص الذنابي معاود *** يريد السرى بالليل من خيل بربرا^(٣)

على هيكل يعطيك قبل سؤاله *** أفانين جرى غير كرّ ولا وان^(٤)

ويقول زهير أيضاً ذكراً رحلته ووسيلته:

على لاحب مثل المجرة خلته *** إذا ما علانشرأ من الأرض مهرق^(٥)

على كل صهباء العشانين شامذ *** جمالية في رأسها شطنان^(٦)

ويقول عنتره أيضاً:

على مهرة منسوبة عربية *** يطير إذا ما اشتد الوغى بالقوائم^(٧)

فكم ليل ركبت به جواد *** وقد أصبحت في حصن حصين^(٨)

وقد لاقيت في سفري أموراً *** تشيب من له في العهد عام^(٩)

فالرحلة في الصحراء أصبحت لها معانٍ ودلالات في قصائدهم وكان لانتشار القبائل وتفرقها في الصحراء أثر وسبب في تلك الرحلة فحياتهم حياة كد وجد ومصير وراء متطلبات الحياة وبذلك جعلت البدوي إنساناً مرتبطاً بالأرض في شؤون حياته جميعاً فربما علاقاته الاجتماعية سبب لذلك أو حياته الاقتصادية أو ربما جادت السماء فأخضرت الأرض وربح الناس في طمأنينة، والتقت العشائر والقبائل على موارد المياه ومنابت العشب فاتصلت بينهم الأسباب وجرت بينهم المودة وتبدلت الأخبار فإذا انتهى الخريف وجفت موارد المياه ومجامع العيش حملوا يطوون النجوم بالرحيل إلى أماكن أكثر استقراراً وخصباً فإذا بدأ الرحيل هاجه الشوق والحنين والهوى إلى ما كان بينهم (لقد كانت الرحلة تقليداً شعرياً أمدتهم بثروة عريضة من

(٣) المصدر السابق ص ٦٤ . مقصوص الذنابي: محذوف الذيل، معاود: معتاد، بربر: قبيلة .

(٤) المصدر السابق ص ١٦٤ . أفانين جرى: ضروب من السير، كذ: منقبض، لاوان: ليس به فتور .

(٥) ديوان زهير ص ١٨٩ . النشر: الارتفاع عن الأرض، مهرق: صحيفة .

(٦) المصدر السابق، ص ٢٦١ . العشون: الشعر الذي تحت لحي الجمل . شامذ: رافعة ذنبها . جمالية: عظيمة،

شطنان : حبلان .

(٧) ديوان عنتره ص ١٣٤ .

(٨) المصدر السابق ص ١٤٩ .

(٩) المصدر السابق ص ١٣٥ .

معاني الفرقة، والبعد فجمعوها بإحساس البخيل وأنفقوها بعقله وبرهنوا بذلك على قدرة عقلية عالية^(١).

فكانت رحلة الظعن على الراحلة والتي انتشرت كانتشار القبائل بأشكالها في سوح الصحراء الممتدة فهي حياة ومصير وكد وجد وراء متطلبات الحياة (وكانت رحلة الشاعر إلى الممدوح شاقة تختار إليه الناقة السريعة التي لم تكن بحاجة إلى من يستحثها أو يستعجلها)^(٢).

فالعربي لا يسير وحده في الصحراء إلا للضرورة وأغلب السفر مع الأصحاب أو القافلة، وإذا أراد الشاعر أن يعلم ممدوحيه أنه وصله وحيداً كقول الأعشى:

وخرق مخوف قد قطعت بجسرة *** إذا خب آل فوقه يترقرق
هي الصاحب الأدنى وبينها *** مجوف علاقي وقطع ونمرق^(٣)

وإذا قطع الصحراء الجرداء العمياء الموحشة المذاهب والأطراف تاه في مسالكها. يقول الأعشى أيضاً:

فدع ذا ولكن رب أرض متيها *** قطعت بحرجوج إذا الليل أظلما^(١)

أيضاً من أسباب الرحلات في الصحراء الطرد والصيد فهي وسيلة للرزق والمتعة، وهي عادة متوارثة من قديم الزمان، ويبدو أن الصيد لم يكن من عادة شرفائهم وفرسانهم إنما للفقراء منهم من العرب ولذلك لم يرد دلالة على الفروسية والبطولة فقال الجاحظ: "لقد وجدنا العرب يستدلون الصيد ويحرقون الصياد كما جاء في قصيدة عمرو بن معد يكرب يهجو بها قوماً يعيشون على الصيد

(١) الرحلة في القصيدة الجاهلية: د. وهب رومية مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٩٨٢م ص ٢١.

(٢) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام د. نوري حمودي القيسي. مصطفى عبداللطيف ١٩٧٩م دار الحرية بغداد ص ١٩٥.

(٣) ديوان الأعشى ص ١١٨. خرق: الصحراء الواسعة، جسر: الناقة الضخمة، خبء: خفق، الآل: السراب، يترقرق: يجيء ويذهب، مجوف: العظيم الجوف، العلاقي: الرجل العظيم، النمرق: وسادة تلقى على الرحل.

(١) ديوان الأعشى، ص ١٨٧.

أبني زياد أنتم في قومكم *** ذنب ونحن فروع أصل طيب
نصل الخميس إلى الخميس وأنتم *** بالقهر بين مريّق ومكّاب
ولا يحسبن بنو طليحة حربنا *** سوق الحمير نجاته فالكوكب
حيّد عن المعروف سعى أبيهم *** طلب الوعول بوفضة وأكلب^(٢)

ولكن الحارث بن حلزة^(٣) يفتخر بأنه صاحب لهو وشرب وصيد في قوله:

ومدامة فرعتها بمدامة *** وظباء مخنية ذعرت بسمح^(٤)

ويصف امرؤ القيس الصياد وهو لاصق بالأرض يخفي نفسه من الصيد كي لا تفر
وهو مشهد متداول لديهم في الصحراء يقول:

بعثنا ربيئاً قبل ذاك مخملاً *** كذب الغضى يمشي الضراء ويتقي
فظلّ كمثل الخشف يرفع رأسه *** وسائره مثل التراب المدقق
وجاء خفياً يسفن الأرض بطنه *** ترى التراب منه لاصقاً كل ملصق^(٢)

وكان بعضهم يفخر في صبره بعدم مخاتلته ويجاهد وينادي من بعيد لسرعة فرسه
الذي يلاحق الوحش مهما كانت سرعته. يقول علقمة بن عبده الفحل^(٢):

(٢) الأغاني أبو الفرج الأصفهاني، طبعة جديدة ممقحة شرح وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر دار الكتب
العالمية بيروت ١٩٩٥، ج ١، ص ٩.

(٣) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي شاعر جاهلي من أهل بادية العراق وهو أحد
أصحاب المعلقات ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة ، توفي في نحو ٥٠ قبل الهجرة من آثاره
ديوان شعر – أنظر الأعلام للزركلي، ج ٢ ص ١٥٤.

(٤) ديوان الحارث بن حلزة، جمعه وشرحه وحققه د.امين بديع يعقوب الناشر دار الكتاب العربي الطبعة الأولى
١٩٩١م ص ٤٢. المدامة: الخمر، فرعتها: مزجتها، المدامة: الثانية ماء السحاب، وجعله مدامه لطول لبثه
واتصال مطره، المخنية: منعطف الوادي، ذعرت: أخفت، السمعج: الطويل، المقصود به الفرس الطويل.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١٠٥، الربيع: الرقيب المتشوق، مخملاً: متستر بأوراق الشجر لئلا يراه الصيد
فيفر، الغضى: شجر ضخم، يمشي الضراء: يخنفي بالشجر ، فظل كمثل الخشف: يرفع رأسه : يعنى أن هذا
الرقيب الذي بعثناه كان يزحف على أربعته كالخشف وهو ولد الظبي يرفع رأسه تارةً ويخفضه تارةً أخرى
مثل التراب للوقوف بالأرض، يسفن الأرض: جاء وكأنما يقشر الأرض لزحفه على بطنه وقد لصق به
التراب فهو لا يكاد يبين.

إذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنة *** ولكن ننادي من بعيد ألا أركب
أخائفة لا يلعن الحي شخصه *** صبوراً على العلات غير مسبب^(٣)

ويقول زهير حول هذا المعنى:

إذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة *** متى نره فإتنا لا نخاتله^(٤)

وكانت وسائل الصيد عندهم الخيل والكلاب وغيرها فيطردون بها الصيد لمعاشهم،
وقد ورد تصوير الخيل كثيراً . يقول امرؤ القيس في طرده بالخيل ولحاقها به:

كأن دماء الهاديات بنحره *** عصارة حنّاء بشيب مرجل^(٥)

أما الأسلحة التي كانت تستخدم للصيد فهي السهام والنبال والرماح^(٦). وإذا
يئس الصياد من بلوغ السهام أرسلوا الكلاب، قال لبيد مصوراً ذلك:

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا *** غضفاً دواجن قافلاً أعصامها^(١)

ولذلك استطاع الشعراء تصوير هذه البيئة الصحراوية أجود تصوير لما فيها من متع
الحياة في الطرد الذي يمتد مع امتداد الصحراء فخبروا وسائله وطرقه وأماكنه أيما
معرفة. ولامية الشنفرى والتي مطلعها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم *** فإني إلى قوم سواكم لأميل^(٢)

(٢) علقمة بن عبده (بفتح العين والباء) بن شاره بن قيس من بني نمير شاعر جاهلي من الطبقة الأولى كانت له
مساجلات مع امرئ القيس له ديوان شعر شرحه الأعمى الشنتمري توفي نحو ٢٠ قبل الهجرة - أنظر تاريخ
الأدب العربي كارل بروكلمان ، ج ١ ص ١٥٤ - الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٢٤٧.

(٣) علقمة بن عبده الفحل، تأليف عبدالرازق حسن المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٦م ص ٥٣.

(٤) ديوان زهير ص ١١٦. أي نحن مدركون بفرسنا ما نبتغيه فنحن لا نخاتل الصيد ولكننا نجاهره .

(٥) ديوان امرئ القيس، ص ١٢١.

(٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د.نوري حمودي القيسي، ص ٣١٠.

(١) ديوان لبيد ، ص ١٧٤، يقول حتى إذا يئس الرماة من البقرة أن ينالها نبلهم أرسلوا الكلاب المسترخية الأذان
الضاريات التي يبست قلائدها في أعناقها من التعود .

(٢) لامية العرب للشنفرى ، ص ٩.

والتي تصور فيها حياة الصحراء تصويراً صادقاً وعاكساً ثقافتها الاجتماعية، وقد تحدث بعض الفلاسفة والكتاب عن المجال المكاني ليس هناك ثمة فصل بين الزمان والمكان في سعيهما إلى معرفة النصوص الأدبية ولذلك نجد ارتباط الإنسان بالمكان وإحساسه به شيئاً فطرياً، والمكان يمثله الشاعر فيصف كل ما فيه من حيوان وجماد، فالشاعر البدوي لجأ للمكان في كل أشعاره من خلال وصفه للصحراء بكل مكوناتها وجزئياتها التي وردت في ثنايا قصائدهم الشعرية من خلال ارتباط روحي ووجداني متعلق بالبيئة والمكان. يقول امرؤ القيس:

تري بعر الآرام في عرصاتها * وقيعانها كأنه حب فلفل^(٣)**

فقد تتبع الشاعر كل شئ في المكان الذي يصفه، ولذلك فالمكان يطبع الفكر والثقافة والألفاظ والمعاني بجاذبية سحرية إيحائية توحى به وإليه، فالأدب في البيئة الحضرية بالطبع يختلف عن الأدب البدوي فكل واحد سمات وأصالة وفكر وعمق وإحساس الشاعر في كل.

(٣) ديوان امرؤ القيس، ص ١١١.

ذكر بعض أسماء الأماكن التي وردت في أشعارهم ومدلولاتها:

ولما كان الشاعر العربي ينطق بلسان قومه في حربهم وسلمهم في فخرهم وهجائهم، أيضاً تناول الشاعر أغراض الشعر الأخرى متناولاً العديد من عادات البدو في الصحراء ولذلك جاءت من الأسماء التي وردت في أشعارهم فكثر ذكرها في الغزل بتناولهم لأماكن محبوباتهم والوقوف على الأطلال ومسيرهم في الصحراء وأماكن الماء والكأ، ووردت في الحروب وأيام العرب فتأتي القصيدة مفصلة للمكان وذاكرة ومفصلة له بكل مكوناته، ولو تتبعنا الشعر العربي القديم لوجدنا أسماء لا تحصى لأسماء الأماكن والمواقع وأحسب أن ذكر تلك الأسماء وتحديدها يريد الشاعر منها الإيضاح والتحديد وذلك لانتساع الصحراء وعدم معرفة الأماكن إلا بتحديدها وتمييزها أيضاً ما يخطر للشاعر من حب وسلوى.

وأورد لبيد في قصائده العديد من الأماكن والمواقع التي حملت معانيها في أغراض مختلفة ولمواقف متباينة فهي وصف للصحراء بكل مواقعها وتعتبر أشعاره في العديد منها بمثابة إيجاد صورة متكاملة لبيئات الصحراء العربية ونذكر منها قوله:

غلب تشذر بالذحول كأنها * جنّ البديّ رواسيا أقدامها^(١)**

البدي: هو موضع ماء لبني عامر بنجد.

ويقول:

بأحزة الثلبوت يربأ فوقها * فقر المراقب خوفها آرامها^(٢)**

الثلبوت: وهو ماء لبني ذبيان أو وادي بين قبيلة طي وذبيان.

ويقول:

بمشارق الجبلين أو بمجرّ * فتضمنتها فردة فرخامها^(٣)**

فردة: جبل منفرد، فردة ماء بالثلبوت.

(١) ديوان لبيد، ص ١٧٧. الغلب: الغلاظ الأعناق، تشذر: أي يوعد بعضهم بعضاً، تشذرت: الناقة إذا شالت

بذنبها، الذحول: جمع نحل وهو الحقد، البدي: البادية، الرواسي: الثوابت.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٧.

ويقول:

حفزت وزايلها السراب كأنها * أجزاع بيشة أثلها ورضامها^(١)**

بيشه: اسم وادي من أودية تهامة.

ويقول:

عفت الديار محلها فمقامها * بمنى تأبد غولها فرجامها^(٢)**

منى - الغول: أسماء جبال، الرجام: جبل طويل وهضاب ببلاد بني عامر.

وقوله:

فمدافع الريان عرى رسمها * خلقاً كما ضمن الوحي سلامها^(٣)**

الريان: جبل في ديار طيء ووادٍ في أرض كلاب.

ويقول عنتر بن شداد ذاكراً بعض الأماكن المعهودة لهم:

وتحل عبلة بالجواء وأهلنا * بالحزن فالصمان فالمتثلم^(٤)**

قال أبو جعفر: الجواء: بنجد، الصمان: موضع وقيل جبل^(٥).

ويقول عنتر أيضاً:

كيف المزار وقد تربع أهلها * بعنيزتين وأهلنا بالغيلم^(٦)**

(١) ديوان لبيد، ص ١٦٦. حفزت: دفعت واستحثت في السير، زايلها السراب: دفعها سراب إلى سراب، السراب: لمعان الشمس في الفضاء، بيشة: موضع، الأثل: شجر، الرضام: صخور عظام يجتمع بعضها إلى بعض [المعنى هذه الجمال لما زايلها السراب تبينت كأنها شجر قد ضربته الريح فهو يخفق أو كأنها جبال صغار].

(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٣. عفت: درست، تأبد: توحش، المحل: حيث يحل القوم من الدار، المقام: حيث طال مكثهم فيه، منى: موضع، الغول والرجام: جبلان.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٣. المدافع: مجاري الماء وهي التلاع، الريان: وادي بالحمى، عرى رسمها خلقاً: أي ارتحل عنه، فعرى بعد أن أخلق لسكونهم إياه، والوحي: الكتاب [المعنى أن آثار هذه المنازل كأنها كتابة في حجارة لأنه لا يتبين من بعيد لأن نقشه ليس بشئ مخالف للونه كأنما يتبين لمن يقرب منه]، السلام: الحجارة.

(٤) ديوان عنتر، ص ١١٨. الحزن: جبل لبني يربوع، الصمان: لبني تميم، مثلم: مكان.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٦) المصدر السابق، ص ١١٨، تربع القوم: نزلوا في الربيع، كيف أزورها وقد بعدت عني بعد قربها وإن كان زيارتها.

عنيزتان والغيلم: موضعان.

ويقول أيضاً :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت * زوراء تنفر عن حياض الديلم^(١)**

الدحرضين والدحرضان: اسم موضع.

وكثر ديار العرب التي تغنى بها الشعراء وأوردوها في قصائدهم "وقديماً كانت هي الحجاز التي تشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها، ونجد الحجاز متصلة بأرض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام، واليمن المشتملة على تهامة، ونجد اليمن وعمان وبلاد صنعاء وعدن"^(٢).

يقول الحارث بن حلزة:

بعد عهد لنا ببرقة شماء * فأدنى ديارها الخلصاء^(٣)**

ببرقة شماء: اسم هضبة، الخلصاء: بلد بالدهناء معروف، وقيل أرض بالبادية فيها عين.

ويقول الحارث بن حلزة أيضاً يصف موضعاً :

فالمحياة فالصفاح فأعناق * فتاق فعاذب فالوفاء^(٤)**

المحياة، الصفاح، أعناق، فتاق، عاذب، الوفاء، كلها أسماء أماكن .

ويقول أيضاً:

فرياض القطا، فاودية الشر * بب فالشعبتان فالأيلاء^(٥)**

أيضاً: رياض القطا، أودية الشربب، الشعبتان، الأيلاء: كلها أسماء مواضع.

ويقول أيضاً:

(١) ديوان عنتره ص ١٢١، الدحرضان: اسم موضع، الديلم: الأعداء .

(٢) كتاب صورة الأرض، لابن حوقل أبي القاسم بن حوقل النصيبي، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، ١٩٩٢م، ص ٢٩.

(٣) ديوان الحارث بن حلزة، ص ١٩. العهد: اللقاء يقول أذنتنا بفراقها بعد ان لقيتها ببرقة شماء، وخلصاء التي هي أقرب ديارها إلينا.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠.

وبعينيك أوقدت هند النا *** ر أخيراً تلوي بها العلياء^(١)

العلياء هنا يشير للمكان العالي أو المرتفع وهو يريد الحجاز، وما يليه من بلاد قيس.
وكقوله:

فتورّت نارها من بعيد *** بخزازی هیهات منك الصلاء^(٢)

خزازی: جبل بين منعجن وعائل.
وكقوله أيضاً:

أوقدتها بين العقیق فشخصین *** بعودٍ كما يلوح الضیاء^(٣)

العقیق وشخصان: موضعان.

ويقول في مستهل قصيدة أخرى:

ولو أن ما یأوی إلیّ *** أصاب من ثهلان فندا^(٤)

ثهلان: اسم جبل باليمن وقيل جبل بالعالیة.

ويقول امرؤ القیس:

وتحسب سلمی لا تزال كعهدنا *** بوادي الخزامی أو علی رس أو عال^(٥)

وادي الخزامی: موضع وادي، رأس، بئر: أو عال: هضبة يقف بها فارتبط المكان
بمحبوبته سلمی.

وما ذكرت هنا من مواضع علی سبیل المثال وهذه شذرات من عدد كبير من
الأماكن التي وقف عندها الشعراء تارة يقفون عند جبال وأخرى وديان وأخرى
مواضع آبار وأخرى هضاب أو رمال أو أشجار وغيرها من الأماكن التي يحددها
الشاعر في قصيدته يقصد من خلالها تعيين المكان الذي ارتبط غالباً بمكان إقامته أو
محبوبته أو أماكن الأطلال وغيرها من الذكريات التي يجترها الشاعر وهو يجول

(١) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٥) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢٣.

بنفسه أو بخياله في ربوع الصحراء الممتدة كيف لا وهم الذين خبروها في كل أرجائها في وديانها وقيعانها على الرغم اتساعها وهذا يدل على كثرة التجوال والمعرفة اللصيقة لتلك الأماكن التي حفظ الشعر أسماءها، وهناك بعض المواضع التي لم يحفظها التاريخ المدون، ولذلك نجد أهمية هذه الأماكن المذكورة في أشعارهم من حيث التوثيق لتلك البيئة الصحراوية الممتدة ولولا حب هؤلاء الشعراء لأماكنهم لما ذكروها بهذه الصورة ولارتباطهم الوثيق بالأرض التي كانت هي أساس لكل هذا الإرث العظيم سواء كان في العادات والتقاليد السمحة أو للأدب والشعر الذي أصبح المعين أو لتلك الأخلاق والنخوة العربية الكريمة.

الفصل الثالث

المنهاج

بيئة الصحراء : مناخها وخصائصها

لبيئة الصحراء وخصائصها أثر كبير في تشكيل نمط الحياة بصفة عامة وطبيعة وسلوك الإنسان في شكل وخصائص ونمو أشجارها وأعشابها ونمط حياة حيواناتها. "والبيئة تتألف من المكان والزمان والظروف الاجتماعية والاقتصادية والمناخية فالطبيعة من ريح ومطر وحر وبرد لها أثر كبير على واقع حياة الإنسان وتكوينه"^(١).

والبيئة لما لها من أثر أخذت حيزاً كبيراً عند الأدباء والكتاب في عرض صورها وتأثيراتها "فإذا أردنا تشبيه البيئة بشكل هندسي فأشبه الأشكال بها هو المكعب ويكون الزمان والمكان بمنزلة الطول والعرض، ويكون المجتمع بطبقاته المتميزة بمنزلة الارتفاع، والإنسان الواحد واقع تحت أبعاد البيئة الثلاثة معاً وهي تحدد موضعه من الدنيا ويضاف إلى كل ذلك نفسه وذاته وبها يتميز عن سواه ممن ينتمون إلى عصره ومكانه وطبقته الاجتماعية"^(٢).

ويظهر مناخ الصحراء وطبيعتها من خلال أشعارهم فقد تناولوها في ثنايا قصائدهم في المديح والترحال والطلل والكرم. والشجاعة... إلخ "تجد أن شبه الجزيرة العربية يسودها الجفاف والمطر ينذر سقوطه ولذلك فإن أكثرها صحراوية"^(٣).

يقول علقمة الفحل مصوراً حرارة الصحراء في إحدى قصائده:

وقد علوت فتود الرحل يسفني *** يوم تجئ به الجوزاء مسموم
حام كأن أوار النار شاملة *** دون الثياب ورأس المرء معوم^(٤)

(١) النقد الأدبي الحديث، علي جابر المنصوري، دار عمار الطبعة الأولى بدون ص ٢٢٢.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، ج٢ ص ٢٦.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد عبد العزيز سالم، ص ٧٥.

(٤) ديوان علقمة الفحل، تحقيق مفتي صفال ودريه الخطاب، ط١ دار الكتاب العربي حلب ١٩٦٩م ص ٢١٠.

ويذكر أيضاً الأعشى هاجرة الصحراء وسمومها في قوله:

تدلت عليه الشمس حتى كأنها *** من الحرّ ترمي بالسكينة قورها^(١)

ويقول أيضاً الأعشى عن شدة حرارة الصحراء:

ووديقة شهباء ردّ *** ئ أكمها بسرابها

ركدت عليها يومها *** شمس يجرّ شهابها

حتى إذا ما أوقدت *** فالجمر مثل ترابها^(٢)

أيضاً: يصف الشنفرى في لاميته طقس الصحراء الذي تتلمل منه الأفاعي من شدة الحرارة وهذا دلالة على أن الصحراء يغلب عليها طقس الحرارة نهاراً في الصيف. في قوله:

ويوم من الشعرى يذوب لوابه *** أفاعيه في رمضائه تتلمل^(٣)

وكثيراً ما يتأخر هطول المطر في تلك البيئة الصحراوية ويعم الجذب أرجاءها، والغيث هو حياتهم ولذلك تغنوا بطقس الصحراء الحار فكان الغيث فال لهم ولذلك سموا آباءهم بأسماء ومعاني المطر والماء (ومنها المنذر بن ماء السماء^(٤))، وسموا سحاباً، وغيثاً، وغياثاً، ومطراً والغوث وهو بطن من طى وغوث قبيلة من اليمن^(٥). وينعم الناس في فصل الخريف بالخير وتفرح الأرض ويأتي النعيم وتتغير الأرض والسماء بالسحب الملبدة بالغيوم.

يقول طرفة بن العبد يصف يوماً من أيام الخريف:

(١) ديوان الأعشى، ص ٦٨. القور: الواحدة قارة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١. الوديقة: الحر الشديد أو الوقت الذي يشتد فيه الحر أثناء النهار، شهباء: أي قاحلة.

(٣) لامية العرب الشنفرى، ص ١١.

(٤) المنذر بن ماء السماء بن امرئ القيس الثالث بن النعمان بن الأسود اللخمي وماء السماء أمه واسمها ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة وهو ثالث المناذرة ملوك الحيرة وما يليها من جهات العراق في الجاهلية وكان له ضفيرتان من شعره ويلقب بذئ القرنين بهما . انتهى إليه ملك الحيرة بعد أبيه نحو سنة ٥١٤م وهو باني قصر الذوراء في الحيرة . قتل في موقع يقال له عين أباغ على طريق الفرات إلى الشام سنة نحو ٦٠ قبل الهجرة – أنظر الأعلام للزركلي ج ٧ ص ٢٩٢ .

(٥) المطر في الشعر الجاهلي: د. أنور أبوسويلم ، دار عمار عمان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص ٣١.

إنا إذا ما الغيم أمسى كأنه *** سماحيق ثرب وهي حمراء حرجف
وجاءت بصراد كأن صقيعه *** خلال البيوت والمنازل كُرسُفُ
وجاء قريع الشول يرقص قبلها *** إلى الدفئ والراعي لها متحرف^(١)

ويعبر عن ذات الموضوع عنتره بن شداد بقوله:

إذا الريح جاءت بالجهم تشله *** هذاليله مثل القلاص الطرائد
وأعقب نوء المدبرين بغبرة *** وقطر قليل الماء بالليل بارد^(٢)

وقد عبر الأدب عن البيئة الصحراوية أصدق تعبير وصورها أجود تصوير ونقلها نفاً صادقاً نسي التاريخ الكثير منها، كما ذهب لذلك كثير من الأدباء، ولذلك أتى الشعر البدوي في الصحراء عفويّاً تلقائياً يحمل براءة تدفقه واختراعه من غير تكلف وافتعال "وجاءت براعة المزج بين الأحاسيس النفسية ومناظر الطبيعة جعلت معظم الشعر دافق تدفق الطبيعة بعفوية الصحراء رائعة كما هو التصفح للوجود"^(٣).

تأتي أبيات القصيدة تعبر عن الغرض المعني فيها ولكنها تحمل أحاسيس الشاعر في نقل طبيعة ومناخ الصحراء فهو لا يستطيع الانفكاك من تلك البيئة التي يحمل حبها في وجدانه فكانت توجه سلوكه الذي لا ينفك عنه فهي ظرف ومكان، وتركت فيه أثراً لا تمحوه الأيام من ذاكرة الإنسان في تكوين حياته وبناء حضارته، والإنسان ابن الصحراء ترعرع وانطلق وشيد حضارة الكون وأضاف لبنات أساسية في صرح شموخها وتوجهها فقد أكسبته العديد من المزايا فبعثت فيه العزيمة والقوة والصبر عندما يشتد الهجير نهاراً وهو في سفره وترحاله وطمعنه، وأكسبته الذهن الثاقب والسماحة والمروءة والكرم والذكاء بطول فصول السنة شتاءً وصيفاً وخريفاً .

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٢٦، سماحيق: شحم رقيق على ثرب الشاة، الثرب: الشحم الذي يغطي الإمعاء، حرجف: شديدة، كرسف: القطن، قريع الشول: فحل الإبل، متحرف: بعيد.

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ٤١. الجهم: سحاب لا ماء فيه، تشله: تسوقه، هذاليله: القطع المتفرقة، القلاص: الإبل الشابة، الطرائد: ما يطرد من الإبل عند الغارة، النوء: النجم إذا مال للمغيب .

(٣) في العبور الحضاري للامية الشنفرى، دراسة نقدية إبداعية، د. محمد علي أبو حمده، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ص ١٣.

فالطبيعة من أهم مصادر الإلهام للشعراء يلجأون إليها فتمد قلوبهم بمشاعر الغبطة والفرح والحزن والرجاء والخوف فيزاجون بين كل هذه المشاعر مجتمعة فيأتي الشعر معبراً عن كل هذه المعاني.

واختلاف بيئات الصحراء قليلاً في أطرافها ووسطها نسبة لتواجد بعض المرتفعات والمنخفضات والوديان والسهول والرمال والحجارة كل ذلك له أثره في الطقس "وقد يظهر أثر قلة المطر في كثرة الصحارى بشبه الجزيرة ويقتم هذه الصحارى إقليم الحجاز فإذا هو بقاع قاحلة جرداء إلى جانب مناطق غنية خصبة وليس مظهر هذا التناقض هو ذلك فقط، وإنما نجده واضحاً من الناحية الجغرافية أيضاً فبينما نجد الجبال العالية التي تتجمد قممها نجد أقصى درجات الحرارة في منخفضاتها^(١).

والصحراء كما ذكرت فضاء رحب يمنح العقل سعة في التفكير والتدبير والتأمل والنضوج وهي متعة للعين والنفس فيها راحة روحانية، في كل بيئاتها وطبيعتها (ويبدو أن طبيعة الظاهرة الجغرافية في الصحراء لم تكن مثل اليمن التي تغمرها السيول والفيضانات إلا نادراً هذا إلى جانب أن أكثر أهل الحجاز كانوا بدواً لم يصلوا من الحضارة إلى درجة التحكم في هذه السيول والانتفاع بها^(٢)).

وهكذا نرى البيئة الصحراوية العربية بين طبيعة يجود فيها الغيث حيناً ويشح حيناً آخر، وتخضر وديانها في مواضع وتقط في مواضع أخرى، وتنساب النسائم رقيقة خفيفة منعشة في بعض المرتفعات، وتقسو حرارة الهجير في البعض، ولذلك نجد البدوي عرف الصحراء قبل معرفته بالبحر ومنابع المياه، ورأى نباتاتها وحيواناتها وزرقة الماء فيها، ولامس أديمها جلده دون حائل، وجال في حزونها وسهولها وجبالها وسرح أنعامه في أفيائها، وشم أريج أزهارها ونبتها، واستتب الماء من جوفها للشاربين، وافتن في شئون الحياة على ظهرها في صيفها وشتائها وخريفها. (وكلمة العرب تنبئ عن الصحارى والغفار والأرض المجذبة التي لا ماء

(١) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، تأليف د. أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ١١.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، دار المعارف بمصر بدون، ص ٦٧.

فيها ولا نبات وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور ... ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي فإنها في وضعها الداخلي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ولأجل هذا صارت الجزيرة حصناً منيعاً لم يستطع الأجانب أن يحتلوها^(١).

ولعل الطقس الحار الذي غلب على الصحراء أخذ حيزاً كبيراً في ثانياً قصائد الشعراء نتيجة للتجوال والترحال الذي أصبح ديدنهم وكثيراً ما يصف الشاعر الجائع والمهوف ممن قذفت بهم الصحراء في فم الموت يطرقون البيوت بحثاً عن الشراب والطعام فتأتي الأبيات معبرة عن هذه الموقف ومصورة حرارة الصيف أو برودة الشتاء.

الفضاء الواسع في الصحراء جعل الطقس شتاءً أو صيفاً يغطي كل مساحاتها ففي فصل الشتاء يكون البرد شديداً فيجمد الماء ويقل الجذب، ويضطر البدو إلى تقريب بيوتهم إلى بعضها ليخفف من شدة البرد عليهم. يقول طرفة:

إني من القوم الذين إذا *** أزم الشتاء ودوخلت حُجره
يوماً ودُونيت البيوت له *** فثنى قبيل ربيعهم قرره
رفعوا المنيح وكان رزقهم *** في المنقيات يُقيمه يسره^(٢)

ويقول لبيد يصف يوماً بارداً في الصحراء وكيف أن البرد دفعه لذبح الجذور :

ذعرت قلاص الثلج تحت ظلاله *** بمثنى الأيادي والمنيح المعقب^(٢)

(١) الرحيق المختوم تاليف صفي الرحمن المباركفوري الطبعة السابعة عشر ٢٠٠٥م دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة، ص ٢١ .

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٢١. أزم: اشتد، حجره: غرفه، دوخلت: جعلت واحدة داخل أخرى يسكن فيها من البرد، دونيت: قرب بعضها من بعض، ثنى: عطف، قرره: الواحدة قره وهي البرد، المنيح: قدح مستعار لا يأخذ صاحبه شيئاً، المنقيات: النوق السمينة، يسره: القوم المجتمعون على الميسر .

(٢) ديوان لبيد، ص ٣١، ذعرت قلاص الثلج : أي دفع البرد عن الناس بإطعامهم ،مثنى الأيادي: مافضل من الجذور، المعقب: فهو المجر الذي انكسر وجبر، المنيح المعقب : القدح المشدود بالقصب علامة عليه .

ومن علامات الشتاء أن تصبح أيديهم سوداً من نار التدفئة فيصور عروة ابن الورد ذلك في أبيات بعد أن تحدث عن كرمه، ويأتي دائماً ذكر الشتاء مقروناً مع القرى والكرم والعطاء. يقول عروة معبراً عن ذلك:

قعيدك - عمر الله هل تعلمين *** كريماً إذا اسودَّ الأنامل أزهرها
صبوراً على رزء الموالى وحافظاً *** لعرض حتى يوكل النبات أخضرا
أقبّ ومخماص الشتاء مرزأ *** إذا أغبرّ أولاد الأذلة أسفرا^(١)

ويقول: إذا جاء الشتاء واشتد البرد غشي الناس النيران فاسودت أناملهم ومعاصمهم من الوقود، وأنه يصون عرضه عن الذم ولم يزل يقري ويكرم إذا جهد الناس حتى تخرج السنة ويورق الشجر ويقبل الخصب فيعود العود أخضر بعد بيبسه.

"وكانت معاناة العربي من الطبيعة الكئود عظيمة سواء في يسرها أم في عسرها فإذا أجدبت جاءت بالعذاب وإن مطرت صبت الموت الزؤام فيشتد بردها حتى يجمد المطر على أهداب عيوب الإبل ويتلظى حرّها حتى تكاد ترهق الأنفوس من سعيها"^(٢).

وصف الشعراء الصحراء بكل مكوناتها من نبات وجماد وحيوان "وبلغ من احتفالهم بالحيوان أن كنوه كما يكنى الإنسان فقالوا للأسد أبا الحارث، وللثعلب أبا الحصين، وللفرس أبا مضاء، وللنعامة أم رثام"^(٣). وهذا دلالة على إعزازهم للحيوان ومشاركتهم له في أماكن تواجده فاجتمعوا كلهم داخل بقعة الصحراء.

بل وصفوا الرياح التي تحمل المطر ورياح الشتاء ووردت إشارات كثيرة في دواوينهم تعبر عن هذه الرياح وقسوتها ورطوبتها وشدتها وللرياح مواقيت يعرفون بها فصول السنة فيتفاءلون من بعضها ويتشاءمون من أخرى، فعندما تهب الرياح من الجنوب أو اليمانية واتجاهها من اليمن يقترن ذكرها بالأمطار في حديث الشعراء فإذا تحدثوا عنها كان الحديث عن الخصب والخير والخضرة.

(١) ديوان عروة بن الورد، جمع وشرح كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ص ٣٤. رزء الموالى: أي منالتهم، حافظاً لعرضي: يقول أصون عرضي عن الذم وأعرضه للحسد، مرزأ: أي ينال ويصاب الخير، ولا يخيب على أحد، الأذلة: الواحد ذليل، أي اللثيم.

(٢) المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، ص ٢١.

(٣) الأصول الفنية للشعر الجاهلي، د. سعد إسماعيل شلبي، القاهرة، مكتبة غريب، طبعة ١٩٧٧م ص ٢٣٦.

قال طرفة يصف ريح الجنوب وهي تستدر السحاب لينزل الماء على ديار حبيته:
مرته الجنوب ثم هبت له الصبا *** إذا مسّ منها مسكناً عدماً نزل^(١)

وفي نهاية فصل الخريف بدأ البدو بالرحيل والتفرق في أرجاء الصحراء وكان يبعث في نفوسهم الحسرة والحزن والألم، ومن هنا جاء ذكر الظعن والرحيل والبكاء وراء الراحلين في العديد من كتب الأدب والأشعار وهي تفيض بالألم والحسرة، وقد اقترنت هذه الفترة بريح السموم ولهيب شمس الهاجرة ولكن رغم قساوتها فهي غنية بالجمال الأصيل ومليئة بالمحاسن المطبوعة والصفات الموروثة فلا يجد إلا اتساعاً في الطبيعة، وأفقاً ممتداً وشفاءً في اللون، وانطلاقاً في الحياة، فهذه الطبيعة لها تأثيراتها من كل جوانبها.

تحدث الجاحظ عن البدوي في الصحراء فقال: "ولحاجته يعني العربي إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فardاً وما يكون منها راجعاً مستقيماً"^(٢).

والمطر في البيئة الصحراوية هو الحياة ولذلك جاء النواح عليه أبرز ألحان الحزن والحنين، وعندما تهب عليهم ريح السموم تصبح الأرض جحيماً لا يطاق، وبذا أصبح الترحال سمة من سمات البدو فيلجأ لأماكن الرعي وتعرض له الأطلال وأماكن الحل والترحال.

يقول زهير بن أبي سلمى:

وبلدة لا ترام خائفة *** زوراء مغبرة جوانبها
تسمع للجن عازفين بها *** تضبح من رهبة ثعالبها
يصعد من خوفها الفؤاد ولا *** يرقد بعض الرقاد صاحبها

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٨٦. عدملاً: سحاب عظيم كثيف، مرته - استدرته، نزل: أمطر.

(٢) الحيوان، عمرو بن بحر (الجاحظ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٠.

كلفتها عرساً عذافة *** ذات هباب فعماً مناكبها^(١)

وقد صور كثير من الشعراء امتداد الصحراء وترامي أطرافها ويذكر المرقش الأكبر في إحدى قصائده واصفاً إياها بتراميهها ووحشتها وصور أحد لياليتها قائلاً:

قطعت إلى معروفها منكراتها *** بعيهامة تنسلُّ والليل دامس
تركت بها ليلاً طويلاً ومنزلاً *** وموقد نار لم ترمهُ القوابس
وتسمع تزقاًء من البوم حولنا *** كما ضربت بعد الهدوء النواقس
فيصبح منقى رحلها حيث عرست *** من الأرض قد دبّت عليه الروامس
وتصبح كالدودة ناط زمامها *** إلى شُعب فيها الجواري العوانس
ولما أضأنا النار عند شوائنا *** عرانا عليها أطلس اللون بئس
نبذت إليه حزةً من شوائنا *** حياءً وما فحشي على من أجالس
فأض بها جزلان ينقض رأسه *** كما آب بالذهب الكمي المجالس^(٢)

هذا التصوير البديع الذي صوره الشاعر له دليل وصورة حية لحال الصحراء ومناخها فقد وصف ربوعها المترامية الأطراف وألجأته رحلته الطويلة أن عرس فيها مدة أوقد فيها ناره وظل وحيداً وكانت الرياح تعصف به فعند تحوله من مكان لآخر لا يجد أثر ناقته لشدة الرياح، وقد أتى إليه ذئب عند نزوله لشواء لحمه فأكرمه المرقش بقطعة من لحم فرجع مسروراً كأنه فارس ظفر بغنيمة، وكلما ظهر جبل اختفى آخر من السراب الذي يغطيها.

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٩٤، زوراء: ليس طريقها بمستقيم، مغبرة: من الجذب، عرساً: ناقه شديدة، عذافة: غليظة، هباب، ذات نشاط، فعماً: ممثلاً.

(٢) المفضليات، الضبي، ص ٤٤٦. العياهمة: الناقة السريعة الصلبة، القوابس: جمع قابسة وهي التي تطلب الثأر، التزقأء: صوت الطائر، عرست: التعريس النزول آخر الليل في مكان للاستراحة فيه، الروامس: جمع رامسة وهي الريح التي تدفن الآثار، الدودة: الأرجوحة، العوانس: جمع عانسة وهي التي كبرت ولم تتزوج. أطلس اللون: في لونه غبرة إلى سواد يقصد الذئب، نبذت: رميت، حزة: قطعة، آب: رجع، جزلان: فرح، الكمي: الفارس في كامل عدته.

ونجد أن البدوي تعامل مع مكونات البيئة الصحراوية التي أهدته القوة والصبر والجلد ولم يقنع بالضعيف أو نصيب الواهن فهو ينظر للمعالي مثل طرفة بن العبد الذي يقول:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه *** خشاش كراس الحية المتوقد^(١)

يضاف لذلك فكر ثاقب وعقل مدبر وحركة دائبة لا تعرف الخمول والقنوع والاستجمام عرف مجاهل الصحراء وسهولها فكشف ذلك في تجاربه فانسأقت حكماً وقولاً شعرياً وسردها بلغة رصينة وأخذ ذلك مشافهة من البيئة بتعابير ومعان قوية وتصوير بديع، ووصف خلاب يأخذ بمجامع القلوب، فقد أخذ من وقع أقدام الإبل التي تضرب في الصحراء الجرداء، فتابع الأثر ووصف الرحل والرمل والظعن والحجر، فقد وصف مشي الإبل فأتى شعراً منقولاً فتنشط ثم تسرع للسير في الرحلة ثم تحولت إلى مقطوعات قصيرة موزونة تدرجت إلى قصائد وكانت نواة للشعر.

لذلك " نجد أن للبيئة أثرها الجوهري في خلق الشخصية وتنمية الملكة وصقل الوجدان وطبع الشعور بطابع الرقة أو الغلظة وتنشئة الإنسان على نحو من صرامة الطبع أو لينه"^(٢).

لذا نجد أن الصحراء هي أساس فكر وفهم خطوات الشعر بعد أن مرّ بمراحل متنوعة ولذلك أتى إلينا هذا الشعر يحمل لغة ولون وروح ورائحة وذوق وأثر وطابع الصحراء، فأتى في تصويره يحمل سمات الصحراء من طقسها وطبيعتها الرملية منها والحجرية، برودتها وحرارتها، خريفها وقحطها، ووظف الشعراء شعرهم حاملاً لكل هذه المعطيات دون أن تكون هناك أدنى مقومات العلم والتعليم الآن يعتبر النواة والمرجع للأدب عامة، فقد زاوجت الطبيعة بين الحزن والفرح، والخوف والرجاء، فأنت كل هذه المشاعر معبرة عن البيئة تعبيراً صادقاً يحمل صفات وأسماء ومعاني الصحراء، فالرياح في ثقافته لها دلالات وفهم وإدراك يعرفون بها مواقع الأمطار وسقوطها وبداية ونهاية الفصول، وريح الشمال التي ينشأون منها ويعتبرونها نذير شؤم وجذب قال زهير:

(١) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٤٥ .

(٢) في مرآة الشعر الجاهلي، فتحي احمد عامر، مطبعة دار الشروق بيروت لبنان ١٩٧٧م، ص ٨ .

فلما أن تحمل أهل ليلى *** جرت بيني وبينهم الظباء
جرت سناً فقلت لها أجيبي *** نوى مشمولة فمتى اللقاء؟^(١)

فالمناخ الصحراوي والبيئة عموماً وطبيعتها لها أثر كبير في حياة الناس وتوجيههم وطبيعة حياتهم، ومعاشهم، وسفرهم، وترحالهم، وفكرهم وثقافتهم، ونظرتهم للحياة، ونشاطهم الاجتماعي، وعاداتهم وتقاليدهم، وموروثاتهم، وانعكس كل ذلك في أشعارهم التي هي انعكاس واضح وبيّن لطبيعة مناخ الصحراء.

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٧١.

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية في الصحراء

الفصل الأول

تكوين القبيلة وأثرها في الحياة الاجتماعية

تكوين القبيلة وأثرها في الحياة الاجتماعية

كان للبيئة الصحراوية أثرها الواضح في تزويد وتنوع الحياة الاجتماعية بمظاهرها الطبيعية منها والمكتسبة، وقد انعكس ذلك في إثراء مفردات القصيدة التي ولدت فيها وتدفع الشاعر بأن يطوف بين الذهنية الإبداعية الجاهلية والبيئة الصحراوية في نسج الصورة الشعرية من معالم الصحراء الواسعة كالجبال ومواقع النباتات وحيوان البادية بجانب اتساع مراحبها وتغاير معالمها ولم تقتصر على ذلك بل للصحراء أثر في تركيبة المجتمع البدوي من حيث التكوين القبلي والعشائري والاجتماعي في ظعنهم وترحالهم وحلهم في أكلهم وشربهم في صيدهم وطردهم في رعيهم وكسبهم لرزقهم في معايشة الواقع الاجتماعي والأدبي والنفسي وفي بلورة أفكارهم وأخيلتهم في تفكيرهم وإدارة شؤونهم وسبل حياتهم في النظرة الجماعية لكل لما هو مائل أمامهم في حربهم وإغارتهم وسلمهم وفي شرب الخمر والمؤانسة وفي كل عاداتهم الاجتماعية وتفصيلها، فالجماعة هي النظرة الطبيعية لكل بدوي في الصحراء ولا توجد لديهم الفردية إلا ما ندر في سلوكياتهم الخاصة، أو ما يحمله بيت القصيد في حمل المعنى متكاملًا وانعكست هذه الروح في الأدب والشعر على وجه الخصوص فالقصيدة مجتمعة ترمي لمقصد وهدف.

فاتساع الرقعة الصحراوية وقلة منابت العشب وتفرق أماكن تواجد الطرد والصيد وتواجد الوحوش وقطاع الطرق وتباعد تجمعات البدو في الصحراء، مع تناسب امتدادها جعل من الجماعة هي المصير المحتوم والشئ المعلوم، بل وارتبطت بكثير من الصفات والعادات والتقاليد والخلق القويم والنفوس القوية الأبية، فالكرم دينهم والمروءة والنجدة مخبرهم وإغاثة الملهوف وجمع الفقراء عاداتهم والقوة والشجاعة والصبر أكسبتها لهم وسادت العفة والحكمة، وتغنوا بها مع كثير من صفات النخوة والإباء. ونجد أن لكل قبيلة منازل في الصيف ومنازل في الشتاء وإذا تنقلت في الصحراء تنقلت في رقعة جغرافية معروفة.

فالبادية الصحراوية تحمل كثيراً من المعاني والدلالات فقد عكس الشاعر كل ما يدور فيها من جمال ذاك الواقع أحياناً وبؤسه أحياناً أخرى، وهي أشد لصوقاً وعلوقاً بالنفس لأن أكثر ما تقوم على القبيلة والأسرة والوطن وحياة الصحراء أشد

إيغالاً في هذا المعنى من أصناف الحياة البدوية فالصورة عند الشاعر تأتي متكاملة
لعكس الواقع فيصور لنا ليبد يوماً من أيام الصحراء بقوله:

ويوم هوادي أمره لشماله *** يهتك أخطال الطراف المطنب
ينيخ المخاض البرك والشمس حية *** إذا ذكيت نيرانها لم تلهب
ذعرت قلاص الثلج تحت ظلاله *** بمثنى الأيادي والمنيح المعقب
وناجية أنعلتها وابتذلتها *** إذا ما اسجهر الآل في كل سبب
فكلفتها وهماً فأبت ركية *** طليحاً كألواح الغبيط المذأب
متى ما أشأ أسمع عراراً بقفرة *** تجيب ذماراً كاليراع المثقب^(١)

فانتظم الناس في الصحراء في جماعات تمت عن طريق التكوين القبلي العشائري
"فالعوامل الطبيعية والظروف القاهرة لتلك البيئة هي التي تدفع البدو أن يكونوا
وحدات اجتماعية يطلق على كل واحدة منها اسم قبيلة، والقبيلة تجمع العمائر
والعمارة تجمع البطون والبطون تجمع الأفخاذ، والأفخاذ تجمع الفصائل"^(٢).

وأن هذه التشكيلات الاجتماعية لا تقدها صلتها بالفرع الذي تفرعت عنه...
فكانوا يذهبون جماعات إلى مواطن الكلاً والماء أينما وقع وغلبوا عليه بقول
الأخنس التغلبي:

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا *** مع الغيث ما نُلقي ومن هو غالب^(٣)

(١) ديوان ليبد بن أبي ربيعة، ص ٣١-٣٢، هوادي الأمر : أوائله، الشمال: الريح الشمالية، يهتك أخطال
الطراف: أي يقطع حبال البيت وهي من أدم ، المطنب: مشدود الحبال ، ينيخ المخاض: ينيخ الحوامل من
الإبل لتترك، ذكيت : أوعدت، ذعر قلاص الثلج: أي دفع البرد من الناس بإطعامهم: قلاص الثلج:
السحاب، مثنى الأيادي: مفضل من لحم الجذور، المنيح المعقب: القدر المشدود بالعقب، ابتذلتها: اتخذتها
للكوب، اسجهر الآل: انبسط السراب، الوهم : الطريق الضخم، ركية: مهزولة، طليح: ضامرة، الغبيط
المذأب : مركب يوضع على ظهر البعير ذوفرجة في مقدمه، الحرارة: صوت النعام ، اليراع: ذمارة من
القصب، الذمار: صوت أنثى النعام .

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه تصنيف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الطبعة الأولى ١٩٣٤م
مطبوعة حجازي القاهرة ج ٢ ص ١٨٢.

(٣) المفضليات:المفضل الضبي ، ص ٢٠٠.

والقبيلة تسمى غالباً باسم الأب كالأوس^(١). وقليلاً ما تنسب إلى الأم لمكانتها وشهرتها كجبيلة^(٢) ومزينة^(٣).

وقد رتب وقسم القبيلة إلى قبائل محمد بن أسعد النسابة المعروف بالحراني فقال: "حزم ثم جمهور ثم شعب ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن ثم فخذ ثم عشيرة ثم فصيلة ثم رهط ثم أسرة ثم عترة ثم ذرية"^(٤).

وكان رئيس القبيلة يتمتع بمكانة عالية في مجتمعه لأنه يتميز بصفات دفعته إلى الصدارة فيوقره الأفراد ويقدمونه في فصل الخصومات حسب عادات القبيلة وتقاليدها ولها بجانب رئيسها حكام امتازوا بأصالة الرأي وحصافة العقل وصدق النظر يفزع إليهم في الخصومات الأدبية كالمفاخرة في النسب ونحوها^(٥).

ولذلك يعبر لبيد ابن أبي ربيعة عن قومه ورئيسهم الذي يتحدث بلسانهم والصفات الواجب توفرها في رئيس القبيلة بقوله:

إنا إذا التقت المجامع لم يزل *** منالزاز عزيمة جشامها
ومقسم يعطي العشيرة حقها *** ومغذمر لحقوقها هضامها
فضلاً وذو كرم يعين على الندى *** سمح كسوب رغائب غنامها^(٦)

فهذه صفات الرجل الذي يقنع الخصوم عند الجدل قوي الشخصية يحكم بين الخصوم فيعطي كل عشيرة حقها أما نفسه فلا يأخذ نصيب من الغنيمة، ويفعل ذلك

(١) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، تأليف عمر رضا كحالة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٨م، ج ١ ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٤) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكري الألووسي البغدادي، الجزء الثاني، ص ١٨٩.

(٥) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م، ص ٤٢.

(٦) ديوان لبيد، ص ١٧٩. اللزاز: الذي يعتمد عليه، الجشام: المتكلف للأمر القائم بها، المغذمر: الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض، الهضام الذي يعطي القوم ويوتقوا به، المجامع: الأماكن التي يلتقي فيها العرب فيتفاخرون.

فضلاً منه دون عطاء، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه شتى خصال، السخاء، النجدة، الصبر، والحلم، والتواضع والبيان^(١).

وكما ذكرت هناك أسباب عدة حتمت تكثف الناس مع بعضهم مكونين مجتمع القبيلة، فكان الاعتداء على حقوق الآخرين ونهب أموالهم وقتل أرواحهم وأسر لنسائهم في الحرب وأن القوة ليست كافية بل لابد من ممارستها لكل فرد لكي تمنع كيد الطامعين بالسيف أو القسيمة . والعصبية أخذت دوراً كبيراً في القبيلة والانتماء لها كقول عنتر بن شداد :

أحب بني عبس ولو هدروا دمي *** محبة عبد صادق القول صابر
وأدنوا إذا ما أبعدونني والتقني *** رماح العدا عنهم وحر الهواجر^(٢)

ولكن كانت هناك كثير من الأعراف القبلية في المجتمع البدوي ومنها ما يعرف بالحلف فيما بينها ليحمي بعضهم بعضاً في السلم، وأحياناً تكتب هذه المحالفات في صحف كالتى كانت بين تغلب وبني بكر والتي ذكرها الحارث بن حلزة في معلقته بقوله:

أنكروا حلف ذي المجازر ما *** قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل *** ينقض صافي المهارق الأهواء^(٣)

وتكوين القبيلة نتاج لتأثير البيئة الصحراوية على المجتمع البدوي وانعكس ذلك في تناول الشعراء في قصائدهم لحياة الناس فجرت الألفاظ والمعاني تحمل تلك الصورة في الشكل والمضمون فكان لخشونة العيش وحرية الفكر وطبيعة الطقس وسذاجة البدو وتكوينهم العشائري دافع لبلورة شكل ومضمون القصيدة القديمة، فالصدق والسليقة والرؤية الواضحة لكل أشكال وجوانب الحياة فانعكس ذلك في الشعر فكان هناك تمثيل حقيقي للطبيعة، فلا تجد كلفاً بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء فكثرت الإيجاز وقل المجاز وندرت المبالغة، ولذا كان النقد عند أدباء العرب البيت ثم القصيدة التي تجمع العديد من الأفكار فيها، ولذلك يقال أشهر بيت وأبلغ بيت... إلخ. فكان استعمال الغريب ومنانة التركيب وجزالة اللفظ وتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة في

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، ص ١٨٧.

(٢) ديوان عنتر بن شداد، ص ٦٨.

(٣) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٣٦.

طبائعهم ونظام اجتماعهم، فبدأوا القصيدة بذكر الأطلال والديار والآثار وكلها تشير للجماعة وحياة المجموعة لأنهم أهل خيام ومضارب فلا يكاد يمر الشاعر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه فيه وأحبه ورحل عنه فتهيجه الذكرى وتبكيه.

ولذا نجد نفس الجماعة في الحياة الصحراوية من خلال تلك القصائد التي حملت كل معطيات الظواهر التاريخية والاجتماعية في الجزيرة العربية وعيشهم في مجموعات أفرز عدداً من تلك الصفات فالصدق مثلاً لم يكن ظاهرة اجتماعية خاصة بل هو ظاهرة اجتماعية عامة أفرزتها البيئة الصحراوية مثلاً الفقراء لا يشكلون طبقة محدودة بل هم أغلب أفراد المجتمع البدوي وقد وردت كثيراً في ثنايا شعرهم، فالفقر في المجتمع البدوي ظاهرة مقبولة، ولهذا تتعادل معاني الفقر والغنى ولذلك كان الفخر بالكرم وإكرام الضيف والمعتر يقول عروة بن الورد مخاطباً زوجته:

سلي الطارق المعترّ يا أم مالك *** إذا ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي أنه أول القرى *** وأبذل معروفني له دون منكري^(١)

فالمجتمع البدوي في الصحراء من خلال تكوينه القبلي يخضع لضروب التكافل الاجتماعي والمسئولية الجماعية ففي أحياء القبيلة كما جاء في شعر ورد هناك معدمون ليسوا مهينين تهيئاً لاستخدام القوة في كسب أرزاقهم وحياة التنقل في البحث عن الكلاً والماء ولقمة العيش ولذا نجد القصيدة العربية تبحر في هذا الاتجاه، فهي رحلة فكرية ذات مراحل ينتقل فيها الشاعر بين آفاق الأفكار يبدأ بكاء الأطلال فيصف الطريق الذي يمر به فإذا مرّ بالديار ورسم المحبوبة ووقف بين الأطلال وتذكر وأنشد وتغنى بمربع الصبا ومفاتن الحبيبة، ثم يمضي بطبعه في تلك الوهاد الوحشية غير رفيق سوى ناقته ويقارنها بما يرى من الوحش والظباء ثم يفخر بنفسه ومحامد قومه وعشيرته مباحياً بتلك الأيام.

وأيضاً نجد حلفهم في ساعة الحرب بين المجموعات القبلية والمهادنة ولكن الإغارة من سمات ذلك المجتمع في الصحراء ويصور ذلك قول القطامي:

ولكن إذا أغرنا على جناب *** وأعوذهن نهب حيث كانا

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ٤٤. الطارق: الآتي ليلاً، المعتر: الآتي للمعروف من غير أن يسأل، المجزر: المكان الجزر "المسلخ"، يسفر: يشرق، المنكر: ضد المعروف.

أغرّن من القباب على جناب *** وضبة إنه من حان حانا

وأحياناً على بكر أخينا *** إذا لم نجد إلا أختنا^(١)

(فالقبايل لا تقيم وزناً للأخوة وللنسب فإذا اختلفت المصلحة فلا تجد القبائل عندئذ أي غضاضة في الانفصال عن قبيلة مواخية لها لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب، ومحاربة أختها التي انفصلت عنها كتتحالف ذبيان مع تميم على عبس، وتحالف عبس مع بني عامر في حرب البسوس على ذبيان وهي أختها^(٢)).

ولذلك نجد الحياة القبيلة والعشائرية التي سادت في تلك الصحراء لها أثرها في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية بل هي نتاج مؤثر لتلك البيئة الصحراوية فحمل الأدب العربي تلك الأفكار وصاغها في قوالب شعرية أصبحت مرجعاً للأدب واللغة والتاريخ، فالمعلقات تحمل طابعاً عاماً متكاملًا.

لذا نجد أن التكوين القبلي أحد مؤثرات الصحراء للأسباب التي ذكرناها فأبرزت نتائجها الإيجابية في المجتمع الصحراوي وعندما جاء الإسلام استفاد منها في توطيد قواعده وفي الفتوحات في العراق والشام في بداية الدعوة وأيضاً كانت عاملاً مساعداً في تهيئة الجو النفسي والاجتماعي بين القبائل بحمايته أو عدم إيذائه.

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة،

١٩٨٠م، ج ٤ ص ٣٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤١.

مكانة الشاعر بين قومه في الصحراء:

كان للقبيلة دور بارز في شكل المجتمع البدوي وأيضاً دورها في بث الأدب فجاء قوياً يطغى عليه طابع الرصانة وكان الفخر والتعصب يحمل هذه المعاني والمفردات التي تعبر عن ذلك الكيان فتأتي الكلمات التي تحمل نبرات قوية وسمات الشجاعة ومعلقة عمرو بن كلثوم شاعر تغلب خير دليل على ما ذكرنا فهي تبدأ بمقدمة عن الخمر وتأثيرها على شاربها وعن صاحبته التي تسقيه، ولكنه لا يطيل فيتحدث عن قومه ومفاخرهم حديثاً ينسى فيه نفسه نسياً تاماً فيصف قومه بشجاعتهم وأيامهم الغر الطوال ويذكر مجدهم التليد الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم الكرام، وكيف أنهم دافعوا عنه، وفي خواتم قصيدته يأتي ببيت تفيض فيه روح العصبية والقبلية والجاهلية يقول:

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا^(١)**

فقد عبر الشاعر عن قبيلته تغلب فجاءت هذه النزعة القوية العصبية وكان الشاعر الجاهلي يزود بكل السبل عن قبيلته ولذلك كان المجتمع الجاهلي يقوم على الجماعة والعصبية، فالشعر هو لسان حال قبيلته وصوتها الذي يذيع مفاخرها ومآثرها في المجتمع العربي وهو الذي يرفع من قدر عظائمها. يقول عنتر بن شداد في ذلك :

ولولا سناتي والحسام وهمتي * لما ذكرت عبس ولا نالها فخر^(٢)**

ولذا جاءت أهمية الشاعر بين قومه في المقدمة وللقبيلة نظم وأعراف وتقسيمات (فيتألف مجتمع القبيلة من ثلاث طبقات الطبقة الأولى طبقة الأحرار التي تشكل من السادة الأشراف وعملهم القتال لحماية الحمى، وطبقة العبيد الذين جمعهم الأسر والاسترقاق بالشراء والاختطاف وعملهم الرعي والسقي والاحتلاب والاحتطاب وخدمة الأفراد، وطبقة الموالى التي كانت تلوذ بالقبلية القوية مستتجة بها ومنزلتها دون الأحرار وفوق العبيد شرفاً وعملاً^(٣)).

(١) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣٢٣.

(٢) ديوان عنتر بن شداد، ص ٧١.

(٣) الأدب الجاهلي قضاياها، أغراضه، أعلامه، فنونه، د. غازي طليمان عرمان الأشقر، ص ٣٨١.

وعندما يفخر الشاعر بنفسه فهو يعني القبيلة التي ينتمي إليها في قوتها وسلطانها ونجد عنتره يفاخر بتولييه القيادة وحاجة القوم إليه لنجدتهم وبتفريقه الأعداء بضربة فيصل، وبخبرته الحربية، فهو يعلن عن نفسه وسط المحيط البدوي الذي يعيش فيه وهنا يفخر بهذه الأبيات في قوله:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني *** أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل *** لا بد أن أسقى بكأس المنهل
إن المنية لو تمثل مثلت *** مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل^(١)

وقد ترك النظام القبلي أثره في الأدب العربي وأغراضه وفنونه إذ رفع الشعر إلى تسعير الخصومة بين القبائل وحملت الأمثال والقصص، والشعر معاني البطولة والحرب والأخذ بالثأر، حتى أصبح الأدب الذي نشأ في الصحراء وما فيه من القوة والبطولة، ومعاني الحرب والمفاخرة والمنافرة ذخيرة متفردة تذخر بفيض من المعاني الحماسية والبطولة المعنوية فهذا المجتمع بتكويناته الصغيرة والكبيرة كإمارة كنده التي كان حُجر والد امرئ القيس آخر أمرائها، وإمارات الغساسنة والمناذرة التي سادت ردهاً من الزمان وجد الشعراء في ظل هذه الكيانات منتجاً يقصدونه ويروجون فيه بضاعتهم، ويتنافس فيه الفحول من الشعراء كالنابغة الذبياني والأعشى وعلقمة الفحل والمرقش الأكبر^(٣)، وغيرهم، فقد تأثر المجتمع البدوي في الصحراء بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والحياة اليومية، فالماء في فلواتهم المتسعة يسيل في أودية ويجتمع في غدران وكلما جادت السماء على الأرض أخضرت وكثرت المراعي والعشب، وكلما أحبس المطر جفت الموارد وبيس العشب وظمئ الناس والحيوان، فارتحل القوم إلى منتجع آخر ولذا يظهر أسلوب السلب والنهب والغارة، ويعدونه من شيم الأبطال، وقد قنع البدو بهذه الحياة الطبيعية دون غيرها،

(١) ديوان عنتره بن شداد، ص ٩٩. بكرت: أي عاذلته.

(٣) المرقش الأكبر : هو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل شاعر جاهلي من الشجعان عشق ابنة عم له اسمها أسماء وقال فيها شعراً كثيراً وشعره من الطبقة الأولى ضاع أكثره ولد باليمن ونشأ بالعراق واتصل بالحارث بن شمر الغساني وناداه ومدحه واتخذه الحارث كاتباً له وتزوجت عشيقته برجل من بني مراد فمرض المرقش زمناً وهو عمر المرقش الأصغر - أنظر الأعلام الزركلي ج ٥ ص ٩٥.

وكثر التحالف بين القبائل والتعاون في حرفة التجارة فأفادوا من احترام العرب للكعبة وأقاموا أسواقاً ينشدون فيها الشعر كسوق عكاظ، وذو المجاز، والمجنة... الخ.

ولذلك ترك هذا النمط من الحياة أثراً على الأدب الذي أخذ لون ورائحة الصحراء فقد صور الشاعر البدوي نزعه إلى الإبداع وحب الجمال والشوق إلى التسامي عن الواقع بعد تصويره في أجود وأدق الصور، وكان يمثل الشعر في الصحراء آنذاك السمو الفكري الذي رسم لنا خطوط ومفاصل الحياة البدوية في الصحراء فحمل الحكمة والأمثال ومآثر تلك القبيلة، وسيد القبيلة هو الذي يمثل هؤلاء ويحتكم الناس إليه وكانت منزلته رفيعة كمنزلة شاعر القبيلة فهم منارات بين الناس فيشهد الشاعر المواسم والأسواق فيأتي شعره معبراً عن حال قبيلته فيتناقله الناس، ويعددون مآثره فيدفع عن قومه هجوم الأعداء وفريتهم ويصبح كلامه قضاء لا يرد، وتسير أبياته في الأفاق وإن أتى الملوك كان سفيراً لدى قومه، يتحدث بلسانهم ويذب عنهم كالنابغة والأعشى كما جاء في بعض قصائدهم.

يقول عمرو بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يُقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم"^(١).

وفي مضمار الحرب يحارب الشاعر بسلاحين لسانه وسيفه، فيكون مثلهم في الحرب، وعندما تغمد السيوف يظل مشهور اللسان يرثي قتلاه ويهجو أعداءه، فعمرو بن كلثوم يفخر بقومه ويهجو ويقلل من مكانة عمرو بن هند يقول:

بأى مشيئة عمرو بن هند *** تطيع بنا الوشاة وتذرينا

بأى مشيئة عمرو بن هند *** تكون لقيكم فينا قطيناً^(٢)

(١) البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة المدني، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٨٥م، الجزء الأول، ص ٢٤١.

(٢) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣٠٦-٣٠٧. بأى مشيئة: بأى حال: قيلكم: ما دون الملك من الولاة، قطينا: الخدم، تطيع: تسمع، الوشاة: النمامون، تذرينا: تحقرنا.

وكانت الأسواق كسوق عكاظ مكان لميلاد كثير من الأشعار المشهورة التي وردت، وقد اختلفوا في عدد المعلقات هل هي سبع أم عشر، وعلى كل هي أعطت دورها في ذلك الزمان ونقلت الحياة البدوية في الصحراء بكل تفاصيلها، وأصبحت مرتكز الأدب العربي فيما بعد، (وكان للتأثيرات الاجتماعية في البيئة هي التي تدفع الفنان إلى التفكير والتأمل وتحفزه إلى الإبداع فتغذي موهبته وقدرته وتنمي فيه)^(١).

فالبدوي في جولاته في الصحراء يضرب في الأرض أينما وجد العشب والماء فيضرب فيها خيمته ومن معه من عشيرته فيزود الشاعر عنهن بكل مرتخص ونفيس، ويصبح المكان موطنهم لحين ترعى حيواناتهم ويصيدوا صيدهم من طير وحيوان فتنكامل حياتهم فيرث أبناؤهم كل هذه العادات والتقاليد، وترتبط بها، ومن هنا كان بكاؤهم على الطلل حتى أصبح الشعر يتناقله الناس فهو سلوان وتحفيف وسمر في تلك البيئة، فيربط بين الماضي والحاضر ارتباطاً وجدانياً وعاطفياً، ومن ثم في شكل قصائد تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، تعبر عن وجدان وأفكار وآراء وحياة أهل البادية في تلك الفلوات عن نزعة الشجاعة والقوة والفخر يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأيام لنا غر طوال * عصينا الملك فيها أن ندينا^(٢)**

وكان للشعراء مكانة فتفتح لهم أبواب القصور وتوطأ لهم صدور المجالس فيؤاكل الكبراء وينادهم ويسعى في مصالح قبيلته، ويستعطف ويستعدي ويخالف من يتوسم في مخالفته نصره قومه، فإذا عرض به أو بقومه أمير أو حاول انتقاص شرفه ملك تحدي وتوعد وثأر لشرفه كما ثأر عمرو بن كلثوم من عمرو ابن هند^(٣).

فقد تميزت القبيلة في الجاهلية بالترابط القوي وحماية وإغاثة أي فرد فيها وذلك حفاظاً على كيان القبيلة، وبروز قوتها والتعايش مع الآخرين بأسلوب القوى، وللقبيلة عادات وتقاليد ومثل ينضوي تحت لوائها أي فرد، ولا تخالف هذه الأعراف، ومن يتخطها يُطرد من القبيلة وبهذه المعطيات المكونة لعناصر البيئة

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف . د. أشرف محمود نجا، دار المعرفة الجامعية الطبعة الثانية ١٩٩٨م، ص ١٥.

(٢) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٩٤. ندينا : نتذلل

(٣) الأدب الجاهلي قضاياها أغراضه أعلامه فنونه، د. غازي طليمان عرمان الأشقر، ص ٦٧.

الصحراوية خلقت نوعاً من الانسجام بين الأفراد حيث الحياة القاسية والبحث عن الرزق والظل والعيش والماء للإنسان والحيوان.

ولذلك كان للشاعر مكانة عظيمة، والقبيلة إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهنئها القبائل^(١).

وكان لجودة الشعر اهتمام بين الملوك وأصحاب المكانة، وما قصيدة الحارث بن حلزة التي أنشدها أمام الملك عمرو بن هند إلا دليلاً على ذلك والتي مطلعها:

أذنتنا بينها أسماء * رب ثاو يمل منه الثواء**

ويقال أنه ارتجلها بين يديه في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح، وكان ينشده من وراء سبعة ستور، فأمر برفع الستور عنه استحساناً لها^(٢).

وبلغ من تأثير الشعر أنه يخرج الضغينة من قلب القاسي ويرفع الظلمة عن المظلوم ويعفو عنه، فالشاعر استطاع أن يلعب دوراً بارزاً في حياة المجتمع، يقال: أن الحارث^(١) ابن أبي شمر الغساني لما قتل المنذر الأكبر "ابن ماء السماء" في يوم وأسر جماعة من أصحابه فيهم شأس بن عبدة في تسعين رجلاً من بني تميم فقصدته علقمة بن عبدة ومدحه بقصيدته التي مطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب**

وشفع في أخيه شأس بقوله:

فلا تحرمني نائلاً عن جنابه * فإني امرؤ وسط القباب غريب**

وفي كل حي قد حظيت بنعمة * فحق لشاس من ذراه ذنوب**

(١) تاريخ الأدب العربي، د. أحمد حسن الزيات، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ص ٤٥.

(٢) الشعر والشعراء، أبي محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، طبعه وحققه وفهرسه قسم وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٤م، ص ٢.

(١) الحارث بن أبي شمر الغساني من أمراء غسان في أطراف الشام كانت إقامته بغوطة دمشق أدرك الإسلام فأرسل إليه النبي (ص) كتاباً مع شجاع بن وهب مات في عام الفتح سنة ٨هـ أنظر الأعلام للزركلي ج ٢ ص ١٥٥.

فقال الحارث: نعم وأذنبه، وأطلق شاساً وأسرى بني تميم ومن سأل فيه الشاعر أو عرفه من غير بني تميم^(٢).

واهتمام القبيلة والعشيرة بالشعر عندهم سبب في علو مرتبة قائله وقبيلته، فقد قيل في الشعر أنه (يرفع من قدر الوضع الجاهل مثلما يضع من قدر الشريف الكامل، وإنه أسنى مروءة الدني وأدنى مروءة السوي)^(٣).

فالشاعر في نظر القبيلة أمير الكلام ولسانها ونو الرأي الصائب والحكيم يستعان به عند الشدائد، يخافون لسانه الحاد، ولذا امتاز على غيره بصفات لأنه يخاطب الملك باسمه وينسبه إلى أمه، ويخاطب بالكاف، كما يخاطب أقل السوق فلا ينكر ذلك عليه^(٤).

ولذا اهتم العرب بالشعر غاية الاهتمام وكانت له جملة من المظاهر منها حفظه وروايته ومدارسته إذ عُرف لكل شاعر كبير راوٍ يصحبه ويحفظ شعره ثم ينقله في الأمصار، ويروى به في المحافل من ذلك (أن زهيراً ابن أبي سلمى كان راوياً لأوس بن حجر^(١) والحطيئة راوياً لزهير ابن أبي سلمى).

وفي ذلك يقول ابن قتيبة، الشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ولو أنفذ عمره في التقيب عنهم^(٢). فهذا يدل على كثرة هؤلاء الشعراء وكثرة أشعارهم التي لم تنقل إلينا بسبب موت أصحابها أو ضياعها.

فالشاعر فخر لقبيلته وعشيرته ويفتخر الشاعر بتثبيت عنصر القوة وسمو المكانة والعشيرة وللرهبة أحياناً يقول عمرو بن كلثوم في معلقته مفتخراً:

كَأَن سَيُوفِنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ * مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا**

(٢) العمدة، ابن رشيقي، الجزء الأول، ص ٣١. خبط: أعطى، ذنوب: حظ ونصيب

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢.

(١) أوس بن حجر بن مالك التميمي أبوشريح شاعر تميم في الجاهلية أو من كبار شعرائها في نسبه اختلاف بعد أبي حجر كان كثير الأسفار عمر طويلاً ولم يدرك الإسلام في شعره حكمة ورقة وكانت تميم تقدمه على سائر شعراء العرب له ديوان شعر - أنظر الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٣١ .

(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص ٩.

كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ *** خُضِبْنَ بِأَرْجَوَانَ أَوْ طَلِينَا^(٣)

وكذلك يقول طرفة:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مِن فَتَى خَلْتِ إِنِّي *** غُنَيْتِ فَلَمْ أَكْسَلِ وَلَمْ أَتَبَدَّ^(٤)

وفي نفس هذا المعنى يقول الشاعر عامر بن الطفيل شاعر بني عامر مفتخراً:

يَا اسْمَ أُخْتِ بَنِي فِزَارَةَ إِنِّي *** عَارٍ وَإِنَّ الْمَرْءَ غَيْرَ مَخْلَدٍ

وَأَنَا ابْنُ حَرْبٍ لَا أَزَالُ أَتَبْتُهَا *** سَعْرًا وَأَوْقَدُهَا إِذَا لَمْ تَوْقَدْ^(٥)

والعصبية في الجاهلية على الرغم من الجوانب السالبة فيها على الصعيد الاجتماعي ولكن كان لها أثراً في نفاذ الشعر وقوته وتميزه بالجرس القوي الذي ينفاح ويدافع عن اسم وشرف القبيلة التي كانت تتمتع بالأعراف والتقاليد المتوارثة، فالحلف بين القبائل متعارفاً وأن تتعهد القبائل فيما بينها على عدم الحرب فهذا يكون دستوراً متعارفاً بينهم يجب الالتزام به يقول الحارث بن حلزة في معلقته:

وَأَذْكُرُوا حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا *** قُدِّمَ فِيهِ الْعَهْودُ وَالْكَفْلَاءُ

حَذَرَ الْجُورِ وَالتَّعْدِي وَهَلْ *** يَنْقُضُ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ^(٤)

فنجد كثيراً من المعلقات المشهورة منها كان نتاج عصبية أو حمية أو دفاع عن قبيلة وعشيرة وفخر بها فأنت القصيدة تحمل أقوى المعاني والدلالات والألفاظ وجاءت معبرة عن التمسك بوحدة القبيلة والفخر بها، فالشاعر لا يخرج عن طوع وفهم ومقصد القبيلة فهو مقيد وفق القوانين والأعراف المتداولة ولذا أتت كثير من القصائد المختلفة في مواضيعها تحمل مفهوماً واحداً ومعاني متقاربة، ولذا أدت كل

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٤) ديوان طرفة بن عبد، ص ٤٧.

(٥) ديوان عامر بن الطفيل، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٧. أثبتتها سعراً: ناراً، ويسمى العود الذي تحرك به النار المسعرة.

(٤) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٣٦. الحلف: العهد، ذو المجاز: موضع جمع فيه المنذر بين بكر وتغلب فأصلح بينهما وأخذ منهما الموائيق والرهائن الذين قصدهم بقوله "العهود والكفلاء"، الجور: الظلم، المهاريق: جمع مهرق وهو الصحيفة، يقصد بعد الصلح الذي كتب كيف نقضته أهواؤهم.

عناصر تأثير الصحراء على الحياة العامة في تشكيل المفهوم العام للجماعة في الحرب والسلم، وجلوسهم لللهو، وسيرهم في ترحالهم وفي حلهم، فأتى دور الشاعر الذي عبر عن كل هذه المفاهيم بأسلوب فني بديع وربط بين كل هذه المعطيات، فالعصبية هي جزء من الحياة لتأمين عيشتهم والزود عن حماهم، ولذلك كانت هي مزجاً بين البطولة والرغبة والانتقام والمروءة والحرص على الثأر.

الفصل الثاني

الحروب

الحروب والثارات في البيئة الصحراوية

كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي انتشرت في الصحراء وأصبحت ظواهر سار عليها المجتمع البدوي في الجاهلية ولقد كان لهذا المجتمع خصائص ثلاث هي : العصبية القبلية ، والغزو والشعر .ومن هذه العادات التي كثرت عندهم الحروب والثارات، والحرب طاحونة دم كبرى تطحن الرجال والزرع والضرع والرزق والأهل ويتناسب حجم الطاحونة وقطرها مع عدة الحرب كما ونوعاً تتناسباً طردياً، وتحدث الشاعر عمرو بن كلثوم عن الحرب في معلقته المشهورة وأن الحرب ورحاها وما أتت به من شر وهلاك ودماء وأنهم قادرون على نقل الحرب إلى حيث يوجد الأعداء فيشهد ميدان المعركة حرباً شعواء، يقول عمرو بن كلثوم: **متى ننقل إلى قوم رحانا *** يكونوا في اللقاء لها طحيناً^(١)**

ويأت زهير بن أبي سلمى بلفظ يدل على مفهوم الطحن العراك مثل فتعركم عرك الرحي في قوله:

فتعركم عرك الرحا بثقالها * وتلقح كشافاً ثم تتج فتتم^(٢)**

فالحياة القاسية التي ارتبطت بها حياة العرب في الصحراء ولدت تلك المعاناة فكانت تلك السجايا المتفردة لإنسان الصحراء المتفرد فيعرف كيف تكون القوة والإقدام والغارات بين القبائل لكسب العيش والظفر بمتطلبات الحياة وبين الكرم الدفاق وإغاثة الملهوف وإباء الضيم ميزان لا يوجد إلا في هذه البيئة الصحراوية. إذن الحروب هي إحدى إفرازات الصحراء وبيئتها بكل مكوناتها.

ولنشوب الحروب أسباب عدة فتقوم لأقل الأسباب أهمية ومنها الجذب فإذا أخلفت السماء أمحلت الأرض ودفعهم الجذب إلى الحرب لجلب الماء والرزق، فإذا قلنا أن من أسباب الحروب الماء والكأ ورغبتهم في الاستيلاء على أكبر مساحة من المرعى كذلك كان العربي شديد الاعتزاز بقبيلته لا يهنأ إذا اعتدى شخص على أحد

(١) شرح القصائد العشر التبريزي، ٢٩٦.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٣.

أفرادها إلا ينال بأكثر مما فعل، كذلك نجد أن كل قبيلة تحظى بتوسيع حماها ليعظم سلطانها، أيضاً من أسباب تلك الحروب الطاحنة في الصحراء (العداء المستحكم بين عرب الشمال العدنايين وعرب الجنوب القحطانيين)^(١).

ونجد من أسباب الحروب فكر وأدب الصعاليك الذي نقلته كتب الأدب أسهم أيضاً، في تلك الحروب وعدم الاستقرار، إضافة لطبيعة حياة الصحراء (فالعربي تطبع بطابع أخلاقي ونفسي مميز فكان العربي سريع الانفعال عصبي المزاج تثيره الكلمة وتغضبه أدنى إشارة)^(٢).

وهذه الثورة العارمة في نفس البدوي والتعبير عن الشدة والقوة والظلم أحياناً والتي جاء الإسلام بعد ذلك ونهى عنها كانت فخراً لديهم إذ يظنون أنهم يتحكمون في الدنيا بمن فيها ويبطشون بالناس وإن لم يلحق بهم ظلم قال عمرو ابن كلثوم:

لنا الدنيا وما أمسى عليها *** ونبطش حين نبطش قادرينا
نسمى ظالمين وما ظلمنا *** ولكننا سنبدأ ظالمينا^(٣)

فقد كان كسبهم على أسنة رماحهم فإذا لم يجدوا أغاروا على الأقرباء من أهلهم

كما قال القطامي^(١) :-

وأحياناً على بكرٍ أخينا *** إذا لم نجد إلا أختنا^(٢)

(١) شعر الحرب على الجندي، المكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م، ص ١٦.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر عنتره د.ناهد أحمد السيد الشعراوي . دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦م، ص ١١٤.

(٣) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٣٢٢، ويروى بغاة ظالمين.

(١) القطامي هو ابن عمرو بن عباد من بني جشم بن بكر التغلبي الملقب بالقطامي أبو سعيد شاعر غزل كان من نصارى تغلب في العراق وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين وأسلم، من آثاره ديوان شعر، توفي نحو ١٣٠هـ - ٧٤٧م - أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ، ج ٢ ص ٥٨٦.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، الطبعة الخامسة بدون، ص ٢٣٠.

وكثرت الحروب وأيامها حتى ارتبطت أيام العرب بالمواقع والأنساب فكثرت الأشعار التي قيلت في هذه الأيام وذكرت في الحماسة والهجاء والفخر والرثاء وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحياة الصحراوية.

ويدلل شعر عنتره بن شداد على تلك الروح القتالية التي اتسمت بها الحياة العربية كقوله :

أسمعاني نغمةً الأسى *** ياف حتى تطرباني
أطيب الأصوات عندي *** حسن صوت الهندواني
وصرير الرمح جهراً في الوغى يوم الطعان
وصياح القوم فيه *** وهو للأبطال داني^(٣)

ونجد أن معظم الحروب العربية قديماً تنشأ حول الماء وذلك لقلته في الصحراء وتفرق العشب أدى للترحال المستمر فقد اقتلت عيس وكلب على ماء يقال له "عراعر" فقتلت عيس من كلب جمعاً كثيراً كما جاء في أخبارهم، وقد أنشد عنتره ابن شداد قصيدته التي مطلعها:

ألا هل أتاها أن يوم عراعر *** شفى سقماً لو كانت النفس تشتفي^(٤)

ويشير معاوية بن دومان في قصيدته إلى أسباب حرب همدان وقضاعة وكانت بسبب الماء فقال:

أراد طفيل يمنع الماء زلة *** ولم يك منعه الماء لو عقل
ففارقت البيض الخفاف غمودها *** ولاحت بأيديهم مصابيح كالشعل
حسبت رجالاً أن تجف حلوقها *** وأنت على رى وفي راحها الأسل^(١)

(٣) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٤١.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٦، عراعر: موضع ماء لبني كلب.

(١) الهمدانيون: شعر همدان وأخبارهم، جمع وتحقيق حسن أبو يسن، طبع دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م،

ص ٣٠٨.

فالماء في البيئة الصحراوية هو الروح ولذلك ورد ذكره في كثير من أشعارهم تناولوه بصور مختلفة يقول امرؤ القيس في إحدى قصائده مصوراً الحمار الوحشي ووروده للماء وهذا دلالة على عظمتها عندهم يقول:

فأوردها من آخر الليل مشرباً *** بلائق خضراً ماؤه ن قليص^(٢)

وحول هذا المعنى أيضاً يصور زهير أهميته في قوله:

عزم الورود فأب عذباً بارداً *** من فوقه سد يسيل وألهب^(٣)

وحول نفس هذه الصورة يقول الأعشى:

فأوردها عيناً من السيف ريّة *** بها برأ مثل الفسيل المكمّم^(٤)

ورأوا أن الإقدام لا يدني الأجل وأن الحياة الجديرة بالبقاء إنما هي حياة المجد والشجاعة. قال الحصين بن الحمام:

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد *** نفسي حياة مثل أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا *** ولكن على أقدامنا تقطر الدما^(٥)

(ولذلك كان الغدر عندهم صفة نذيمة وقد حتمتها عليهم ظروف الصحراء، وقالوا: كان الرجل في الجاهلية إذا غدر رفعوا له في مجامعهم لواء ليعرف الناس أنه غادر)(٥).

فحياة العرب في الصحراء اتسمت بالترحال المستمر وهذا ساعد على الحروب واصطدام مصالح هذه القبائل والعشائر مع بعضها البعض فالغزو وسيلة مشروعة لكسب الرزق وبذلك أصبحت الصحراء ميداناً فسيحاً يقاتل فيه الناس بعضهم بعضاً، ولذلك كانت شريعة الغزو والنهب هي المقدسة.

(٢) ديوان امرؤ القيس، ص ٩٣. قليص: قليل.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٢٧٠. آب الماء ورده ليلاً، السد: الجبل، الحاجز بين الشئيين.

(٤) ديوان الأعشى، ص ١٨١، السيف: ساحل البحر، البراء: واحدة برأة وهو بيت الصائد، الفسيل: النخيل الصغير، المكمم: الذي غطي ليقوى.

(٥) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الحوفي، ص ٢٣١.

(٥) قراءة في الأدب القديم، د. محمد أبو موسى، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، دار الفكر العربي، ص ٣٠.

يقول زكي المحاسني "إن العرب في جاهليتهم لم يحاربوا قوماً خارجين عنهم
فما عرف التاريخ أنهم جهزوا جيشاً لمحاربة فارس والروم خارج الجزيرة العربية
إلا بعد الإسلام وإنما كانت حروب الجاهلية بين قبائلها فحسب" (١). ولكن وردت
إشارات في بعض أشعارهم توحى بمعرفة فارس والروم لقوة تلك القبائل
الصحراوية، يقول عنتر بن شداد موضحاً ذلك في قصيدة يخاطب قبيلة بني شيبان:
وأخذ مال عبلة بالمواضي * ويعرف صاحب الإيوان قدري** (٢)
وقوله :

وإذا جيوش الكسروي تبادرت * نحوي وأبدت ما تكن ضلوعها** (٤)

ونشأت الحياة في الصحراء على الجمع والجماعة وليس للفرد فيها محل
وأسست على العداة وعلى المحالفة وسبي النساء في الحرب والمزاحمة على الماء
والكلأ، وكثيراً ما تنشب الحروب بنزاع بين اثنين على الكلأ أو الرعاة على الماء
فيشترك معهم ساداتهم وكبرائهم "ولذلك نجد أن البدو أقرب للشجاعة من أهل
الحضر وذلك لأن أهل الحضر ألفوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في
النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم" (١).
فالحروب منذ قديم الزمان وإن تباينت صورها وأسبابها وأساليبها وأماكنها
ووسائلها فهي ظاهرة بشرية امتدت ولازمت حياة الناس فالبيئة البدوية الصحراوية
وظروفها الحيوية كانت منطلقاً واسعاً وميداناً فسيحاً لقيام الحرب وبيئة مهينة لها.
قال أبو عبيدة "إن دريد بن الصمة سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم غزا مائة
غزوة ما أخفق في واحدة منها" (٢). وهذا بالطبع دلالة على الدربة والممارسة فقد

(١) شعر الحرب في أدب العرب، زكي المحاسني، دار المعارف بمصر بدون، ص ٢٥.

(٢) ديوان عنتر بن شداد، ص ٧٣. صاحب الإيوان كسرى.

(٤) المصدر السابق ص ٨٣، الكسروي: نسبة إلى كسرى بالكسر والفتح.

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمود شكري الألوسي، ص ٤٣٥.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء الأول، ص ٥.

كان العرب قديماً في الصحراء يعتمدون في عيشتهم على رعاية الإبل ثم الغزو والصيد وحراسة القوافل" (٣).

وهذه الحروب المتصلة أوجدت للشعراء الجاهليين دوافع كثيرة لقول الشعر منها الدافع القبلي إذ تعتبر كل قبيلة وحدة قائمة بذاتها وكل فرد فيها يمثل لبنة في بنائها العام، أيضاً نجد الدافع الذاتي فكان الشاعر شديد الإحساس فهو فرد قائم بذاته شديد التأثير بما يجري من حوله وهو أسرع انفعالاً بمظاهر قوتها وبأسها وخير من يصور مفاخرها ويزيع شهرتها، فكان هناك دافع تنافس بين الشعراء في تجويد صور قصائدهم وإداعاته وأن يشيع أن قبيلته سيدة الموقف في المعركة. قال عنتره:

فوارسنا بنو عبس وإنا * نيوث الحرب ما بين البريه**
نجيد الطعن بالسمر العوالي * ونضرب بالسيف المشرفيه**(٤)

وقد اشتهر في الجاهلية جماعة من الفرسان أظهروا بطولات نادرة في حربهم (وكان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلاً وكيف يشهرون سيوفهم ويلوحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم (١).

وجاء في العقد الفريد اشتهر عدد من الفرسان في الجاهلية منهم عنتره الفوارس، وعيينة بن الحارث بن شهاب وأبو يراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة

(٣) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حياتهم وآثارهم، بطرس البستاني، طبعة منقحة، دار نظير عبود، طبعة ١٩٨٩م، ص ١٥.

(٤) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٥٦.

(١) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م ص ٣٦٦.

وزيد الخيل وبسطام بن قيس^(٢) والأحيمر السعدي وعامر بن الطفيل^(٣) وعمرو ابن
عبدوّد، وعمرو بن معد يكرب^(٤).

ومن أصدق الأمثلة لوصف الحرب معلقة عننرة الشهيرة التي نجد من أهم
ركائزها فخره وحماسته لقوله:

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك *** إن كنت جاهلةً بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الواقعة أنني *** أغشى الوغى وأعف عند المغنم^(٥)

وأجمل ما فيها مخاطبته عبلة مظهراً فروسيته في قوله:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني *** وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها *** لمعت كبارق ثغرك المتبسم^(٦)

ولذلك نجد الحروب وأيام العرب أخذت حيزاً كبيراً في الشعر العربي الجاهلي
معبرة عن ذلك الواقع بكل مكوناته الاجتماعية التي جعلت من الحرب رمزاً للقوة
والفروسية والدفاع عن كيان القبيلة، وبذا أفرزت حياة اجتماعية يسودها التكتل
والعيش في شكل جماعات يحنّ عن الأمن وارتداداً لأسباب العزة والفخر وأضحت
معياراً لميزان القوة والضعف بين العشائر والقبائل بل مع أحلاف القبائل مع بعضها
وهي إحدى آثار الصحراء وطبيعتها الممتدة الجافة التي تقل بها أسباب الحياة

(٢) بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني أبو الصهباء سيد شيبان ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية يضرب
المثل بفروسيته أدرك الإسلام ولم يسلم قتله عاصم بن خليفة بعد البعثة النبوية نحو ١٠ قبل الهجرة — أنظر
الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٥١ .

(٣) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري من بني عامر بن صعصعة فارس قومه وأحد فتاك العرب
وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية كنيته أبو علي ولد ونشأ بنجد سنة ٧٠ قبل الهجرة وتوفي سنة ١١هـ — ادرك
الإسلام شيخاً . وفد على النبي (ص) يريد الغدر به فلم يجزؤ عليه فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له
نصف ثمار المدينة وأن يجعله ولي الأمر من بعده فردّه. وهو ابن عم لبيد الشاعر توفي سنة ١١ هجرية —
أنظر الأعلام للزركلي ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) العقد الفريد، تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق الدكتور محمد قميحة، دار الكتب
العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م ج ١، ص ١٠٥ .

(٥) ديوان عننرة، ص ١٢٣

(٦) المصدر السابق، ص ١٢٣ .

الكريمة، وجعلت نوعاً من الحراك الاجتماعي الذي قدّس الحرب في كثير من الأحيان بقول عمرو بن كلثوم مخاطباً عمرو بن هند:

نطاعن ما تراخى الناس عنا * ونضرب بالسيف إذا غشنا^(١)**

ولذلك امتدت القوة إلى ما بعد العصر الجاهلي وما خطبة الحجاج بن يوسف^(٢) ببعيدة عن الأذهان (إني لأرى أبصاراً طامحةً وأعناقاً متطولة ورؤوساً قد أئبعت وحن قفافها وإني لصاحبها)^(٣). حتى صارت الحرب ثقافة لكثير من الشعوب بعد ذلك وستظل هكذا إلى أن تقوم الساعة فهي صراع بين الحق والباطل أحياناً ولكنها صراع بين الإنسان والإنسان في موارد وفكر وفلسفة وثقافة الحياة بينهم.

لكن في تلك البقعة الصحراوية نجد من يحذر من الحرب ويوضح ضرورها وما تؤدي إليه من دمار وهلاك قال زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم * وما هو عنها بالحديث المرجم**

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة * وتضر إذا ضريرتموها فتضرم**

فتعركم عرك الرحا بثقالها * وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتم^(١)**

ولكن كانت الشجاعة عرفاً اجتماعياً والإقدام لديهم خلق وعرف وفضيلة "فيتمادحون بالموت قصيماً ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه مات حتف أنفه"^(٢).

فيقال مات فلان قصعاً إذا أصابته ضربة ورمية فمات مكانه، وكذلك قال

حارثة بن بدر مفاخراً باستعدادهم الموت في المعارك:

وشيب رأسي واستحق حلومنا * برعود المنايا فوقنا وبروقها**

(١) شرح القصائد العشر التبريدي، ص ٢٩٨، غشنا: دنا بعضنا من بعض.

(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي أبوه محمد قائد داهية سلطان ولد ونشأ في الطائف بالحجاز ولد سنة ٤٠هـ وتوفي ٩٥هـ انتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته قلده عبد الملك أمر عسكري وأمره بقتال عبدالله بن الزبير — أنظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عسك ج ٤ ص ٥١ — الأعلام للزركلي ج ٢ ص ١٦٨.

(٣) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة العصر الأموي تأليف أحمد زكي صفوت الطبعة الأولى ١٩٣٣م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ج ٢ ص ٢٧٥.

(١) ديوان زهير، ص ٤٢/٤٣.

(٢) العقد الفريد، بن عبد ربه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٢م، الجزء الثاني، ص ١٠١.

وإنا تستحي المنايا نفوسنا *** وتترك أخرى مرة ما تذوقها

رأيت المنايا بادئات وعوداً *** إلى دارنا سهلاً إليها طريقها^(٣)

أما الثأر فقد أخذ حيزاً في شعرهم وهو من العادات التي تفتشت في المجتمع البدوي في الصحراء فأدى إلى هلاك الناس والرزق الأرض. "والثأر يقضي بالانتقام لقتل القريب من القاتل نفسه أو من أحد أقاربه الذكور حتى الدرجة الخامسة"^(٤). وقد كان للمرأة دور في إشعال فتيل الثأرات فقد أثارت البسوس خالة جساس^(٥) الحرب التي سميت باسمها بالكلمة مرة وبالشعر مرة أخرى "دارت الحرب عندما رمى كليب^(٦) ناقة البسوس بسهم فأصاب ضرعها ولها عجيح حتى بركت بفناء البسوس فلما رأتها صاحت وا ذلاه فقال لها جساس أسكتي فلك بناقتك ناقة أعظم منها فأبت أن ترضى حتى زادوا لها إلى عشر فلما كان الليل أنشأت تقول تخاطب شعراً أخوا جساس وترفع صوتها تسمع جساساً:

ودونك أزوراري إليك فإني *** محاذرة إن يغدروا ببنايتي

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ *** لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار معشر *** متى يعد فيها الذئب يعدو على شاتي

(٣) الأغاني أبو الفرج الأصفهاني، بيروت، الجزء ٢١، ص ٤٤.

(٤) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. ريجيس بلاشير، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ص ٣٩.

(٥) هو جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان من بني بكر بن وائل شاعر من أمراء العرب في الجاهلية وهو الذي قتل كليب وائل وكان سبباً لنشوب حرب طاحنة بين بكر وتغلب دامت أربعين سنة قتل جساس في أواخرها نحو ١١٩ هـ — أنظر الأعلام للزركلي ج ٢ ص ١١٩.

(٦) كليب هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي الوائلي سيد الحيين بكر وتغلب في الجاهلية ومن الشجعان الأبطال كانت منازلهم في نجد وأطرافها وبلغت هيئته أنه كان يحمي مواقع السحاب فيقول ما أظلت هذه السحابة في حماية وهو أخ مهلهل بن ربيعة وخال أمرؤ القيس بن حجر الكندي قتل جساس بن مرة البكري الوائلي فثارت حرب البسوس أطول حرب عرفت في الجاهلية بين بكر وتغلب ويقال اسمه وائل كليب — أنظر الأعلام للزركلي ج ٥ ص ٢٣٢.

فلما سمعها جساس قال لها، أسكتي لا تراعي: إني سأقتل جملًا أعظم من هذه الناقة سأقتل غلالاً^(١). ثم دارت المعركة بعد ذلك سنين عدداً كما أوردتها كتب الأدب.

وهكذا كانت تدور الحروب في الصحراء وهذه الأبيات التي تحمل نفس وزهو الصحراء في ظلماتها وبيئتها وترحالها وإجارتها وبجانب إثارتها الرجال كانت المرأة وكلماتها تحمل وتشعل نار الثورة والغضب وتثير الهياج في قلوب الأبطال وقد أشار حسان بن ثابت إلى شهود المرأة في الحروب في فتح مكة:

تظل جياننا متطبرات * تظمن بالخمير النساء^(٢)**

والثأر عندما يطلبه البدوي بيدي عدم الانسياق للصالح أو الدية وبعضهم يحرض لعدم قبول الدية وطلب الثأر كقول لبيد:

ولم تحم أولاد الضباب كأنما * تساق بهم وسط الصريمة أبكر**

أجدكم لم تمنعوا الدهر تلعة * كما منعت عرض الحجاز مبشر**

لو شكنا ما أعطيتني القوم عنوة * هي السنة الشنعاء والظعن يظأر^(٣)**

وفي حالات قليلة كانت صلة الرحم تتغلب على رغبة الثأر للعزير القاتل فيكون العفو عن القاتل حفاظاً على وحدة القبيلة، وحقناً للدماء "يقول الحارث بن وعلة الجرمي وقد فجعه قومه في أخيه:

قومي هم قتلوا أميم أخي * فإذا رميت يصيبني سهمي**

فلئن عفوت لأعفون جلاً * ولئن سطوت لأوهنن عظمي^(٤)**

(١) أيام العرب في الجاهلية، تأليف محمد أحمد جاد المولى علي حمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول، ص ١٤٥.

منفذ: أبو البسوس. غلالاً: فحل إيل كليب. سمى العرب هذه الأبيات بالموثبات لأن البسوس لما أنشدتها أوغرت الصدور.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، دار صادر بيروت بدون ص ٨.

(٣) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ٦١. أولاد الضباب: أولاد معاوية بن كلاب، الصريمة: مجموعة الإبل.

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي شرح العلامة التبريزي، علق عليه وراجعته محمد عبدالمنعم خفاجي الطبعة الثانية ١٩٥٥ م مطبعة محمد علي صبيح ج ١، ص ١٠٠.

فقد عاش العرب في العصر الجاهلي حياة دامية قطعت أرحامها دماء القبائل التي سالت على سيوف أبنائها ورماحهم في وقائع لا تكاد تنتهي حتى تبدأ لأن صيحات النأر بعد كل معركة كانت وما تزال تلاحق أصحابها^(١). وهناك العديد من القصائد التي قيلت في إثارة القوم للأخذ بالنأر وتحتوي على الشعور بالحسرة على الفقد والثورة والتصميم على النأر كقول المهلهل في بكائه على قبر أخيه كليب:

أتعدو يا كليب معي إذا ما *** جبان القوم أنجاه الفرار
 أتعدو يا كليب معي إذا ما *** حلق القوم يشحذها الشفار
 أقول لتغلب والعدّ فيها *** أثيروها لذكم انتصار
 خذوا العهد الأكيد على عمري *** بتركي كل ما حوت الديار
 وهجري الغانيات وشرب كأس *** ولبسي جبّة لا تستعار
 ولست بخالع درعي وسيفي *** إلى أن يخلع الليل النهار
 وإلا أن تبيد سراة بكرٍ *** فلا يبقى لها أبداً آثار^(٢)

وقد نارت هذه العادة في الصحراء نسبة لعدم وجود حكم أو قواعد منظمة لحياة الناس فالقبيلة والعشيرة هي التي تقدر شؤونها وكلما يراق لها من حرب أو سلم ولذا كان انفرات عقد النظم في كثير من الأحيان وحتى أفراد القبيلة جهم لا يربطهم ارتباط نظمي في كلمة القبيلة ولذا أتى النأر في تلك المناطق الفسيحة، فهو أحد إفرارات الصحراء وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفهم العام للحياة واصبحت جزءاً من ثقافة تلك البيئة وأثر تأثيراً سالباً على الحياة ولكنه أتى بنتاج أدبي أصبح جزءاً من فهم وطبيعة تلك البيئة "فالشجاعة عندهم فخر ويمدح بعضهم بعضاً بموتهم في القتال ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه مات فلان حتف أنفه"^(٣).

يعزز ذلك الحارث بن حلزة في دعوته للنأر بقوله:

(١) دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٩٧.

(٢) أيام العرب في الجاهلية، الجاوي، ص ١٥٢.

الشفار: جمع شفرة وهي السكين أو النصل. أنجاه الفرار: أي في الحرب.

(٣) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، للأوسى، الجزء الأول، ص ١٠٤.

إن نبشتم ما بين ملحّة فالصا *** قب فيه الأموات والأحياء^(١)

يقول: إن نبشتم بين هذين الموضعين وجدتم أن قتلاكم أموات لأنه لم يثار لهم،
وقتلنا أحياء لأننا ثأرنا لهم.

(١) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٢٧. ملحّة والصاقب: موضعان.

صورة الموت والفناء في شعرهم:

امتدت الصحراء في مساحة مترامية الأطراف والعيش فيها يحتاج إلى مشقة في الرزق والحصول على الماء والكأ أو مقابلة بعضهم بعضاً في المناسبات الاجتماعية المختلفة إضافة لبعض العادات السائدة كالثأر أو الحروب التي تنشأ بين القبائل المختلفة أو تلك الحيوانات المتوحشة التي تعيش في تلك البيئة خلقت نوعاً من التوتر وعدم الارتياح النفسي الذي أصبح عادة وسلوكاً نفسياً انطبع في مخيلة ونفس البدوي وبذا أثرت هذه العوامل والعناصر في الحياة عامة وفي الألفاظ والمعاني والصفات والعادات والتقاليد والأخلاق وفي النظرة العامة للحياة التي تتسم بالجدية في كثير منها ووضوح الرؤيا والشفافية والصدق، وعدم المبالغة والنظر لكل ما هو موجود بمنظار مباشر يطبع الصورة ويصبغها بصبغة القوة والخشونة (ولذلك نجد أن بعض صور الحياة والموت مأخوذة مباشرة من الطبيعة والواقع كتصور الدهر رامياً بصيد الإنسان)(١) .

فلو تنقلت في كل أغراض الشعر العربي القديم من غزل إلى وصف إلى فخر وغيره أو تصوير المثل الأخلاقية فستجد صورة واحدة تقابلك هي صورة الصراع بين الحياة والموت، فقد كانت هناك جملة عوامل ذكرناها آنفاً فكانت مجابهة الحياة ومكابقتها والعمل على استنفاد كل طاقة من أجل البقاء، فلو تأملنا مقطع مقدمة معلقة لبيد لكانت مثلاً لما ذكر يقول:

عفت الديار محلها فمقامها * بنى تابد غولها فرجامها**

فمدافع الريان عرى رسمها * خلقاً كما ضمن الوحي سلامها(٢)**

وكان لأثر الحروب التي تنشأ بين القبائل وتتشب لأتفه الأسباب وأصغرها ويموت ويفنى فيها عدد غير قليل من الناس ترك أثراً لعدم تقديسهم للحياة ونظرتهم للموت والحياة بمنظار متقارب فانتقل هذا الشعور إلى أشعارهم على وجه الخصوص

(١) الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى عبداللطيف منشورات وزارة الإعلام ١٩٧٧م ص ٢٥٤.
(٢) ديوان لبيد، ص ١٦٣، عفت: درست، تأبد: توحش المحل حيث يحل القوم المقام حيث طال مكثهم فيه، الغول والرجام: جبلان، المدافع: مجاري الماء، الريان: وادي.

فتناولوه مسلمين به رغم عدم وجود دين أو شرعة توضح مسار الحياة لهم ولأخراهم.

فقد ارتبطت هذه التأثيرات ارتباطاً وثيقاً بالبيئة فالحياة عندهم سعي وكد ورحلة لتأمين رزقهم في حياة كريمة محافظاً على كل الخصال والأخلاق الحميدة، فإذا أتى فصل الخريف اخضرت الأرض وكثر الرزق فيمسح الطبيعة والحياة بلمسة جمالية تخفف من هجير الصيف وقرص الشتاء لتنعم الحياة وترحل العشائر والفرقان، فالصيف الحار والشتاء القارص، يزيدان من صعوبة الحياة ومعاناتها، ولذلك ارتبط الوجدان عندهم بالقسوة ومكابدة الصعاب والخشونة في الأكل ومعاناة في الشراب، فالبادية أدت لنوع من الشعور الجاد لتأمين الحياة ولذا ارتبط الفناء والموت عندهم كما ورد في كثير من أشعارهم بالحركة، فالبدوي يؤمن بالموت فيرى الأطلال والرسم الدارس والطفل البالي والحيوان المفترس الذي يكابد الإنسان معه الحياة، فالذئب معه في حله وترحاله، والصدام في أماكن العيش والماء لذا ارتبطت الذهنية عندهم بالحركة والحرب كروافد، والثأر صراع وحركة، والحيوان المفترس في الحل والترحال، والصعاليك يجوبون الصحراء بحثاً عن الرزق، ولذا نجد الحركة الدائبة في اتقاء تلك المصائب ومجابهتها. يقول زهير عن الموت آت ولو ارتقى الإنسان إلى السماء بسلم في قوله:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *** ولو نال أسباب السماء بسلم^(١)

ويذكر كعب بن سعد الغنوي أن ترحاله لا يعجل بوفاته ولا مكوثه يقول:

ألم تعلمي ألا يراعي منيتي *** قعودي ولا يدني الوفاة برحيلي

مع القدر الموقوف حتى يصيبني *** حمامي لو أن النفس غير عجول^(٢)

ويعلم عمرو بن كلثوم أن المنايا تدرکه مهما كان يقول:

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٥٠.

(٢) مجموع أشعار العرب، د. عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق وليام بن الورد، بيروت، دار الأوقاف،

١٩٨١م، ص ٦٠٥.

وإنا سوف تدركنا المنايا *** مقدره لنا ومقدرينا^(١)

وأن عنتره بن شداد ذلك الشاعر الفارس الذي عاش حياته في صراع مع الحياة والموت وأن المنية تأتيه مهما أسرع وارتحل يقول:

وعرفت أن منيتي إن تأتي *** لا ينجني منها الفرار الأسرع

فصبرت عارفة لذلك حرة *** ترسو إذا نفس الجبان تطلع^(٢)

والفكر الجاهلي جعل الموت شبحاً أمام عينيه لا مفر منه يطارده أينما قطن ويوضح الحارث بن حلزة اليشكري في معلقته العلاقة بين الحياة والأمنية في قوله:

إذ تمنونهم غروراً فساقت *** هم إليكم أمنية أشراء^(٣)

ويقول عروة بن الورد شاعر الصحراء يخاطب زوجه بنت منذر ذاكراً أنه لا يعيش إلا لحظته الآتية قائلاً أن الموت لا يتأخر:

فإن فاز سهم للمنية لم أكن *** جزوعاً وهل عن ذاك متأخر^(٤)

يرى زهير بن أبي سلمى أن المنايا تتحرك بدون تحديد.

يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب *** تمته ومن تخطى يعمر فيهرم^(٥)

ويقول عنتره بن شداد في قصيدة أيضاً حول هذا المعنى:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني *** أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل *** لا بد أن أسقى بكأس المنهل^(٦)

(١) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٨٧.

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ٨٥. عارقه: يريد نفسه، ترسو: أي تثبت ولا تتطلع إلى الفرار.

(٣) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٤٩. أشراً: بطراً، والأشتر: البطر لا يستعملان إلا في الشر، فهو يذكرهم

بلقائهم لهم بطراً فساقنتهم إليكم أمنيتهم التي يريدون وسوف يجدونها غداً

(٤) ديوان عروة بن الورد، ص ٣٦.

(٥) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٩.

ويقول طرفة بن العبد أن الموت آتٍ لا يخطئ أحداً.

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة *** وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما اخطأ الفتى *** لكاطول المرخي وثنياه باليد^(٢)

(وقد اعتاد البدوي منذ صغره على مشاهد الحياة المملأى بالأخطار فيعوده أبوه على ذلك عندما يحين دوره)^(٣).

وبذا تولدت هذه اللمسة الحزينة في ذلك الجو المفعم بكثير من المؤثرات النفسية التي أصبغت هذه الصيغة الحزينة التي أتت أطرافها متناثرة في قصائدهم. (ونجد هناك وأد البنات في فترة من فترات ذلك العصر خوفاً من العار أو خوفاً من الفقر كما حكى لنا القرآن الكريم إلى أن جاء الإسلام ورفع العرب عن وهدتهم)^(٣). قال تعالى: (وإذا الموعودة سئلت بأي ذنب قتلت)^(٤) وكان في ذلك الوقت أن تدفن الفتاة حية وقد اقترن ذلك بفلسفة اجتماعية معينة ولم يرد في أشعارهم بصورة واضحة .

وهكذا أوردت هذه المؤثرات من خلال أشعارهم تحمل هذه المعاني للأسباب التي ذكرناها، وكان لها دورها في بناء قصائد تعبر عن شعور أولئك الشعراء ويعكس كل ذلك.

(٦) ديوان عنتر بن شداد، ص ٩٩.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٩.

(٣) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. ريجيس بلاشير، ص ٣٧.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب طبعة ١٩٩٦م دار الشروق القاهرة ج٦، ص ٣٨٣.

(٤) سورة التكوير الآيتان (٨ - ٩) .

الفصل الثالث

أسواق العرب في الصحراء ودورها الأدبي

أسواق العرب في الصحراء ودورها الأدبي

كان العرب في العصر الجاهلي يقيمون أسواقاً عامة ومتفرقة في أرجاء الصحراء للتجارة ومبادلة المنافع والأخبار ومناشدة أشعارهم والأدب على وجه العموم وغيرها من شؤون حياتهم، فهي منتدى يجتمع فيه من أرجاء الصحراء ومحفل أدبي تجاري واسع ومجمع فيه لمختلف القبائل والبطون ومن أشهر هذه الأسواق، سوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق ذي المجاز، وسوق دومة الجندل، وسوق مكة، وغيرها من الأسواق التي حملت أخبارها كتب الأدب. (وأن هذه الأسواق موسمية وكانت ذات أثر كبير في حياتهم الاقتصادية ولم تكن تقتصر على العرب بل كان يؤمها بعض الروم والفرس)^(١).

وكانت هذه الأسواق متوزعة في الصحراء وميداناً فسيحاً لتبادل الآراء والأفكار واستعراض القصائد الشعرية والمفاخرات ومعرضاً لإذاعة مفاخر القبيلة والمباهاة بالفصاحة (وفيها أُلقيت أشهر القصائد كما ورد في أخبار العرب فأنشد عمر بن كلثوم معلقته وقصة الأعشى التي أنشد فيها قصيدته في مدح المعلق)^(٢)(٣). وكما حملت كتب التراث أن الشاعر النابغة الذبياني كان حكماً للشعراء بسوق عكاظ وكانت تضرب له قبة فيدعوهم فيتنادوا لهذا المكان فيأتي دور الشعراء في تجويد أشعارهم وتتقيحها فتأتي أعذب القصائد وأجودها وكانت سبباً في تقريب لهجات العرب إلى بعضها البعض فيجتمع العرب من شتى أنحاء الصحراء بكل لهجاتهم، وأدى ذلك للتلاقي والتفاهم اللغوي ووحد أفكارهم وأشعارهم وأذواقهم.

يقول صاحب الأغاني: أخبرني حبيب بن نصر قال حدثنا عمر بن شيبه كان يضرب للنابغة فيه آدم في سوق عكاظ فيأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارهم قال: وأول من أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم الخنساء بنت عمرو قولها:

(١) في الأدب العربي القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ، الدكتور محمد صالح الشنقيطي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ، ج١ ص ٤١.

(٢) المعلق هو: المعلق بن حنتم بن شداد الكلابي العامري كريم جاهلي من نسله أم الهيثم الكلابية كانت راوية أهل البصرة - أنظر الأعلام ج٥ ص ٢٩١.

(٣) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، تأليف عبدالله عبدالجبار - محمد عبدالمنعم خفاجي ص ١٧٥.

وإنَّ صخراً تتأتم الهداة به *** كأنه علم في رأسه نار

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس فقام حسان ابن ثابت فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة: يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي *** وإن خلت إن المنتأى عنك واسع^(١)

والصحراء ذلك الفناء الواسع الذي هام فيها عدد من الشعراء الذين نقلت أخبارهم كتب التراث إذ لم يقتصر دورهم في الأسواق بل هاموا في الصحراء فنقلت أخبارهم ومجنون ليلي أنموذج لهؤلاء رغم أنه في وقت متأخر وتشكيك بعض الباحثين في أشعاره إلا أنه مدون وذو رصانة بالغة يقرأه الناس. يقول مجنون ليلي^(٢) معبراً عن تلك الطبيعة ومناشداً محبوبته بمبادلتها ذلك الغرام يقول:

يميل بي الهوى في أرض ليلي *** فأشكوها غرامي والتهابي

وأمطر في التراب سحاب جفني *** وقلبي في هموم واكتئاب^(٣)

ونلاحظ كيف أنه يخاطب مفردات الصحراء كالنسيم والريح وهذا دلالة على تعمق الصحراء في نفوسهم كقوله:

ألا يا نسيم الريح حكمك جائرٌ *** على إذا أرضيتني ورضيتُ

ألا يا نسيم الريح لو أن واحداً *** من الناس يُبليه الهوى لبليت^(٤)

والأسواق إضافة لدورها الأدبي فهي مكاناً للمفاخرات وتلقي الأخبار، "قابل زرعة بن عمرو النابغة الذبياني بسوق عكاظ فأشار عليه أن يشير على قومه بترك حلف

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء العشرون، ص ٣٢١.

(٢) مجنون ليلي: هو قيس بن الملوح بن مزاحم العامري شاعر غزل من المتيمنين من أهل نجد لم يكن مجنوناً وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلي، جمع بعض شعره في ديوان توفي سنة ٦٨ هـ — أنظر الأعلام للزركلي ج ٥ ص ٢٠٨.

(٣) ديوان مجنون ليلي، تقديم وشرح وتعليق د. محمد محمود، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٨.

بني أسد فرد عليه النابغة بقصيدة أبي الغدر فيها وبلغه أن زرعة يتوعده كما جاء في مناسبة الأبيات في شرح ديوانه فقال النابغة في ذلك شعراً منه:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها *** يهدي إليّ أوبد الأشعار
فحلفت يا زرع بن عمرو أنني *** مما يشق على العدو ضراري
أعلمت يوم عكاظ إذ جاريتني *** تحت العجاج فما خططت غباري
إنا اقتسمنا خطيتنا بيننا *** فحملت بّره واحتملت فجار^(١)

وقد أحوجت الأسواق العرب إلى ضبط المواقيت ومطالعة الأنواء حتى لا تقع مواسمها في ظروف مناخية صعبة.

"فنهل العرب من علم الأنواء حتى عرفوا به كما احتاج عُراف الأسواق وسدنتها إلى تطوير معارفهم في التواريخ والأنساب وتفسير الرؤيا"^(٢).

وكانت لهذه الأسواق التي يؤمها عدد من الشعراء والأدباء وعامة الناس من أرجاء الصحراء أعراف وقوانين وعادات يعيشها الأعراب فيما بينهم في إنشاد الشعر وهيئة الشاعر، فهذه متعارفة بينهم وكان للشعراء أفانين في اجتذاب أفئدة الناس، (فالأعشى يرتدي ملابس خاصة للإنشاد ويقرأ الشعر بطريقة توهم السامع أن هناك آلة وترية تصاحب قراءته، وحسان بن ثابت يرتدي أوفر ملابس ويخضب لحيته بالحناء بحيث يبدو كهيئة الأسد الوالغ في دم فريسته وكان الشاعر ينشد شعره قائماً فوق نشذ من الأرض)^(٣).

فهذه الأسواق إحدى مؤثرات الصحراء الاجتماعية وكان لها دور فاعل في ميلاد وتجويد وانتشار الشعر في ربوع الصحراء ولذلك ظهرت قيمتها الاجتماعية والأدبية والثقافية والتاريخية في معرفة وتواصل القبائل والعشائر مع بعضها البعض في سبيل خلق نوع من الوحدة اللغوية والاجتماعية والنفسية والجغرافية إذ لا سبيل لوسائل أخرى تعين على خلق هذه المعطيات في اجتماع هذه المجموعات العربية

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٩٧-٩٨.

(٢) الخطاب الإبداعى الجاهلي والصورة الفنية، تأليف د. عبد الإله الصائغ، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، المركز الثقافى العربى، ص ١٥١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٢.

في زمان ومكان واحد ولأهداف متعددة تكاملت مع بعضها وأدت دورها المنوط بها.

"فهذه الأسواق محرمة حرمة الأشهر الحرم والعربي يأتيها آمناً إذ لا يجوز القتال فيها وتقام فيها مواسم الشعر حتى يعتاد الناس موافاتها، فقد كان وجود الشعراء في الأسواق من أكبر الحوافز لتدافع الناس إليها وفيها سوانح لتأدية طقوس العبادة وممارسة الإعلام البدائي لامتحاح ملك أو أمير أو قبيلة أو شاعر وفيه كثير من البيوع"^(١).

وبذلك تميزت هذه الأمة العربية بصفات قلما توجد بهذا التكامل في الأمم والشعوب الأخرى والتي لم تتغير كثيراً لا بفعل الزمان أو المكان وكان للصحراء أثرها في إصباغ هذه القيم والصفات "وذلك للقيم الإيجابية المرتبطة بتكوينه العقلي والمذهبي ولم تتولد بفعل إشباع حاجات فسيولوجية مباشرة ولكن من خلال معاشته للواقع جعلته يحس بأهميتها الحيوية له لكونه إنساناً ينشد التواءم مع بيئته"^(٢).

(١) الخطاب الإبداعى الجاهلي والصورة الفنية، تأليف د. عبد الإله الصائغ، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) قصيدة المديح في الأندلس. د. أشرف محمود نجا، ص ١٧.

الفخر في الصحراء:

جُبِلَ البدوي على حب الصفات والعادات النبيلة المستمدة من وحي حياة البادية الصحراوية فهي التي مثلتهم وشكلت طباعهم وألهبت فيهم جذوة البطولة والقوة وقيم الشهامة والمروءة والكرم، ولذلك نجد الشاعر يفخر ليلبس هذه القيم والفضائل نفسه وقبيلته والحماسة تدخل في الفخر وقد وردت في كثير من أشعار الجاهليين فعندها يقول طرفة بن العبد:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه *** خشاس كراس الحية المتوقد^(١)

فهو يفخر بنفسه ولكن تتداح هذه المعاني والصفات على عشيرته وقبيلته فيأخذه الزهو بالقوة والشدة يقول:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أني *** عنيتُ فلم أكسل ولم أتبلد^(٢)

يقول إذا قالوا من فتى لهذه المفازة خلت أنهم يعنوني ويقولون ليس لها غيره فلم أكسل عن أن أقول أنا لها، وأنصب الفخر معظمة في وصف الشجاعة والقوة للفرد والقبيلة. يقول عنتره يخاطب محبوبته عبلة:

يا عبل لو أن المنية صورت *** لغدا إلى سجودها وركوعها^(٣)

ويقول عنتره أيضاً:

وما الفخر في جمع الجيوش وإنما *** فخار الفتى تفريق جمع العساكر^(٤)

وكقوله :

إن المنية لو تمثل مثلت *** مثلي إذا نزلوا بطنك المنزل^(٥)

ويقول أيضاً في فخره:

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٩. الضرب: الخفيف - الخشاش: الرجل الذي ينخش في الأمور ذكاء ومضاء.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٣) ديوان عنتره، ص ٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٨.

(٥) ديوان عنتره، ص ٩٩.

أثنى علىّ بما علمت فإنني *** سهلٌ مخالفتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل *** مر مذاقته كطعم العلقم^(١)

ويعد الفخر من أبرز موضوعات الشعر الجاهلي وذلك راجع إلى طبيعة الحياة البدوية في ذلك العصر فالحياة تستلزم شجاعة وقوة فائقة فالفارس الشجاع هو الذي يحمي القبيلة والعشيرة ويحمي مالها وديارها ويصون عرضها.

وافتخر البدوي بنفسه وقبيلته وعشيرته والفضائل والصفات الجليلة والعادات والأفعال النبيلة فالشجاعة والقوة والشدة والكرم سنامها فأنت الخمر أحد روافد الكرم لديهم فالصحراء ألهمت فيهم هذه العواطف والمعاني فالقبيلة أحد مكونات الصحراء وأبرز معاني الحماية والدفاع عن النفس في ذاك المجتمع الصحراوي .

يقول عمرو بن كلثوم يفتخر بقبيلته بني تغلب في الخلاف الذي حدث بينهم وقبيلة بني بكر حيث أظهر فيه التعالي والكبرياء أمام الملك عمرو بن هند يقول:

نطاعن ما تراخي الناس عنا *** ونضرب بالسيف إذا غشنا
بسمرٍ من قنا الخطى لدن *** ذوابل أو ببيض يعتلينا
نزلتم منزل الأضياف منا *** فأعجنا القرى أن تشتمونا
قريناكم فأعجنا قراكم *** قبيل الصبح مرداة طحونا^(٢)

ويكون الفخر بالرئاسة والمجد الحربي كقول طرفة في ذلك:

ولست بحلال التلاع مخافة *** ولكن متى يسترقد القوم أرقد
وإن تبغني في حلقة القوم تلقني *** وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد^(٣)

وقد يكون الفخر بالبطولة والإيقاع بالأعداء. يقول المنخل الإشكري يفتخر بقومه ويصفهم بأنهم رجال حرب ملازمين لخيولهم لابسين دروعهم ومكتملي العتاد الحربي مغيرين على غيرهم يقول:

(١) المصدر السابق، ص ١٢٢. باسل: كرية، العلقم: الحنظل.

(٢) شرح القصائد العشرة التبريزي، ص ١٦٩.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٩.

وفوارس كأوار حر *** النار أجلس الذكور
شدوا دوابر بيضهم *** في كل محكمة القتير
واسـتألموا وتلببوا *** إن التلبب للمغير^(١)

وكانت العرب تهتم بالأنساب والفخر بهم بإعتبار أن ذلك عنصر من عناصر القوة والتفوق.

وإذا كان الفخر بالنفس والقبيلة والكرم أيضاً افتخروا ببعض العادات الاجتماعية كالخمر مثلاً لإهلاك مالهم فيها ويعتبرونه أحد روافد الكرم وذلك لما كان عندهم من مكانة (وعهد الإنسان بالخمرة عهد العنب بالاختمار عهد قدم الغريزة منه لا فرق في تعاطيها بين رفيع ووضيع، أما الناس من حيث هم مجتمع فإنهم من الخمرة فنتان واحدة تراها سبلاً إلى الخبل والخضوع والضعف والخلاعة وأخرى يعتبرها أداة لإرهاق الحسي ومنجاة من الهموم على أن الشعراء جعلوها مهبطاً لإلهامهم وسلماً لإبداعهم والخمرة عند العرب كانت لدواعي الفخر والفتوة)^(٢).

يقول طرفة بن العبد في ذكر الخمر وهو لا يبالي في ذكرها وشربها رغم أنها أفنت ماله كله وهو غير آبه لذلك لأن الفقراء لا ينكرون إغداقه عليهم ويعتبره فخراً له يقول :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي *** وبيعي وإنفاقي طريقي ومتلدي
إلى أن تحامنتي العشيرة كلها *** وأفردت أفراد البعير المعبد
رأيت بني غبراء لا ينكرونني *** ولا أهل هناك الطرف الممدد^(٣)

أما امرؤ القيس يقول انه ودع الصبا إلا أربع لذات الخمر أو لهن:

وأصبحت ودعت الصبا غير أنني *** أراقب خلات من العيش أربعا

(١) شعراء النصرانية قبل الإسلام، الأب لويس شيخو، ص ٤٢٢. الأوار : الوهج أي هم في التهاجم وتنظيم إذا لقاوا ولقاوا ، أجلس الذكور : فرسان الخيل - يقال شدوا دوابر بيضهم إلى الدروع مخافة أن تسقط إذا جروا الخيل، القتير: مسامير الدروع، استألموا: أي لبسوا اللامات وهي الدروع، تلببوا: أي تحزموا لأن التلبب من شأن المغير.

(٢) شعر اللهو والخمر تاريخه، أعلامه، جورج، غريب، دار النعمة، بيروت، لبنان، ص ٦.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص ٤٠.

فمنهن قولي للندامي ترفقوا *** بداجون نشاجاً من الخمر مترعا^(١)

فاستعذبوها وأحبوها حتى شيهوا بها ريق محبوباتهم لعذوبتها. يقول عبيد الأبرص:

إذا نقت فاها قلت طعم مدامة *** مشعشة ترخي الإزار قديح

بماء سحاب في أباريق فضة *** لها ثمن في البائعين ربيع^(٢)

وتحدثوا عنها كثيراً في أشعارهم وذكورا الكؤوس والسقاة والغيان والندامي والقده، والصحن، وشربوها أيضاً في أباريق من فضة وكانت لها عادات وطقوس صوروها في أشعارهم وعمرو بن كلثوم في افتتاحية معلقته يصور طقوسها وحلبتها وسقياها من اليمين إلى الشمال ويجلسون في جماعات وهي عادة أهل البادية فهي أنواع وأشكال. يقول عمرو بن كلثوم في افتتاحية معلقته:

ألا هبي بصحيك فأصبحينا *** ولا تبقى خمور الأندرينا

مشعشة كأن الحص فيها *** إذا ما الماء خالطها سخينا

صبنت ألكاس عنا أم عمرو *** وكان الكأس مجراها اليميننا^(٣)

وقد ارتبطت بعادات وتقاليد ذلك المجتمع البدوي وهي فخرهم. يقول علقمة ابن عبدة واصفاً الخمر في فخره:

وقد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم *** والقوم تصرعهم صهباء خرطوم

كأس عزيز من الأعناب عتقها *** لبعض أحيائها حانية حوم^(٤)

وهي عندهم باعثة للجود والكرم وإتلاف المال. يقول عمرو بن كلثوم.

تري اللز الشحيح إذا أمرت *** عليه لماله فيها مهينا^(٥)

(١) ديوان امرئ القيس، ص ٩٩. أراقب خلات: انتظر خصال أربعا، الندامي: صحبة الشراب، ترفقوا: في

شرب الراح وفي حث الكأس، يداجون: يخادعون، نشاج مترع: زق مليء خمرًا.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٤٦. المشعشة: الممزوجة بالماء، القديح: المرق أو مايبقى في أسفل القدر،

يرخي الإزار: أي أن الذي يشربها يشعر بالكبرياء فيرخي إزاره.

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٤) المفضليات، المفضل الضبي، ص ١٢٠.

(٥) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٨٦. اللز: الضيق الصدر، الشحيح: البخيل، مهينا: يستخف بماله

أي يجود به.

ثم استهانوا بالحياة وذلك لكثرة حروبهم وتوقعهم الفجیعة في أنفسهم وأهلهم على ذات الحياة، يعلون منها وينهلون وهم يرون الموت يتخرم الأعمار ويزوي الآمال فلا بد من استمتاعهم بحياتهم القصيرة قبل موتهم وقد عبر طرفة بن العبد عن هذه النزعة خير تعبير في قوله:

وما زال تشرابي الخمر ولذتي *** وبيعي وإنفاقي طريقي ومتلدي
إلى أن يقول:

فإن كنت لا تستطع دفع منيتي *** فدعني أبادرها بما ملكت يدي
فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى *** وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة *** كميت متى ما تعل بالماء تزيد^(١)

وأما عنتره فقد افتخر بها بجانب صرف ماله فيها وأنه اشتراها وشربها في زجاجة صفراء مخططة ومعها إبريق أبيض مسدود الفوهة بالفدم "المصفاة" وهو بجانب ذلك حريص على عرضه ويكرم ضيفه على ذلك قائلاً:

ولقد شربت من المدامة بعدما *** ركد الهواجر بالمشوق المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة *** قرنت بأزهر في الشمال مفدم
فإذا شربت فإني مستهلك *** مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندى *** وكما علمت شمائي وتكرمي^(٢)

وكما ذكرنا سابقاً من تمكن عنصر القوة والقتال والشدة في كل موضوع من الموضوعات نجد أن عنتره رغم شرايه لها وافتخاره بها ولكن القتال والكر والفر أحب إليه من قرع الملاهي يقول :

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥١.

(٢) ديوان عنتره بن شداد ص ١٢٢-١٢٣ ركد الهواجر: حيث قام كل شيء على ظله، المشوق: الكأس وقيل البعير أي أنه اشترى خمرًا ببعيره . معلم: فيه علامة .

صباح الطعن في كر وفر *** ولا ساق يطوف بكأس خمر
أحب إلى من قرع الملاهي *** على كأس وإبريق وزهر^(٢)

بل وصفوها وصفاً دقيقاً ومكانها أيضاً وهذا يدل على مدى حبهم وتعلقهم بها يقول
الأعشى يصف الخمر:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني *** شاوٍ مثل شلول شلشل شول^(٣)

"إن أكثر الشعراء الذين وردت الخمر في أشعارهم الأعشى وأنت أكثر تفصيلاً حتى
لصقت به"^(٤).

ونلاحظ أن المجتمع الجاهلي تغلب عليه صورة الفروسية في تقاليده وعاداته
وأخلاقه والحياة بكل تفاصيلها، والفروسية في ذلك المجتمع البدوي تتطلب عدداً من
الصفات التي يجب توفرها فهي قيم يُعترز بها ومن هذه القيم الكرم والإنفاق وإتلاف
المال عن سعة.

فقد رفعت الحياة البدوية في الصحراء من هذه القيم لشدتها فالخمر أصبحت
مكاناً للإنفاق والتباهي في إتلافه ولذلك تداخل الخمر مع هذه العادات والقيم ولذلك
وصفوا لونها وشكلها وجلستها وكأسها وأماكن جودتها، ولذلك نجد طرفة مثلاً بذكر
الخمر في معرض حديثه عن الفخر بنفسه وبطولته كقوله:

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني *** وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد^(١)

ولذلك تناولها الشعراء ليس لأنها متعة حسية فحسب بل وصفوا ما بها من طقوس
في إتلاف المال وإنفاقه بجانب المغنيات اللاتي يطربن المكان "فقد كانت القيان من

(٢) المصدر السابق، ص ٧٣.

(٣) ديوان الأعشى، ص ١٤٧.

(٤) خمريات أبي نواس، دراسة تحليلية، أيمن محمد زكي العشماوي، دار المعرفة، الجامعية، ١٩٩٨م، ص
٢٤٠.

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٩.

الوفرة والشيوع في الحانات ودور اللهو العامة وفي مجالس الملوك والسادة والأشراف وفي مجالس الشعر خاصة^(١).

ولذا نجد الغناء والقيان والخمر عادات وتقاليد سادت في ذاك المجتمع وهي إحدى مؤثرات الصحراء فكان اللهو لملئ فراغ البدوي الذي لم تكن لهم أعمال تشغلهم وبساطة الحياة فتأتي هذه الأشياء تحت قبة الصحراء الزرقاء التي يهيم فيها البدوي متناسياً هموم حياته ومعاناته فيجتمع الأعراب يتسامرون ويلهون ويسطرون القصائد الحسان ويتنادمون على صوت المعازف والدفوف بل امتدت هذه العادات حتى بعد العصر الجاهلي وأخذت أشكالاً وتقاليد مختلفة وخاصة في العصر العباسي الذي تداخلت فيه اللغات والعادات والأجناس.

وعلى الرغم من كثرة هذه العادات في شعرهم إلا أننا نجد (أن العفة شرطاً من شروط السيادة والرياسة كالكرم والشجاعة فكانت العرب بطبعها تكره الخلاعة والمجون ولهذا كثر فخرهم بالعفة وتمدحوا بها)^(٢). يقول عنتره مدلاً على ذلك:

أغشى فتاة الحي عند حليلها *** وإذا غزت في الجيش لا أخشاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتني *** حتى يوارى جارتني مأواها
إني امرؤ سمح الخليفة ماجدٌ *** لا أتبع النفس اللجوج هواها^(٣)

ولهذا نجد أن هذه العادات كانت وليدة البيئة وأصبحت جزء من الحياة الاجتماعية فيها وهكذا توارثتها الناس عبر الحقب والعصور المختلفة.

وقد امتد تأثير الفخر من بعد العصر الجاهلي وأصبح سمة كل عربي يفخر بنفسه بعد أن دخلت كثير من الأمم في المجتمع العربي وافتخروا ببطولاتهم وشجاعتهم، بل أصبحت الصحراء مطية ودليلاً لمن يقطع فلواتها ويشق مجاهلها فهي باتساعها ووحشتها تكون دليلاً على الشجاعة والقوة والبطولة لمن يتجشم

(١) القيان والغناء في العصر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م، ص ١٧٦.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر عنتره، د. ناهد أحمد السيد، ١٩٩٦م، دار المعرفة الجامعية، ص ١٠٠.

(٣) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٥٣. أغشى فتاة الحي: أزورها.

مخاطر السفر فيها لوحده ولذلك نجد المتنبي في العصر العباسي يفخر بذلك في قوله:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني *** والضرب والطنن والقرطاس والقلم
صحت الفلوات الوحش منفرداً *** حتى تعجب مني القور والأكم^(١)

ولذلك نجد أن الفخر أحد سمات ومكونات الصحراء في الحياة الاجتماعية.

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، ج ٣ ص ٣٦٩.

الفصل الرابع
شعر الصعاليك

شعر الصعاليك

في معظم القصائد الجاهلية نجد أثراً ظاهراً من آثار الصحراء بل نجد هذا الأثر في العصور التي اقتفت الشعر الجاهلي في ألفاظه ومعانيه وصوره وشعر الصعاليك وجد وترعرع في هذه البيئة. (الصعلكة أحد مظاهر الحياة الاجتماعية في الصحراء، والصعلكة هي الفقر، والصعاليك هم الفقراء، وتصعلك الرجل إذا افتقر)^(١).

فالصعلكة تعني الفقر فهي أثر من آثار الصحراء وترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك البيئة وقلة الرزق حتى أصبحت ظاهرة في المجتمع الصحراوي إذ اشتهر منهم أفراد فقراء ولكنهم شجعان أقوياء ذوو حس مرهف وإدراك لما بينهم وبين الأغنياء من فوارق فآلمهم خلو أيديهم من المال وعجزهم عن مجابهة متطلبات الحياة فثاروا على النظام الاجتماعي الثأر من الأغنياء الأشحاء في مجتمع بدوي ينتقل في أرجاء الصحراء وحكمه القبيلة ومنطقه القوة وأشهرهم الشاعر الشنفرى، وعروة بن الورد، وتأبط شراً فعاشوا في جماعات كقطاع للطرق فيغيرون ويغنمون ويأوون إلى شعاب الجبال والكهوف والوديان... فانتظموا وتوحدوا بالارتزاق عن طريق الغارات في الصحراء بحثاً عن الفرصة المواتية فكانت لهم أشعار ويعتزون بأنفسهم ومقدرتهم في التغني بصفات مجتمعهم الجديد فآنسوا وحشة الصحراء ووعورة طرقها: قال تأبط شراً يمدح أخواناً له في النضال:

جزى الله فتياناً على العوض أمطرت *** سماؤهم تحت العجاجة بالدم^(٢)

وامتازوا بمعرفتهم لمجاهل الصحراء وطرقها ورويت عنهم كثير من القصص فامتازوا بالشجاعة، ومغامرات الحياة لتحقيق غرض شريف في نظرهم وهو كفكفة دموع البائسين والفقراء ولا مهابة للموت عندهم وذلك من خلال أشعارهم القوية

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة صعلك، ص ٢٠.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء ٢١، ص ١٤٢.

التي أخذت منحى القوة والبطولة والفخر بأفعالهم أقوالهم". يقول عروة ابن الورد لزوجته في إحدى قصائده:

أقلي عليّ اللوم يا ابنة منذر *** ونامي وإن لم تشتهي النوم فاسهري
ذريني ونفسي أم حسان إنني *** بها قبل أن لا أملك البيع مشتري
أحاديث تبقى والفتى غير خالد *** إذا هو أمسى هامة فوق صير
ذريني أطوف في البلاد لعنني *** أهلك أو أغنيك عن سوء محضري
فإن فاز سهم للمنية لم أكن *** جزوعاً وهل عن ذلك متأخر
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد *** لكم خلف أديار البيوت ومنظر^(١)

هذه الحياة التي اتسمت بعدم الطمأنينة والسكينة اقتضت منهم أن يكونوا على حذر دائم لا ينامون إلا غراراً ليحموا أنفسهم وليسمعوا سير القوافل لعلمهم أن يباغثوها فينالوا منها ما يريدون. قال عمرو بن بركة:

وكيف ينام الليل من جل ماله *** حسام كلون الملح أبيض صارم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم *** قليل إذا نام الخلى المسالم^(٢)

ولعل أول ما يطالعنا في شعر الصعاليك فقرهم وصيحات الجوع والشقاء التي رددوها في أشعارهم فالجوع حليف ملازم لهم، وقد كانوا يهربون منه ولكنهم لم يفلتوا منه ولذلك كان تجوالهم المستمر.

وفي شعر عروة بن الورد أن الجوع كان ينزل به حتى يكاد يهلكه^(٣). فيصف الشنفرى هذا الموقف أيضاً فيفضل أن يسف التراب على أن يكون لإنسان نعمة عليه ولا أن يعيش رغد لكنه أبى ألا يرضى المذلة في قوله:

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ٣٥.

(٢) الأمالي، تأليف أبي علي إسماعيل القاسم الغالي البغدادي، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٢م، ج ٢ ص ١٢٢.

(٣) ديوان الشنفرى، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ١٠.

أديم مطال الجوع حتى أميته *** وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له *** على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب *** يعاش به إلا لذيٍّ ومأكل
ولكن نفساً مرةً لا تقيم بي *** على الذأم إلا ريثماً أتحول^(١)

فهم يسوحن في الصحراء فلا يجدون بدأً من غاراتهم على أموال الأغنياء البخلاء بل اعتقدوا أنهم على الحق فيما يفعلون لأنهم يكفلون لأنفسهم وللضعفاء من أخوانهم، بل يأنفون حتى الصعاليك الذين يقنعون ولا يتحركون للنيل ويجلسون لتلقي عطايا الناس فيملأون بطونهم وينامون، فامتدح الصعاليك المغامرين فإن قتل كان مذكوراً بالشجاعة وابن غنم كان جديراً بها. قال عروة بن الورد في ذلك:

لحي الله صعوكاً إذا جن ليله *** مصافي المشاش ألفاً كل مجزر
يعد الغنى من نفسه كل ليلة *** أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً *** يحث الحصى عن جنبه المتعفر
فذلك إن يلق المنية يلقها *** حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر^(٢)

والشاعر الشنفرى يستغنى عن الناس بثلاثة أشياء هي قلب شجاع وسيف صيقل وقوس متينة بقوله:

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع *** وأبيض أصليت وصفراء عيطل^(٣)

ومن خلال أشعارهم ترى أنهم دعاة إلى نوع من الاشتراكية للعمل بالقوة يؤثرون الموت على حياة الحرمان وهذا بالطبع سمة من سمات الصحراء تأثيرها وتأثرها في الحياة العامة ولذلك أفرزت لنا هذا الأدب، فالصحراء أتت واضحة في أشعارهم وأن نزوعهم أصبح سمة في عدة مظاهر في حركتهم وحياتهم الأدبية وسلوكهم اليومي، "يقال خرج السليك مع صديقين له فمروا على حي بني شيبان فقال

(١) لامية الشنفرى، ص ٩-١٠. المطال: امتداد المدة، ضربت عن الذكر صفحاً: إذا عارضت عنه وتركته، الصفح: العراض، الذأم: الباطل.

(٢) ديوان عروة بن الورد، ص ٣٧. مصافي المشاش: مختار - المجزر: الموضع الذي يجزر فيه الإبل.

(٣) ديوان الشنفرى، ص ١٣.

السليك^(١) لصاحبيه كونا في مكانكما حتى آتيكما بطعام ثم انطلق فغافل شيخاً يرمى إبله فضربه فأطار رأسه وصاح بالإبل فطردها وقال في ذلك:

وعاشية راحت بطاناً ذعرتها *** بسوط قتيل وسطها يتسيف
كأن عليه لون بُرد محبّر *** إذا ما أتاه صارم يتلهف^(٢)

وقد أصبغت عليهم الصحراء بسعتها بعض الصفات منها العدو وقد اشتهر تأبط شراً بالعدو يقول:

لا شئ أسرع مني ليس ذا غدرٍ *** وذا جناح بجانب الريد خفاق^(٣)

يقول ليس هناك أسرع مني ولو كان جواداً سريعاً وطيراً يخفق بجناحيه عند قمة الجبل. وكما ذكرت كان هدفهم النهب والسلب والفرار بقول عروة مخاطباً زوجته:
دعيني للغنى أسعى فإني *** رأيت الناس شرهم الفقير^(٤)

ويقول:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً *** من المال يطرح نفسه كل مطرح^(٥)

يقول نخرج فنطلب فإن أصبنا فذلك الذي نريد وكنا نطلب وإن رجعنا مخفقين لم نعد عن الطلب ، ويرون الموت خيراً لهم من الفقر الذي هم فيه ووصف حالته فقال عروة:

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يُرح *** عليه ولم تعطف عليه أقاربه

(١) السليك هو السليك بن عمر بن سنان السعدي التميمي والسلكه أمه فائك عدا شاعر من شياطين الجاهلية يلقب بالرئبال قتله أسد بن مدركة الخثعمي نحو ١٧ قبل الهجرة - أنظر الأعلام للزركلي ج ٣ ص ١١٥.

(٢) ديوان السليك بن السلكة، إعداد وتقديم طلال بن حرب، دار صادر، للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ٩٣. عاشية: من الجمال التي تعشت، راحت: ذهبت عشاء، بطاناً: ممثلة البطن، ذعرتها: خوفتها، بسيف: بضربها بالسيف، بُرد: البرد ثوب مخطط يلتحف به محبر، مزين - صارم: السيف القاطع.

(٣) ديوان تأبط شراً، إعداد وتقديم طلال حرب، ص ٤٧. الغدر: هو شعر الرأس الذي يتدلى على جانبي الوجه، الريد: قمة الجبل.

(٤) ديوان عروة بن الورد، ص ٤٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣. مقتراً: مقل.

فلموت خير للفتى من حياته * فقيراً ومن مولى تدب عقاربه^(١)**

فالصعلكة من أسبابها إضافة للفقر وكسب الرزق والتباهي بالشجاعة والإقدام أيضاً كان للفوارق الاجتماعية بين القبائل أحد أسبابها والقيام بهذه الأفعال، فعروة ابن الورد يعير لأمه اليمانية الغربية يقول:

هم عيروني أن أمي غريبة * وهل في كريم ماجدٍ ما يعير؟!^(٢)**

فيحاربون في الصحراء بسلاح متعدد ويعتزون به اعتزازاً لا حد له كيف لا وسلاحهم رفيقهم في غاراتهم في تلك الفيافي التي تنشط فيها الحيوانات من صنوف شتى، وإذا كان العربي يعتز بحمل السلاح عامة فإن الصعلوك بحق أشد اعتزازاً بحمله خاصة، ومن أسلحتهم السيف والقوس والرمح وكنانة السهام وغيرها من الأسلحة التي وردت في أشعارهم. ومن أنواع سيوفهم اليماني الذي يصطحبه تأبط شراً لركوبه الأهوال وحيداً يقول:

يركب الهول وحيداً ولا * يصحبه إلا اليماني للأقل^(٣)**

ومن سيوفهم المهند للشنفري وهو حاد وقاطع ذو لون أبيض يقول فيه:

وأبيض من ماء الحديد مهندٌ * مجدٌ لأطراف السواعد مقطف^(٤)**

أيضاً ورد الرمح في أشعارهم كما هو عند عمرو بن براق في قوله:

ومن يطلب المال الممنع بالقنا * يعيش مثرياً أو تخترمه المخارم^(٥)**

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ١٩.. السوام: الماشية والإبل التي ترعى، يرح عليه: أي ترد إليه إلى مراحها، المولى: هنا ابن العم.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق الدكتور عبدالمنعم أحمد صالح دار الجيل بروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ج١، ص ٣٤١.

(٤) ديوان الشنفرى، ص ٥١. الأبيض: السيف، مجد: قاطع، المقطف: في الأصل المنجل الذي يقطف به.

(٥) ديوان عمرو بن براق، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، بيروت، ص ١٠٩. القنا: جمع قناة وهي الرمح، مثرياً: كثير المال، تخترمه: تهلكه، المخارم: جمع مخرم وهو الطريق في الجبل أو الرمل.

وللشنفري قوس له سمتان لونه اصفر وصوت له دوي، فلونه الأصفر يتغير من حرارة الشمس وتقلبات الطقس من ترحاله المستمر في أرجاء الصحراء، أما صوته فله اندفاع شديد في الفضاء. يقول مصوراً له:

وصفراء من نبع أبي ظهيرة *** ترن كآرنان الشجي وتهتف^(١)

وقد تميزت أشعارهم في الصحراء بعدة ميزات من غيرها من القصائد منها:
١/ خلت العديد من قصائدهم من ذكر الأطلال والبكاء عليها أو النسيب كما في قصائد الشعر الأخرى بل اتسمت بطابع القوة وتمجيد صفاتهم وتقاليدهم وعاداتهم التي يؤمنون بها. كما تميزت كثير منها بوحدة الموضوع وعدم التطرق لعدة أغراض أو مقاصد أخرى وأكثر شعرهم يمثل البيئة الصحراوية وتمجيد طبائعهم وقد أتى في شكل مقطوعات لا قصائد طويلة باعتبار أنه يحمل الغرض الذي يريدون، كما يصور شعرهم نفسياتهم وأعمالهم فهو صدى للواقع الحياتي لهم ومعاشتهم له، كما حمل شعرهم عطفهم على الفقراء والعاجزين عن التكسب والغارة وأنت قصائدهم تحمل معاني القسمة والتساوي في ما بينهم وكراهيتهم للأغنياء البخلاء والسطو على أموالهم وهي فلسفة يؤمنون بها.

وقد تعددت الدراسات حول شعر الصعاليك وتداخلت الآراء فيها حتى أصبحت الصعلكة ظاهرة اجتماعية عاشها هؤلاء في الصحراء لابد أن يضعها الدارس لشعر الصحراء في حيثياته.

وعند تناولي للصحراء في هذا الموضوع وجدت الصعلكة ظاهرة اجتماعية محدودة شكلت وزناً ومعياراً وأثراً في حياة المجتمع البدوي في الصحراء في ذلك الوقت ولابد من الوقوف عندها، وقد حوتها عدداً من كتب الأدب ومصادره من خلال أشعارهم وأخبارهم مثل كتاب الحيوان للجاحظ والكامل

(١) ديوان الشنفري، ص ٥١. الصفراء: القوس الشديدة، النبع: نوع من الشجر تتخذ منه الأقواس، ظهيرة: قوية. الشجي: الحزين، تهتف: تصيح.

للمبرد^(١)، والعقد الفريد لابن عبد ربه^(٢)، ومعجم الأمثال للميداني^(٣)، والشعر
والشعراء لابن قتيبة^(٤) وغيرها.

(١) هو محمد بن يزيد بن عبدالكبر بن عمير بن حسان الأزدي المعروف بالمبرد أبو العباس ولد بالبصر وتلمذ
على أبي عثمان المازني وأخذ عنه أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ولفظيه توفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ — من
تصانيفه الاشتقاق . أعراب القرآن . قواعد الشعر الكامل . معاني الشعر — أنظر معجم المؤلفين ج ٣ ص ٧٧٣ .

(٢) ابن عبد ربه هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن جرير بن سالم القرطبي (أبو عمر) ، توفي بقرطبة
سنة ٣٢٨هـ من آثاره العقد الفريد، ديوان شعر ، أخبار فقهاء قرطبة — أنظر النجوم الزاهرة في ملوك
مصر والقاهرة جمال الدين أبي المحاسن، ج ٣ ص ٢٦٦، معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ، ج ١
ص ٢٧١ .

(٣) الميداني هو أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الميداني النيسابوري أبو الفضل أديب نحوي لغوي توفي في
١٥ رمضان بنيسابور سنة ٥٤٨هـ من تصانيفه النموذج في النحو شرح المضليات مجمع الأمثال وله شعر —
معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج ١ ص ٢٤٠ . امرأة الجنان لليافعي ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٤) ابن قتيبة هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (أبو أحمد) سكن بغداد وحدث بها وولي قضاء دينور ولد
سنة ٢١٣هـ وتوفي سنة ٢٧٦هـ من تصانيفه غريب القرآن، أدب الكاتب، طبقات الشعراء — أنظر مرآة
الجنان لليافعي ج ٢ ص ١٩١، والأعلام للزركلي ص ١٣٧ .

الفصل الخامس

الكرم والحكمة من شعرهم

الكرم والحكمة من شعرهم

أثرت الصحراء في الحياة الاجتماعية في كثير من العادات والتقاليد والصفات الكريمة التي أصبحت إرثاً يتناقله معظم الناس على امتداد الأرض وطول الزمان، وقد أنت نتيجة لتفاعل الإنسان مع الحياة فإكرام الضيف سجية تميزت بها البيئة البدوية الاجتماعية فكان لاتساع الصحراء والترحال المستمر للبدوي في أنحاءها وقلة الماء والطعام وقساوة البيئة وحتف الموت حتم أن يكون هناك تعاون وتوadd في إكرام الضيف بل اصبح مفخرة تتنافس فيه القبائل والعشائر فيما بينها وهو يدل على اكتمال الرجولة والشجاعة والمروءة وكل الصفات الحميدة، ولذلك ظهر جلياً في أشعارهم يقول أمرؤ القيس :

أحللت رحلي في بني ثعل * إن الكريم للكريم محل^(١)**

يقول المنخل اليشكري^(٢) يصور الكرم في قصيدته مخاطباً محبوبته ويوضح

تقديمه القرى في فصل الشتاء وهو أشد الأوقات التي يحتاج فيها الناس للقرى:

إن كنت عاذلتني فسيري * نحو العراق ولا تحوري**

لا تسألني عن جل ما * لي وانظري كرمي وخيري^(٣)**

وفي هذه البيئة التي تربت فيها النفوس على الإباء والاعتزاز بالشرف وحسن الأحدثوة، كان لابد للرجال والنساء من العفة والتعفف لأن العدوان على العرض يجلب ويلاً والعفة شرط من شروط السيادة فهي كالشجاعة والكرم على سبيل المثال

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٤١، أحللت: أنزات، محل: منزل ومكرم ومحسن الجوار .

(٢) المنخل لليشكري هو المنخل بن مسعود بن عامر بن يشكر شاعر جاهلي كان ينادم النعمان بن المنذر وهو الذي سعى بالنابغة الذبياني إلى النعمان في أمر المتجرده. قتله النعمان بن المنذر سنة نحو ٢٥ قبل الهجرة — أنظر الأعلام للزركلي ج ١ ص ٢٩٦ — المؤلف والمختلف أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى المتوفى سنة ٣٧٠هـ تحقيق عبدالستار أحمد فرج القاهرة دار إحياء التراث العربي طبعة ١٣٨١هـ ص ٢٧١.

(٣) شعراء النصرانية قبل الاسلام . جمعه ونسقه الأب لويس شيخو اليسوعي، طبعة ثانية دار المشرق بيروت، ص ٤٢٢-٤٢٣. إن كنت تعزليني فاذهي عني فلست لي بحاجة ولا ترجعي.جل: معظم، يقول لا تسألني عن مالي وكثرتة أنظري كرمي: يريد أنه ليس بكثير مال ولكنه كريم .

من العادات الحميدة التي حظيت بها البيئة الصحراوية^(١). والكرم من شيمة العرب في الصحراء بل يهجي من لم يلتزم بتلك الصفات يقول عنتره مدلاً على ذلك في قصيدة يفخر فيها بقومه :

تجافيت عن طبع اللئام لأنني * أرى البخل يشنا والمكارم تطلب
وأعلم أن الجود في الناس شيمة *** تقوم بها الأحرار والطبع يغلب^(٢)**

وقد عدد ابن طباطبا العلوي^(٣) هذه الفضائل الإنسانية التي وجد العرب تتمدح بها في الشعر فقال: "وأما ما وجدته في أخلاقها وتمدحت به ومدحت به سواها ودمت من كان على ضد حالها فيه خلال مشهورة كثيرة منها في الخلق والبسطة ومنها في الخلق الشماء، والشجاعة، والحلم، والحزم، والعزم، والوفاء، والعفاف والكرم والبر، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق، والصبر، والورع، والشكر، والمدارة، والعفو، والعدل، والإحسان، وصلة الرحم، وكرم السر، وأصالة الرأي، والأنفة، والدهاء، وعلو الهمة، والتواضع، والبيان، والجلد، والتجارب، والتعفف"^(٤). ولعمري أن هذه الصفات مجتمعة لا توجد في بيئة من البيئات إلا في الصحراء وذلك لمؤثراتها وأثرها في الحياة العامة بكل محاورها، ولذلك أصبحت حديث القرون فيما بعد.

ونجد حاتم عبد الله الطائي^(٥) وهو من أشهر كرماء العرب يأمر زوجه ألا تستر قدر الطعام وإلا فطعامها حرام عليه ويأمر بحزم أن توقد النار في مكان عالٍ

(١) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، الطبعة الرابعة، مكتبة نهضة مصر، بيروت، ص ٣٦١.

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٣.

(٣) ابن طباطبا: هو يحيى بن محمد العدوي الحسيني الشيعي (أبوالمعمر بن طباطبا) من أهل بغداد من آثاره مصنف في صنعة الشعر توفي سنة ٤٧٨هـ — أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج ٤ ص ١١٤.

(٤) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق د. عبد العزيز بن ناصر المانع، دار المعرفة للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٥م، ص ١٠٣.

(٥) حاتم الطائي: هو حاتم عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني أبو عدي فارس شاعر جواد جاهلي يضرب المثل بجوده كان من أهل نجد مات سنة ٤٦٦ قبل الهجرة في بلاد طى — أنظر الأعلام للزكلي ج ٢ ص ١٥١.

ليراها الناس، وأن يكون حطب النار من النوع الذي يشتعل وتتأجج ناره وتدفع
ألسنتها ولا تختار لها الحطب الذي لا جمر له قائلاً:

لا تستري قدرى إذا ما طبختها * على إذا ما تطبخين حرام
ولكن بهذاك البقاع فأوقدي *** بجزل إذا أوقدت لا بضرام^(١)**

ويقول عروة بن الورد أنه يريد أن يقسم ما يأكله على فقراء قومه ويحسو شرب
قراح الماء غير المخلوط بشئ وذلك في الشتاء البارد يقول:

اقسم جسمي في جسوم كثيرة * وأحسو قراح الماء والماء بارد^(٢)**

وقد اشتركت المرأة مع الرجل في الكرم يقول حاتم الطائي لزوجته:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له * آكلاً فإني نست آكله وحدي^(٣)**

فهم يكرمون كل ضيف وكلفهم بحسن الأحذوثة وطيب الثناء والمال في نظرهم
وسيلة وليس غاية، وأن قساوة الطبيعة وشعور البدوي بالضيق أمام هذه المعاناة قد
فرض عليه تقديس القوة والبسالة حتى أصبحت مبدء من مبادئ السيادة والكرم لم
يكن ممدوحاً لأنه من آثار الرحمة والعطف فحسب بل أنه أيضاً مظهر السيادة
والقوة والاستعلاء فالكريم هو القوي الذي يجود مما تجري عليه السيوف والرماح،
فالصحراء الممتدة عندما يرحل البدوي فيها يجد نفسه في هذه الوهاد يحس ويشعر
بالحاجة إلي النجدة والمروءة لأخيه كذلك كثرة الحروب بين القبائل شغلت الناس
ولذلك كان هناك شعور مشترك بين الناس بالضعف والهزيمة أمام هذا الواقع
والطبيعة الجافة.

(١) ديوان حاتم الطائي، منشورات دار مكتبة الهلال بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، ص ٧٨. الجزيل: الغليظ من
الحطب الذي له اشتعال وجمر، الضرام: هو الذي لا جمر له مثل القصب وأشباهه، البقاع: ما ارتفع عن الأرض
كالتلال والجبال.

(٢) ديوان عروة بن الورد، ص ٢٩، اقسام جسمي: جسمه هنا قوت جسمه يقول أقسم ما أريد أن اطعمه في
محاويج ومن يلزمني حقه والضيفان، أحسو قراح الماء: الذي لا يخالطه لبن ولا غيره والماء بارد أي في الشتاء
فذلك أشد.

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الحوفي، ص ٢١٥.

فالكرم والشجاعة والمروءة والنجدة والإيثار قيم اجتماعية تعارف عليها الناس "ويقصد بالقيم الاجتماعية مجموعة القيم الإنسانية الخلقية والنفسية والعقلية التي احتضنها الشعراء واهتدوا إليها واستمدوها من وحي المجتمع العربي ونطاقه ثم توارثوها جيل بعد جيل وأخذوا يرسمونها في أغراضهم الشعرية" (١). ويخلعونها على ممدوحهم بدافع تأكيدها والاستكثار منها والحث عليها، فقد كان لعصبية القبيلة دور في ذلك، فالشاعر الشنفرى يريد مدح صفة القوة بمدارة نفسه وحمايتها بالسلاح ويصف قوسه يقول:

إذا زلّ عنها السهم حنت كأنها *** مرزأة عجلي ترن وتعول^(٢)

ويمدح الإنسان المتعقل في كل أموره بقوله:

لعمرك ما في الأرض ضيق على امري *** سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل^(٣)

ويفخر ويصف السلاح التي يصحبها يقول:

وكل أبيّ باسلٌ غير أنني *** إذا عرضت أولى الطرائد أبسل^(٤)

ويمدح نفسه ويفخر بها:

وإن مدّت الأيدي إلى الزاد ولم أكن *** بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل^(٥)

ويُختبر الكرم في فصل الشتاء حيث القحط والحاجة إلى الطعام. قال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف:

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت *** ونال كرام المال في السنة الأكل

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم *** قطيناً لهم حتى إذا نبت البقل^(٦)

(١) قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية، د. أشرف محمود نجا، ص ٢٢.

(٢) لامية العرب للشنفرى، ص ٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٩.

(٦) ديوان زهير، ص ١٠٥. الشهباء: البيضاء من الجذب، الأكل: لا يجدون لبناً فينحرون الإبل.

فقد كان البدوي سخياً كريماً في حله وترحاله بماله وطعامه وكل ما عنده. يصور عروة بن الورد وهو أحد الصعاليك بغضه للبخل بقوله:

وقد علمت سليمى أن رأيي *** ورأي البخل مختلف شتيت
وأنى لا يرني البخل رأيي *** سواء أن عطشت وإن رويت^(١)

ويورد عروة أنه إذا جاء الشتاء واشتد البرد واستغاث الناس بالنيران يصطلون بها ويدفعون عن أنفسهم زمهرير الشتاء فتسود أناملهم من النيران ولكن عندما يأتي الخصب ويورق الشجر فيعود أخضر بعد أن كان الناس جياع يعطيهم أجود الطعام وأخيره ويصبح هو يقاسي الجوع يقول عروة:

قعيدك عمر الله هل تعلمين *** كريماً إذا إسود الأتامل أزهر
صبوراً على رزء الموالى وحافظاً *** لعرض حتى يوكل النبت أخضرا
أقب ومخماص الشتاء مرزاً *** إذا إغبر أولاد الأذلة أسفرا^(٢)

ويقول أنه يعطي ويبذل وإن لم يسأل ويعطي وإن لم يستجره المحتاج ولا يثير في وجههم لأن البشاشة أول الكرم ودليله يقول:

سلي الطارق المعتر يا أم مالك *** إذا ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي أنه أول القرى *** وأبذل معروفى له دون منكري^(٣)

والكرم عند العربي هو تقديم القرى للضيف ولا يكون إلا مع الإقلال في المال وحاتم الطائي هو أسطورة العرب في الكرم وكان الجاهلي يفتخر بأن قومه كرام يعينون المحتاج، وفكرة الكرم داخلة في نسج القصيدة الجاهلية في الصحراء أيضاً

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ٢١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤-٣٥. رزء الموالى: مثالهم منه.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٨. الطارق: الآتي ليلاً، يسفر: يشرب، المعتر: الآتي المعروف في غير أن يسأل، المجزر: مكان الجزر.

كان نوعها وغرضها، "والكرم كالشجاعة والفروسية من المعاني التي مدح بها شعراء الجاهلية" (١).

فالكرم في معناه الواسع يحمل في طياته العديد من الصفات الموروثة الخلقية فالمروءة هي إحدى هذه الصفات التي تغنى بها البدوي في الصحراء فقد كانت ديدنهم والعفة ملمحهم. يقول عنتره معبراً عن عفته ومروءته:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتني *** حتى يوارني جارتني مأواها
إني امرؤ سمح الخليفة ماجد *** لا أتبع النفس اللجوج هواها (٢)

ونجد هناك علاقة وثيقة بين الأخلاق والمجتمع فكل منهما مرآة تتعكس عليه صورة الآخر وكلاهما مؤثر ومتأثر بالآخر، فالأخلاق لا يمكن أن تنمو وتتطور إلا في مجتمع، والمجتمع نفسه يخضع لعادات وتقاليد الأفراد فهم نواة المجتمع، واستطاع الشعر أن يعكس تلك العادات والتقاليد وأخلاق العرب.

والنابغة الذبياني وصف ممدوحيه بطيب المعشر وطيب الحجزات "وهي ما يشد على الوسط" كناية بذلك عن عفتهم ونقاء سريرتهم وذلك حين يقول:

رفاق النعال طيب حجزاتهم *** يحيون بالريحان يوم السباسب (٣)

ومن أبرز خلالهم وأعظمها أثراً في حياتهم ومجتمعاتهم هي الكرم فهو عادة من عاداتهم فطبعوا عليه وأكثر سخاءً عندما تظن السماء ويقبل الجذب. تقول الخنساء في رثاء أخيها صخرًا:

وإن صخرًا لو ألبينا وسيدنا *** وإن صخرًا إذا جاعوا لعقار
وإن صخرًا لتأتم الهداة به *** كأنه علم في رأسه نار (٤)

(١) شعر الكرم الجاهلي، د. صلاح مصيلحي عبدالله، ١٩٩٣م، دار المعرفة، ص ٤٨.

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٥٣.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ٦٣. السباسب: عيد كان في الجاهلية، قال أبو عبيدة: وكل عيد فالعرب تسميه سباسب. رفاق النعال: قال الأصمعي يريد أنهم ليسوا بأصحاب مشي ولا تعب لأنهم ملوك.

(٤) ديوان الخنساء، تقديم وشرح وتعليق د. محمد محمود، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ٥٧. تأتم به: تهتدي به، الهداة: واحدها هاد وهو المرشد.

وقد توافرت أشعار الكرم التي تُعلى من مكانته وقيمته حتى وصل إلى عصر ابن زيدون (١) الذي يقول في مدح ابن الوليد محمد بن جهور مشبهاً نفسه بغرس ثابت في ثرى العلياء يروي من ريّ هذا الممدوح فإن أبطأت عنه سقيه أدركه الذبول والنسيان يقول:

أنا غرس في ثرى العلياء لو * أبطأت سقياء عنه لذبل^(٢)**

ونجد الصور الواضحة للمهاجاة بين الأخطل (٣) وجرير (٤) في العصر الأموي، فهنا الأخطل يهجو جرير بقوله:

قوم إذا أستبح الأضياف كلبهم * قالو لأهمم بولي على النار
فتمسك البول شحلاً أن تجود به *** وما تجود لهم إلا بمقدار^(٥)**

فالكرم في الصحراء أحد مرتكزات الحياة الاجتماعية والثقافية التي أعلى العرب من نشاتها بل هي سمة من سماتهم التي اعتادوا عليها وامتدت عبر الأجيال إلى اليوم.

(١) ابن زيدون: هو أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي (أبوالوليد) شاعر ولد بقرطبة سنة ٣٩٤هـ وتوفي بأشبيلية في رجب ٤٦٣هـ من آثاره ديوان شعر ورسالة عرفت برسالة ابن زيدون — أنظر كتاب الوافي للوفيات صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤هـ تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ط ١ بيروت دار إحياء التراث العربي ٢٠٠٠م ج ٧ ص ٥٦.

(٢) ديوان ابن زيدون، حققه وبوبه وشرحه وضبط بالشكل أبياته حنا الفاخوري دار الجيل بيروت بدون ص ١٢٥.

(٣) الأخطل : هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو لتغلي الملقب بالأخطل أبومالك شاعر نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق وكانت أقامته طوراً في دمشق مقر الخلفاء من بني أمية تهاجى مع جرير والفرزدق من آثاره ديوان شعر — أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج ٢ ص ٦٠٥.

(٤) جرير: هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكليبي اليربوعي من تميم أشعر أهل عصره جمعت نقائضه مع جرير في ثلاثة أجزاء وله ديوان شعر ولد سنة ٢٨هـ وتوفي ١١٠هـ — أنظر وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن ابي بكر بن خلكان تحقيق د.يوسف علي الطويل د. مريم قاسم طويل ط ١ بيروت دار الكتب العلمية ١٩٩٨م ج ١ ص ٣٠١.

(٥) ديوان الأخطل، تقديم وشرح كارين صادر، دارصادر بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص ١٤٨.

الحكمة من شعرهم:

عاش البدوي في الصحراء الواسعة الممتدة في وسطها وأطرافها يساير الحياة بصنوف ألوانها ويكابد الطبيعة، فالحيوانات بكل أصنافها والإنسان والطيور كلها تعيش تحت قبة الصحراء الممتدة فتطبع البدوي بهذه الحياة فأنت عادات وتقاليده وتكونت قبائل وعشائر تسوح بالبادية بين الجبال والوديان بحثاً عن الماء والكلاً فجاجعوا وشبعوا وعرفوا الغنى والفقر والكرم والشجاعة المروءة، ورأوا المطمئن الوداع والثائر المشاكس فاستمعوا إلى تاريخ السابقين وأحداث الحياة ومفاجأتها وغاياتها فأحس وشعر ونظر فأثمرت هذه التفاعلات حكماً غير موجودة في متناول الفطرة السليمة فكانت وليدة التجارب الشخصية، رأوا مصائر كل هؤلاء القوم فأنت عندهم زخيرة كبيرة من تجارب الحياة وفلسفتها وأنواعها بثنتى معانيها ودروبها فصاغوها في أبيات شعر أو صورة نثرية تعبر عن الموقف المعين فلها معانٍ ودلالات صادقة تقع من النفس موقعها فينصت لها السامع ويحفظها ويذكرها في مجالته فتصبح كلمات تجري على السنة الناس.

والحكمة هي قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكماً مسلماً تقبله العقول وتأنس به الأفتدة وتتقاد له النفوس والمشاعر(١).
والحكمة ليس غرضاً مقصوداً لذاته وإنما هي من الأغراض التي تأتي في عرض القصيدة والحكم في الجاهلية تعبر عن التمسك بالمثل العليا السائدة في المجتمع فهي تشير إلى الأخلاق الفاضلة التي ترفع من قدر الإنسان عندما يتمسك بها . والحكمة ليس لها مكان معين في القصيدة فقد تأتي أولها في آخرها .

والرجل حكيمته التجارب جعلته حكيماً وحكم الرجل مثل حلم أي صار حكيماً

ومنه قول النابغة:

(١) أساس البلاغة، ابن عمر الزمخشري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص ١٣٧، مادة "حكمة".

وأحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت *** إلى حمامٍ سراعٍ وارد التمد^(١)

فقد فاضت الحكمة على السنة كثير من العرب لسلامة الفطرة ورجاحة الفكر ونضوج العقل، ولذلك أتت الحكمة مستمدة من تجارب الحياة في البيئة الصحراوية بليغة لإيجازها وفصاحتها ووضوحها ودقة معانيها وروعة تأثيرها وخصب خيالها وصدق تجاربها الإنسانية فهي تكسب الكلام سحراً وحلاوة وتجعله مقبولاً من الذوق.

"والحكمة في الشعر تلخيص الفكر العميق باللفظ الدقيق في دلالاته على المعنى أو تضمين الأبيات القليلة معاني جليلة درج العرب على تسميتها جوامع الكلم"^(٢).

وتعليل خلود هذه الحكم عند الإنسان في رحلة البدوي في حله وترحاله لم يكن له قانون يحتكم إليه ولا دستور مدون يستفتيه ويستلهم منه العبرة والنصح وأغلبها جاء في فكرة الموت والفناء، وتجارب الحياة القاسية.

فقد عبر كثير من الشعراء عن الحكمة بصورة ملموسة تمس الواقع فكانت لهم نظرتهم الثاقبة وفكرهم المميز فتأتي الحكمة متناغمة مع هذا الواقع فيصوغونها شعراً فتأتي عميقة المأخذ عذبة الموقع شديدة الاتصال بواقع الحياة، يقول أبو ذؤيب الهذلي^(٣) مما جرى مجرى الأمثال:

والنفس راغبة إذا رغبتها *** فإذا ترد إلى قليل تقنع

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٤. قال الأصمعي معنى أحكم أي كن حكيماً كفتاة الحي إذا أصابت ووضعته الشيء في موضعه .

(٢) الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، د. غازي طليمات عرمان الأشقر، ص ٢٦٠.

(٣) أبو ذؤيب الهذلي: هو خويلد بن خالد الهذلي (أبو ذؤيب) شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام سكن المدينة من أشعاره ديوان شعر . توفي نحو ٢٧هـ وقال صاحب دائرة المعارف (قدم المدينة عند وفاة النبي (ص) فأسلم وحسن إسلامه ولا نكاد نعرف من أحداث حياته إلا أنه خرج إلى مصر في خلافة عمر أو في خلافة عثمان ثم التحق بجيش عبدالله بن سعد بن أبي السرح في غزو أفريقيا سنة ٢٦هـ توفي سنة ٢٧هـ وقد فقد خمسة من أولاده على التوالي في عام واحد بوباء الطاعون في مصر فقال قصيدة عينية هي أشهر شعره — أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ج ١ ص ٦٩١ دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب فؤاد أحزام البستاني بيروت لبنان ١٩٦٢م ج ٤ ص ٣٠٥.

وإذا المنية أنشبت أظفارها *** ألفت كل تميمة لا تنفع^(١)

فكانت للبدوي قناعات وأحاسيس معبرة عن الحياة الاجتماعية فأثت روح الحكمة تحمل هذه المعاني.

ويقول طرفة معبراً عن فلسفة الحياة والموت والفناء بقوله:

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة *** وما تنقص الأيام والدهر ينفد^(٢)

فتأتي الحكمة معبرة عن كل موقف وكل شاعر وكل بيئة وكل عصر من العصور وذلك حسب فلسفة الشاعر ورؤاه للمواقف المعينة.

فإذا نظرنا لبعض الحكم التي وردت في بعض قصائد طرفة تختلف عن غيره في نظرته للحياة فعنده تبديد للأموال وإزهاق للأرواح فإذا شرب الخمر لم يكن كريماً كما يصنع عنتر بن شداد في قوله:

فإذا شربت فإني مستهلك *** مالي وعرضي وأفر لم يكلم^(٣)

أو عند عمرو بن كلثوم في شرايه أنه إذا ما الماء خالطها سخينا أو يصير أسداً أو ملكاً كما جاء في بيت حسان بن ثابت في جاهليته الذي يقول:

ونشربها فتركنا ملوكاً *** وأسداً ما ينهضنا اللقاء^(٤)

ولكن "طرفة" يشربها للذة والمتعة وتحدي بذلك قبيلته كلها يقول:

وما زال تشرابي الخمر ولذتي *** وبيعي وإفريقي طريقي ومتلدي

(١) ديوان الهذليين ، أبوذوب القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م ص ١٠٣ .

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٣ .

(٣) ديوان عنتر بن شداد، ص ١٢٣ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت، ص ٨ .

إلى أن تحامنتي العشيرة كلها *** وأفردت أفراد البعير المعبد^(١)

ولطرفة نظرات فردية تفصح عن تفكيره القاصد على بعض الملذات التي سيخطفه الموت ولا بد من أن يرتادها قبله ويوجه قوله إلى اللائم ونجد نفس الحكمة ينداح من حولها :

ألا أيهدأ اللاتمي أحضر الوغى *** وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطع دفع منيتي *** فدعني أبادرها بما ملكت يدي
فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى *** وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشرية *** كميت متى ما تعل بالماء تزيد
وكرّي إذا نادى المضاف محنباً *** كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب *** ببهكنة تحت الطراف المعمد^(٢)

وتختلف نظرة طرفة وفلسفته في الحياة وحكمته التي يبثها عن زهير الذي ينظر للحياة الأخرى والتي فيها نفحة التدين وتربط بين الحياتين الدنيوية والأخروية فهي أسمى من حكمه وأفكاره، نجده يقول:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم *** ليخفي ومهما يكتم الله يعلم^(٣)
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر *** ليوم الحساب أو يعجل فينقم^(٤)

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٧ وما بعدها. ويروى ألا أيها اللاحي أن أحضر الوغى. واللاحي اللائم. لحاه يلحوه ويلحاه إذا لامه، والزاجر: الناهي، وقد روي ألا أيهدأ الزاجري أحضر الوغى.

لا تستطع دفع منيتي: أي فدعني ولذاتي قبل أن يأتيني الموت، عيشة الفتى: ما يعيش به ويتلذذ.

أجدك: حقا ونفسك وقيل أبيك. لم أحفل: لم أبال، عود: من يحضره عند موته في مرضه وينوح عليه.

الكميت من الخمر: التي تضرب إلى السواد، متى ما تعل: متى ما تمزج به وتزيد لأنها عتيقة.

المضاف: الخائف، المحنب: الذي فيه انحناء وهي صفة للفرس، سيد الغضا: ذئب الغابة.

نبهته المتورد: نبهته وأثرته وهو يريد الماء، الدجن: الغيم، البهكنة: الحسنه الخلقة السمينة الناعمة، المعمد: المرفوع بالمعد.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٣.

وإذا كان طرفه يبادر بهذه المتعة قبل مداهمته للموت فقد أوصى زهير بإنفاق المال
والمواساة بالفضل لذوي قرباه وأن يجامل بمعرفه قومه ليبقوا له المكان اللائق
وينال التقدير ويرد عن عرضه العدوان يقول:

ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله *** على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه *** يفره ومن لا يتق الشتم يشتم^(١)

فالحكمة اجتماعية مستوحاة من أحاسيس ومشاعر وتجارب الإنسان وتقتصر على
بيئة ومنشأ أو زمان معين وإنما تصبح صالحة لكل مكان وزمان، ولزهير قصيدة
حكيمية قالها في موقف دعا فيه إلى العظة والعبرة عندما غضب كسرى على
النعمان فهده بالقتل ففر منه فلم يجد مفراً عند كثير من الذين أحسن إليهم يقول:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ** من الأمر أو يبدو لهم ما بداليا؟
بدا لي إن الناس تفنى نفوسهم *** وأموالهم ولا أرى الدهر فاتياً
وإني متى أهبط من الأرض تلعة *** أجد أثراً قبلي جديداً وعافياً
أراني إذا ما بتُّ على هوى *** فثم إذا أصبحت غادياً
بدا لي أني عشت تسعين حجة *** تباعاً وعشراً عشتها وثمانياً
وما أن أرى نفسي تقيها كريمتي *** وما إن تقي نفسي كريمة مالياً
ألا لا أرى على الحوادث باقياً *** ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا^(٢)

(١) ديوان زهير، ص ٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٧-٢٠٨. الغادي: الذاهب في الغداة وهي بين الفجر والشروق والمعنى أن الموت
سبيل كل نفس، التلعة: ما علا من الأرض، بت على هوى: على أمر أريده يريد أن حاجتي لا تنقضني، التباع:
المتابعة، تقيها كريمة: يقول الموت نازل بي ولا أقدر أن أدفعه بأكرم مالي ولا تقدر تنفسي أن تدفع عن أكرم
مالي.

ويذكر صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب قصيدة للشاعر عدي بن زيد (١) أكثر أبياتها حكم تتحدث عن الموت والفناء والعادات المستقاة من الصحراء من فصاحة المرء والبعد عن الدنيا رغم أنه تتقل في بعض القرى يقول:

أعاذل ما يدريك أن منيتي *** إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضحا الغد
ذريني فإن لي ما مضى *** أمامي من مالي إذا خفّ عودي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه *** فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا أنت فاكهت الرجال فلا تلح *** وقل مثل ما قالوا ولا تتزيد (٢)

أما علقمة بن عبده الفحل فهو شاعر جاهلي أيضاً وقد أنت في قصائده العديد من الحكم المستقاة من الدربة والتجربة في الصحراء ويورد كثيراً من المفاهيم التي يراها صائبة يقول:

الجود ثاقبة للمال مهلكة *** والبخل باق لأهليه ومذموم
والحمد لا يشتري إلا له ثمن *** مما يضمن به الأقسام معلوم
والجهل ذو عرض لا يستراد له *** والحلم آونة في الناس معدوم
ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه *** أنى توجه والمحروم محروم (٣)

وفي قصيدة أخرى لزهير حكيم العرب يورد كثيراً من الحكم في قصائده من خلال تجواله المستمر فكانت بمثابة سلوان و منافذ تضيء طرق الحياة. يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب *** تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

(١) عدي بن زيد بن حماد بن زيد التميمي شاعر من دهاة الجاهليين كان قروياً من أهل الحيرة فصيحاً يحسن العربية والفارسية والرمي بالنشاب وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى سكن المدائن جمع ما بقي من شعره في ديوان قتل في الحيرة مسجولاً نحو ٣٥ ق هـ - أنظر الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٢٢٠.

(٢) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تأليف أبي زيد محمد ابن أبي الخطاب القرشي، ص ٢٩٢.

(٣) ديوان علقمة بن عبده الفحل، ص ١٩٢.

واعلم ما في اليوم والأمس قبله	***	ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي
ومن لا يصانع في أمور كثيرة	***	يضرس بأثياب ويوطأ بمنسم
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله	***	على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه	***	يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه	***	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه	***	ولو نال أسباب السماء بسلم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه	***	يطيع العوالي رُكبت كل لهزم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	***	وإن خالها تخفى على الناس تعلم(١)

تنوع مجالات الحياة وتجاربها وشعابها واجتهاد كثير من الناس في اكتساب مزيد من المعارف الحياتية لمجابهة كسب سبل العيش المحصور والحراك الدائم في شعاب الصحراء والوقوف على كثير من تفاصيل الأشياء ومعرفة كنهها وتفصيلها ومسبباتها وصفاتها أتى بكثير من التجارب التي صاغها الشعراء حكماً متنوعة، فالتكوين العشائري والقبلي وظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية هي مادتها (ويعتاد الفرد في الصحراء على مجابهة وتجشم الحياة منذ صغره والاعتیاد عليها وذلك عندما يحين دوره مما يدفعه إلى ازدياد كل ما يبعد عن العنف معجباً بالقوة مهما كانت نتائجها) (٢).

والحكم أتت من تجاربهم في الحياة ومن عاداتهم ومعتقداتهم الكثيرة فكانت عندهم المعتقدات والمذاهب والمذاهب "حيث تعددت معتقداتهم وكثرت، ولعل

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤٩-٥١. يصانع: يترفق، يوطأ بمنسم: يزل، الزجاج: أسفل الرمح، العوالي: أعلى الرمح.

(٢) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، بلاشير، ص ٣٧.

أكثر هذه المعتقدات انتشاراً الوثنية في منطقة مكة المستقر الأكبر للوثنية لأن فيها الكعبة موطن تقديسهم فهم يعظمون الكعبة ومكة" (١).

ومن المعتقدات التي يدينون بها عبادة الأصنام كما ذكرت فهم يعتقدون وجود الخالق ولكنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢).

وقد تحدث الكلبي في كتابه الأصنام عن الوثنية وذكر العديد من الأصنام منها وداً بدومة الجندل وقد اتخذته قبيلة كلب، واتخذت بنو لحيان سواعاً، واتخذت مزجح وأهل جرس يغوث ، والأقيصر لقطفان (٣).

ولذلك نجد تلك الحكم مستخلصة من ذلك السلوك العربي القديم ومن تلك الخصائص المناخية، والطبيعة وغريزة التغلب على الحياة فكانت المحرك الأساس للعربي وتصرفاته، ولذلك أتت الحكمة مستمدة روحها وعبقها ولونها من الصحراء، فهي تأتي بهذه الصورة لارتباطها بالفطرة السليمة والمعاني والخصائص والتجربة الواضحة المعالم ولذلك أمدته بكل هذه الصفات منها: الشجاعة، الكرم، المروءة، الجرأة، النجدة، الإيثار، التآزر في الملمات، الصبر على المكاره، القوة، الحمل على النفس، الوفاء، الميل إلى الوضوح في الملمات والغلظة أحياناً، الولاء والتعصب للقبيلة، الميل للمخاطرة، الحنين للماضي، الحركة الدائمة والدائبة، الفخر بالأهل والقبيلة، معرفة قيمة الحيوان.

وهذا مما أكسبتهم لها الصحراء وأكثر ما توفرت لديهم العفة، الصدق، الكرم، الشجاعة، وهذه الصفات مكتملة ما توفرت في قوم إلا وكملت عزيمتهم وخلقهم واستوت قريحتهم، وعندما أتى الإسلام وجد هذه البذرة التي تحتاج لنقاء

(١) كتاب الأصنام، عن أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق الأستاذ أحمد زكي، نسخة مصورة من نسخة دار الكتب، ١٩٥٤م، ص ٦.

(٢) سورة الزمر الآية ٣.

(٣) كتاب الأصنام الكلبي، ص ٦.

السريرة وإزالة غبش الاعتقاد بطل تبطن جذور أفندتهم فنمت عصية على كل
العواصف والأهواء والشهوات.

الباب الثالث

طبيعة الصحراء في الشعر الجاهلي ومكوناتها

الفصل الأول

مفردات الصحراء في الشعر الجاهلي

- المبحث الأول: الطبيعة المتحركة (الحية) .
- المبحث الثاني: الطبيعة الساكنة (الصامتة) .

الطبيعة المتحركة (الحية)

عرفت البيئة الصحراوية العربية أنواعاً كثيرة من الحيوانات والطيور ونالت قسطاً وافراً في أشعارهم فقاموا بوصفها وبيان أحوالها وظروفها وعاداتها والتأمل في حركاتها وصراعاها مع من حولها من أجل الحفاظ على نفسها في ظل الظروف الطبيعية لبيئتها الصحراوية.

وكان الشاعر يعرض كثيراً من أفكاره ومفاهيمه وأحاسيسه ومشاعره من خلال حياة وحركات تلك الحيوانات فهو يصف معاناته ومشاعره من خلال عكس تلك المشاعر للإنسان في الصحراء، فهو يثبت ما يعتمل في نفسه من أفكار وأحاسيس وهو غالباً ما يتحدث على لسانه ويحاوره خاصة الناقة ذلك الحيوان الصحراوي الذي اعتمد عليه البدوي في كل سبل حياته اعتماداً كلياً حتى لتفريق همه يمضي بها في الصحراء كقول طرفة:

وإني لأمضي لهمّ عند احتضاره *** بعوجاء مرقال تروح وتغدي^(١)

وكذلك من الحيوانات الفرس فارس الصحراء فقد إهتم البدوي بهما مع غيرهما ولكن زاد اهتمامه بهما وفصلّ فيهما تفصيلاً يكاد نجده في معظم الشعر الجاهلي ولا تخلو قصيدة إلا ويأتي ذكرها وصفاً لصفات المعنوية والحسية والجسدية، ويتحدث عن معاناتها في رحلاتها الكثيرة داخل الصحراء وكأنه يصف نفسه لذا نراه يعطي الناقة أفضل الصفات وأعلاها، فهناك معجم واسع للحيوان لدى الشاعر الجاهلي برزت فيه عدد من صفاتها وهي تسرح في ربوع الصحراء.

وجاء ذكر الحمامة والظبي والليث والناقة والفرس والغراب والثور الوحشي والصقر والنعامة ... إلخ. فقامت هذه الحيوانات والطيور الطبيعة الصحراوية للإنسان، وتفاعلت معه فعاشت في الوديان والوهاد والكتبان والتلال والجبال والسهول والمنخفضات، تلك البيئة التي ألفتها فشاركنا عناصر البيئة الأخرى ومكوناتها، فجاء ذكر الأشجار والنباتات وأنت مفردات الأكل والصيد والقرى

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣.

والظعن والرحيل والراح والأمطار، وتفاعلت كل هذه المكونات تحت قبة الصحراء فصاغ الشعراء أشعاراً تحمل صوراً وتشبيهات رائعة توزعت صور هذه المفردات في ما بينها .

ولم يكتف الشاعر فقط بالحيوانات التي ألفها بل سعى إلى ذكر الثور الوحشي وتفاعله مع الطبيعة الصحراوية ومفرداتها التي ذكرناها، فيصف الشاعر الثور الوحشي بصفات عديدة وصف قوته وجلده وتردده وخوفه وهلعه وجرأته وتوتره وضيقة وقلقه و سهاده وصبره و جزعه وعزمه وسروره، فكأن الشاعر يرسم صورة للصراع بين الثور الوحشي والطبيعة بكل مفرداتها من الصياد والكلاب والرياح والأمطار وهي بالطبع تتم عن صراع يستشعره الشاعر فيصوغه ويجسده في هذه القوالب الحية.

يقول النابغة في إحدى قصائده ذكراً للثور الوحشي:

كأنما الرحل منها فوق ذي جدد *** ذبّ الرياد إلى الأشباح نظار
مطرّد أفردت عنه حلائله *** من وحش وجرة أو من وحش ذي قار^(١)

فالشاعر شبه ناقته بثور وحشي في سرعته وهو ذو خطوط بيض وحمرة مندفع في تجواله وارتياحه والذي أفردت عنه حلائله التي أبعدت عنه فأصابه خبل وجنون. ولأهمية الرحلة والنقلة والهجرة سعياً وراء الماء والكأ تحتم على البدوي أن يستعين بالحيوانات (فقربوها وأعزوها ومنحوها رعايتهم وعطفهم ولم تكن ظروفهم في جزيرتهم قادرة على أن يعيشوا بمعزل عنها فندرة النبات كانت الدافع الحقيقي الذي يجعل القبائل إلى عدم الاعتماد في حياتهم على ما تنتجه الأرض فقط ودفعها إلى استغلال كافة الموارد على أية طريقة كانت فاضطروا إلى أن يجعلوا الحيوان عماد حياتهم"^(٢).

وكانت الصحراء محط أنظار هؤلاء الشعراء فوصفوا فيها الحيوان الوحشي والمستأنس وتحدثوا عن طبائعها وأشكالها وكانت البادية مذكّية لهذه الشعاعرية، فهي وإن خلت من الجمال المصنوع ولكنها غنية بالجمال المطبوع

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٦-٢٣٨.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي، القيسي، ص ٩٩.

فهناك النجوم الزاهرة، والنباتات والأمطار إضافة لتلك الحيوانات التي تسرح وتمرح فيها.

وكمنت أهمية الحيوان الأليف كالناقة لاتساع الصحراء وتشابه مراميها ولسحرها الأخاذ الذي يحيط بأكناف النفس، فقد وصف لبيد في إحدى قصائده الصحراء وكيف أن ناقته الكريمة الضامرة وطول عنقها كأنها البعير الفحل المحلى بالقطران فهي ناقة ضامرة وسريعة الوثب كالبعير ، ولا تمل السير حتى في ذلك الطريق الطويل المسافات فهي مثل الثوب الأبيض الممتد، ويشبه الظباء في بياضها ويصف الطريق وامتداده فهو طريق مستقيم يؤدي إلى طريق يجري فيه الماء يقول:

ولقد قطعت وصيلةً مجرودةً *** يبكي الصدى فيها لشجو البوم
بخطيرة توفي الجديل سريحةً *** مثل المشوف هنأته بعصيم
أجد المرافق حرة عيرانة *** حرج كجفن السيف غير سؤوم
تعدو إذا قلقت على منتصب *** كالسحل في عادية ديموم^(١)

ومن أبرز الوصف في الشعر الجاهلي كان للقوة والنشاط وهي من الصفات المستحبة وهي نتاج لاتساع الصحراء ومراميها كقول طرفة:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره *** بعوجاء مرقال تروح وتغدي^(٢)

ومن أبرز الشعراء الذين وصفوا الناقة في أشعارهم طرفة، امرؤ القيس، الأعشى، لبيد، وزهير، وعلقمة الفحل، وغيرهم.
يقول علقمة الفحل في وصف ناقته:

(١) ديوان لبيد، ص ١٩١-١٩٢- وصيلة : صحراء موصولة بأخرى - مجرودة : لاثبات فيها قد أكلها الجراد - الصدى : طائر يقول لا يسمع فيها الي هذا - خطيرة : ناقة تخطر بذنبها - توفي الجديل أي تستوفي بطول عنقها - الجديل: الزمام، سريحة: سريعة ، المشوف: البعير المطلي بالقطران، العصيم: القطران، أجد المرافق : شديدة المرافق موثقة، حرة: كريمة، عيرانة: خفيفة سريعة، حرج : طويلة على الأرض، غير سؤوم: غير ملولة للسير . منتصب : طريق ممتد . عادية : ديمومة
(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٥.

وناجية أفنى ركيب ضلوعها *** و حاركها تهجر فدؤوب^(١)

فهي وسيلة لترحاله وأن هذه الناقة الناجية السريعة التي يهزل مقدم سنامها لرحيلها على البيد في الهاجرة فيأتي التشبيه لها بالسرعة ببقرة الوحش فهي حذرة نشيطة حادة الذهن وتشبهها في سرعتها وخشيتها من صياد يلم بها يقول:

وتصبح عن غب السرى وكأنها *** مولعة تخشى القنيص شبوب^(٢)

وأن هذه البقرة الشبوب سبقت نبال الصيادين وكلابهم، وقد استتروا بشجر الأرتى ليرموها وخص الشبوب لطول تجربتها وشدة حذرها. يقول مصوراً ذلك بقوله:

تعقق بالأرتى لها وأرادها *** رجال فبدت نبلهم وكليب^(٣)

ويصف طرفة ناقتة قائلاً:

جمالية وجناء تردي كأنها *** سفنجة تبيري لأزعر أربد

أمون كألواح الإران نسأتها *** على لاحب كأنه ظهر بوجد

تباري عتاقاً ناجيات واتبعت *** وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد^(٤)

ووصف الناقة ورد في معظم الأغراض الشعرية لديهم، وقد اشتمل ديوان طرفة ابن العبد على عديد من الأوصاف التي خلعتها على ناقتة وهي تسير في الصحراء، وقد حظيت معلقته بالنصيب الوافر فيه، فكان وصف امرئ القيس

(١) ديوان علقمة بن عبده الفحل، ص ٦٦ . ركيب ضلوعها: ما بها من شحم ولحم، ناجية: سريعة، حاركها:

مقدم السنام، تهجر: السير في الهاجرة، فدؤوب: الإلاح في السير

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦ . قب: بعد، السرى: السير بالليل، مولعة: بقره وحش.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٥-١٥١ الجمالية: ناقة كريمة الخلق، الوجناء: المكثرة اللحم، السفنجة: النعامة

، الأزعر: قليل الشعر، الامون: التي يؤمن عثارها - الاران: تابوت كانوا يحملون فيه ساداتهم ويروى

(نصأتها) قال ابن الإعرابي نصأتها ونسأتها: زجرتها وضربتها بالمنسأة وهما واحد وهي العصا - اللاحب

: الطريق البين - ظهر بوجد: كساء مخطط - تباري: تعارض، العتاق: الكرام من الإبل - الناجيات:

السراع، الوظيف: عظم الساق، وظيفاً وظيفاً: أي اتبعت وظيف يدها وظيف رجلها، المور: التراب الغبار،

المعبد: المذلل.

يختلف عن عنتره والحارث بن حلزة فكل يأخذ معاني وألفاظ تمجد وتصبغ عليها صفات القوة والسرعة، ولعل الشاعر كان يقول قصيدته وهو على ظهرها. يقول إمرؤ القيس:

فدع ذا وسل الهمّ عنك بجسرة *** نمول إذا صام النهار وهجرا
تقطع غيطاناً كأن متونها *** إذا أظهرت تكسي ملاء منشرا
بعيدة بين المنكبين كأنها *** ترى عندمجرى الضفر هراً مشجرا
تظاير ظرّان الحصى بمناسم *** صلاب العجي مثلومها غير أمعرا
كأن الحصى من خلفها وأمامها *** إذا نجلته رجلها حذف أعسرا^(١)

والشاعر في الصحراء يصف ناقته وكل ما يلاقيه في سيره. يقول لبيد واصفاً ناقته وشغفه بها يقول:

بكرت به جرشية مقطورة *** تروي المحاجر بازل علكوم
دهماء قد دجنت واحنق صلبها *** وأحال فيها الرضح والتصريم^(٢)

والنابغة الذبياني عندما أراد أن يرثي النعمان بن الحارث وقف على آثار الديار ولم يجد تسليه لهما سوى هذه الناقة الشديدة الصلبة. يقول:

فسل الهوى واستحمل الهم عرساً *** تخب برحلي تارة وتناقل^(٣)

(١) ديوان امرئ القيس، ص ٦٣ . الجسرة: الناقة القوية، الذمول: السريعة، صام النهار: قامت الظهيرة، الغيطان: الأرض المطمئنة، متونها: ظهورها، المنكب: رأس العضد، الضفر: حبل يفتل من شعر، مشجر: مربوط معلق، الظران: قطع من الحجارة محددة، العجي: جمع عجاية وهي قدر، المثلوم: الخق الذي تلثمه الحجارة، غير أمعر: لم يذهب شعره، الأعسر: الذي يعمل بيده اليسرى.

(٢) ديوان لبيد، ص ١٥٣ . مقطورة: مطلية بالقطران، المحاجر: الأماكن التي يجتمع فيها الماء، بازل: كبر سنها علكوم: ضخمة كثيرة اللحم، دهماء: في لونها، دجنت: اعتادت ذلك، أحنق: ضمير وارتفع، التصريم: ألا تحلب. - جرشية: ناقة منسوبة الي جرش وهي ارض باليمن - المحاجر: الأماكن التي اجتمع فيها الماء - اجال اي بقي فيها من شحم هذا الرضح الذي سمتت به .

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ١١٤ . عرس: صخرة ثم قالوا للناقة الصلبة عرس تشبيهاً لصلابتها، فسل الهوى: أي تناسها وأتركها، تخب: من الخبب وهو ضرب من السير، تناقل: يريد المناقلة وهو ضرب من السير أيضاً.

ومن القيم التي تناولها الشاعر من الفضائل الحسية التي يصف بها فرسه وناقته أو بقر الوحش في ملمسه ونضرته وطول شعره نجدها من الصفات التي يطفئها الشاعر لا يرمي إلى إبراز فضائل جسدية وصفية بقدر ما يرمي إلى تأكيد خصال وفضائل معنوية ينفذ من خلالها الشاعر إلى المشهد المتمثل في ناقته وصبر الشاعر وسيادته وهي صفات تستمد روحها من البيئة الصحراوية.

وصحبة الشاعر الجاهلي لناقته هي وسيلة للتسلية والطرده وتفريق الهموم والرحلة وصد الأعداء والتجوال في الصحراء بحثاً عن الماء والكأ، وللترحال والظعن... إلخ، وبذا كانت سبباً من الأسباب الدافعة لهذا الفيض من الشعر اعترافاً لها لأداء واجبها.

وإن إحصائية ما قاله الشعراء الجاهليون فيها يدل على ما قلنا ، هي للترحال ويؤكل لحمها وتشرب ألبانها ويكتسي بأوبارها ويخرجون بها من السنين العجاف ويعلمون أن العزيز من لا يكون الماء القراح غبوقه يقول أحدهم مدلاً على مدى أهميته في حياتهم:

ومن تقلل حلوبته وينكل * عن الأعداء يغبقه القرع^(١)**

فالناقة من واقع حياة البدوي، تذهب عنه بواعث الألم والضيق ولذلك تأتي الناقة تتضمن بعض أبيات القصيدة وهي جسر ينتقلون بواسطتها من حديث النسب الحزين الذي يشد فيه الألم حتى يؤثر في النفس وبها يقطع الصحراء المخيفة فهي لا تمل ولا تشكو، فزهير يذكر الإبل التي يحمل عليها المتاع يقول:

يسيرون حتى حبسوا عند بابہ * ثقال الروايا والهجان المتاليا^(٢)**

وقال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر ويشير إلى الدروع التي كانت تحمل أكراساً

(١) شعر الهذليين في العصر الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي، ص ٩٣-٩٤.

(٢) ديوان زهير، ص ٢١١ - يقول حبسو عند بيته الابل التي يحمل عليا المتاع - الهجان : الكرام من الابل - المتالي : الناقة التي يتبعها اولادها

فوق الجمال:

ودروع من نسج داود في الحر *** ب وسوق يحملن فوق الجمال^(١)

وعظم بعض الشعراء الإبل فحلف النابغة بما كانوا يذرونه لآلهتهم منها
عندما أراد أن يعتذر للنعمان وهذا من ديدن أهل الصحراء وديانتهم قال:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبية *** وهل يأتين ذو أمة وهو طائع

بمصطحبات من لصاف وثبرة *** يزرن إلا سيرهن تدافع^(٢)

وبعضهم ينعته بعبارة صاحبي لما فيها في قلبه من مكانة وصحبة له في
الصحراء، فهي الأنيس الوحيد له. يقول امرؤ القيس:

قد أقطع الأرض وهي قفر *** وصاحبي بازل شمال^(٣)

وهناك عدد من الصفات التي استقوها من الصحراء وأطلقت على سرعة
الإبل مثل الناجية - الذبيلة - الخطارة - الجسرة - الأمون - الذمول - المذعورة
- الهلواع، وأيضاً وردت عدد من الصفات التي تدعو لقوتها وصلابتها مثل: جمالية
- خباء - عزافرة - عرمس - علندة - مذكرة - مقذوفة الخ ...، ولمكانتها في
نفوس العرب فقد وردت في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ
وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ
أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٤).

أجل البدوي الإبل لدرجة التقديس ويشير لذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾^(٥).

(١) ديوان الأعشى، ص ١٦٩.

(٢) ديوان النابغة، ص ٥١. ذو أمة: ذو قصد واستقامة، مصطحبات: إبل وإنما يريد من يحج على هذه الإبل، لصاف:
من بلاد بني يربوع، وثبرة: من بلاد بني مالك، إلا: جبيل صغير، تدافع: يتحاملن من الجهد.

(٣) ديوان امرؤ القيس، ص ١٤٢ - بازل شمال: ناقة تامة الخلق

(٤) سورة النحل الآيات ٥-٧.

(٥) سورة المائدة الآية ١٠٣. البحيرة: إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، شقوا أذنهما حرموا ركوبها ولم
يطردوها من ماء ولا مرعى وسموها بحيرة أي مشقوقة الأذن، السائبة: كان الرجل منهم يقول: إذا قدمت
من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة ثم يجعلها كالبحيرة. الوصيلة: الشاة أنتجت ذكراً وأنتى، ولم
يذبحوا الذكر، الحام: الذكر من الإبل إذا ولد منه عشرة أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه.

الفرس والصحراء:

والفرس أخذ أهميته في الشعر بجانب الناقة "والفرس أنت من الفروسية وفي اللغة هي الحذق بركوب الخيل، والفارس هو صاحب الفرس على إرادة النسب، والجمع فرسان وفوارس"^(١).

وقد ورد ذكره كثيراً في ثنايا القصائد الشعرية يعبرون به عن السرعة في رحلاتهم وصيدهم فأمرؤ القيس عندما يصف فرسه في معلقته يصف أجزاء جسمه ولونه وحركاته في الأرض وعدوه فتتراءى له هذه الصورة في امتداد الصحراء بهذه الأوصاف، وتأتي في مخيلته أخرى تشابه ما يتراءى أمامه فتأتي القصيدة معبرة عن تلك البيئة التي تضم هذه المرأى يقول:

وقد اغتدي والطير في وكناتها *** بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً *** كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال منته *** كما زلت الصفواء بالمتنزل
على العقب جياش كأن اهتزامه *** إذا جاش فيه حميه غلى مرجل
مسح إذا ما السابحات على الونى *** أثرن غباراً بالكديد المركل
يزل الغلام الخف عن صهواته *** ويلوي بأثواب الغنيفة المثقل
درير كخذروف الوليد أمره *** تقلب كفيه بخيط موصل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة *** وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٢)

وفي أثناء سير هذه الرحلة يعرض له بقر وحشي ولم يستطع القطيع الفرار لسرعة فرسه حتى يدرك أوائل هذا القطيع قبل أن يهرب ولسرعته وكرمه يلحق صيده دون تعب أو عرق يقول:

(١) لسان العرب، ابن منظور، ص ٣٩ (مادة فرس).

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٩ - الذبل : الضمور - الجياش : الذي يجيش في عدوة كما تجيش القدر في غليانها - اهتزامة : صوته - حمية : غليه - مسح : يصب الجري صبا - السابحات : نوع من الجري - الونى : التعب - الكديد : الموضع الغليظ - المركل : الذي يركل بالارجل - الخف : الخفيف .

فَعَنَّا لَنَا سَرَبَ كَأَنَّ نَعَاجَهُ *** عَذَارَى دَوَارٍ فِي مَلَاءِ مَذِيلِ
كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَنَحْرِهِ *** عَصَارَةَ حَنَاءِ بَشِيبِ مَرَجَلٍ^(١)

وكثيراً ما يرتبط ذكر الفرس بالصحراء في التجوال فيها والجري وراء الصيد والسفر عبرها للممدوح أو ديار المحبوبة وغير ذلك .

وأما علقمة الفحل فوصفه لفرسه يختلف عن الآخرين، فوصف عراقة أصله وصورّ العلاقة الحميمة التي تربطه به ثم يبرز صفاته المعنوية والجسدية في حديث يدل على شدة إعجابه به وعلاقته التي تربطه بفرسه هي علاقة الحبيب والصاحب الوفي، ونجد ذلك من خلال الصورة التي ينقلها الشاعر إلى وفاء حصانه وتلك مستمدة من عشق الصحراء وحاجة الرفيق فيها يقول:

أَخَا ثِقَةً لَا يَلْعَنُ الْحَىُّ شَخْصَهُ *** صَوْرًا عَلَى الْعَلَاتِ غَيْرَ مَسْبَبِ
إِذَا أَنْفَذُوا زَادًا فَإِنَّ عَنَانَهُ *** وَأَكْرَعَهُ مُسْتَعْمَلًا خَيْرَ مَكْسَبِ^(٢)

وقد ارتبط وصف الخيل في شعر طرفة بالحماسة والفخر. يقول في وصفها:

نَمْسِكُ الْخَيْلَ عَلَى مَكْرُوهِهَا *** حِينَ لَا يَمْسُكُ إِلَّا ذُو كَرَمٍ
نَذَرَ الْأَبْطَالَ صَرَعَى بَيْنَهَا *** تَعَكَّفَ الْعَقْبَانَ فِيهَا وَالرَّخْمَ^(٣)

وتقدّيس الجاهلي لراحته لتنتقله للظل والماء وموطن الاستقرار، واقترانها بالفروسية والحرب والشجاعة والأصالة والاغارة، والكر والفر، ويعتبر اغتائوها مظهرًا من مظاهر الترف والغنى.

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٠-١٢١. عن: اعترض - دواراً : صنم
(٢) علقمة بن عبدة الفحل حياته وشعره . عبد الرازق حسين ، ص ١٦ . أخا ثقة: يوثق بجريه، على العلات:
على ما به من علة وتعب، عنانه: اللجام، أكرعه: جمع كراع وهو السابق.
(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ١١٠ - على مكروهها: أي تربط الخيل ونحن إليها على ما تكره من إرتباطها
لشدة الزمان وصعوبته.

واستعاروا له كثيراً من المفردات فهو وفي وأليف وجميل "وحين سئل
أعرابي عن بكاء الصبيان في ديارهم قال: وأما بكاء صبياننا فإننا نبدأ الخيل باللبن
قبل العيال..."^(١).

ويصور عنتر بن شداد تلك القوة والشجاعة ويرسم مشاعر فرسه في حلبة
المعركة بلسان يفهمه يقول:

يدعون عنتر والرماح كأنها *** أشطان بئر في لبان الأدهم

فأزور من وقع القنا بلباته *** وشكا إلى بعبرة وتحمم^(٢)

وصورها النابغة وهي في سوح المعركة بقوله :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلق اللجما

قود براها قياد الشعب فانهدمت تدمي دوابرها محذوذة خدما^(٣)

وأما طرفة فيصف فرسه مازجاً بين الفخر والوصف يقول:

يوم تبدي البيض عن أسوقها *** وتلف الخيل أعراج النعم

أجدر الناس برأس صلدم *** حازم الأمر شجاع في الوغم

من بني بكر إذا مانسبوا *** وبني تغلب ضرابي البهم^(٤)

وأما عبيد بن الأبرص فيذكر تلك العلاقة الحميمة التي تربطه بفرسه فهو لا يفارقه:

ولا يفارقني ما عشت ذو حقب *** نهد القذال جواد غير ملواح

(١) الأغاني : أبي الفرج الأصفهاني - مطبعة بولاق - الجزء التاسع - ص ١٨ .

(٢) ديوان عنتر، ص ١٢٦ - عنتر : مرخم يجوز فية الفتح والضم - الاشطان : جمع شطن وهو جبل البئر - اللبان : الصدر - يريد ان الرماح في صدر هذا بمنزلة حبال البئر من الدلاء - ازور : مال - التحمم : صوت مقطع ليس بالصهيل

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ١١٢ ، صائمة: قائمة، تعلق : تلوك، قود:طوال، الدوابر: مآخير الحوافر، الخدم : السيور للنعال .

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٠٤-١٠٦ - تبدي البيض : تظهر وتحسر عن أسوقها - اعراج : قطعان الابل - يقول يوم تكشف الحرائر عن اسوقها من الفزع استعداداً للهرب - اجدر الناس : احق الناس - صلدم : شديد - الوغم الحرب - البهم الشجاع - ضرابي البهم: نضربهم بالسيف.

أو مهرة من عتاق الخيل سابعة *** كأنها سحق برد بين أرماح^(١)

ويستشهد بها عنتره على شجاعته وقوته مخاطباً محبوبته قائلاً:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك *** إن كنت جاهلة بما لم تعلمي^(٢)

بل وان هنالك حواراً بينه وفرسه لتلك العلاقة الحميمة بينهما وشريكه في الحرب
- يقول عنتره :

وقلت لمهري والفتا يقرع الفتاء *** تنبة وكن مستيقظاً غير ناعس

فجاوبني مهري الكريم وقال لي *** انا من جياذ الخيل كن انت فارسي^(٣)

وأما الأعشى فيصورها في مورد الحروب وكر الأعداء والبسالة والشجاعة
يقول:

وخيل بكر فما تنفك تطحنهم *** حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف^(٤)

ووصفوا في الخيل قوتها وسرعتها وكرمها ونجابتها وضمورها ووصفوا
للفرس جسمه وارتفاعه وقوائمه وعنقه وناصيته وذيله وبياضه... إلخ.

فالفرس استطاع أن يسلب الشاعر حبه وشغفه ولبابه وبات لا يرى غيره في
الحرب والفروسية ولا يستريح لاستجمام ولعزتهم له نجد اسم زيد الخيل فأضيف
الاسم للخيل وبلغ من تعظيمها عندهم أنهم "كانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر
ينبغ أو فرس تنتج"^(٥). ووصلت العناية أن وضعوا لها النعال في أرجلها لتقي
حوافرها من الصخور والأرض الصخراوية. يقول زهير:

تهوى على ربذات غير فائرة *** تحذى وتُعقد في أرساغها الخدم^(٦)

(١) ديوان عبيد الأبرص، ص ٥٠ - الحقب: الحزام - النهدي: المرتفع - الفذال: ما بين الأذنين من مؤخر
الراس - غير ملواح: اي لا يعطش سريعاً - السحق: البالي - البرد: الثوب - اراد تشببية المهره بالثوب
البالي اي انها قديمة العهد بالغزوات اي مجربة

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٦.

(٤) ديوان الأعشى، ص ١١٢.

(٥) العمدة بن رشيق، ج ١ ص ٢٩.

(٦) ديوان زهير، ص ١٣١ - الربذات: السريعات الدفع والوضع - الخدم: سيور تشد بها النعال.

فهي فخر ووسيلة للصيد والطرْد وزينة وكسب الرزق ووسيلة في الحرب،
وقد صور القرآن الكريم أهميتها فأقسم بها الله تعالى فتثير النقع وتتوسط الجمع في
الحرب ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾^(١). فصوروها لخوض الحروب.

(١) سورة العاديات الآيات ١-٢.

الثور – البقر الوحشي والصحراء:

والبقر الوحشي جاء ذكره كثيراً في ثنايا قصائد زهير ولبيد والنابعة، وطرفة، والأعشى، فكلها متشابهة في تناولها للبقر الوحشي والثور الوحشي وتثير الصراع بين الثور الوحشي والكلاب والصيد وكأنه يعكس الصراع بين الإنسان والطبيعة الصحراوية وذلك انعكاس لما يجده الإنسان من عنت ونصب في الحياة، ولبيد جاء في إحدى قصائده يصور تلك البقرة البائسة التي أكل طفلها السبع وما تلاها من صراع والتي جاء فيها:

أفتلك أم وحشية مسبوعة *** خذلت وهادية الصوار قوامها^(١)

ويذكرها أيضاً زهير في قوله:

بها العين والآرام يمشين خلفه *** وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم^(٢)

وجاءت الصورة عند امرئ القيس بتشبيهه بقر الوحش في مشيتها وبياضها وبريقها بالعداري يقول:

فغنّ لنا سرب كأن نعاجه *** عداري دورا في ملاء مذيل^(٣)

ويقول النابغة الذبياني يصور الثور الوحشي في إحدى قصائده:

قابل الريح روفيه وجبهته *** كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما^(٤)

وقال أوس بن حجر:

وانقض كالدرى يتبعه *** نقع بثور تخاله طنبا

(١) ديوان لبيد، ص ١٧١ ، أفتلك: أي تلك الأتان هي التي تشبه ناقتي أم تشبهها بقرة وحشية، مسبوعة:

المسبوعة التي أكل السبع ولداها فهي مذعورة: خذلت: تأخرت عن القطيع، الصوار: القطيع من البقر، قوامها: يعني أنها تهتدي بأول القطيع.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٤. العين: البقر، الآرام: الظباء، خلفه: إذا مضى فوج جاء آخر، الطلاء: ولد البقرة، جثم: ربط.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٠ - عن: عرض - السرب: قطع البقر - النعاج: البقر والوحشي - عداري دوار: ابحار مترهبات يدرن حول صنم - الملاء المذيل: الثياب الطويلة الذيل

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ١١٠.

يخفى وأحياناً يلوح كما *** رفع المنير بكفه لهبا^(١)

ولما كانت القوة هي إحدى ركائز حياتهم أنت أيضاً في تصوير الثور الوحشي فهو شجاع يقاثل ويدافع عن نفسه، ويكره الفرار لأنه عار. يقول النابغة:

فكر محمية من أن يفر كما *** كر المحامي حفاظاً خشية العار^(٢)

فهو يحمي كرامته والحامي هو الشجاع الذي يحمي العشيرة.

ونلاحظ أن عند كل شاعر جاهلي قصيدة أو قصائد تتحدث عن الثور الوحشي وقصته مع الحياة الصحراوية وفي كل الأحوال التي تأتي فيها صورة ثور الوحش يصفه الشاعر بالسرعة والقوة والبساطة ومقاومة الصعاب ومجاهبتها بل يكاد ينفرد ثور الوحش باهتمام خاص لدى الشاعر الجاهلي في الصحراء، وهو غالباً ما تأتي صورته منفرداً عن قطيع الوحش فيصفون قوته وعنفوانه ولونه وقوائمه، وغالباً ما يكون أبيض اللون فتتكاثف عليه السحب ويرعد الرعد ويلمع البرق ويهطل المطر ويندفع الثور إلى الاحتماء بأكناف الأشجار، وغالباً ما تكون شجرة الأروى لضخامتها فحفر تحتها كناساً بأظلافه الصلبة ويبقى ساكناً ويكاد السيل يغرقه، وتأخذ قطرات الندى تتساقط على ظهره فيلقى ليله مؤرقاً وما أن تتبدد أستار الظلمة وينكشف الظلام حتى يظهر الصياد ومعه كلابه الضامرة المدرية فيفر الثور هارباً مدافعاً عن نفسه، وما أن يشعر باقتراب الظفر حتى ينعطف على الكلاب طعناً في غورها فتتساقط صرعى ويخرج الثور من المعركة منتصراً. ثم يقوم الشعراء بعد وصفه الحسي أو التجسيدي يصفون خوفه وهلعه وتردده وثورته وغضبه وقوته... إلخ هذه هي الخطوات العريضة التي جاءت في وصف الشعراء للثور الوحشي في كثير من قصائدهم تحمل نفس هذه المعاني والمفاهيم والمعطيات وهي بالطبع تصور البيئة الصحراوية بكل مكوناتها المادية والمعنوية والنفسية.

فهذه القوة والسرعة يتمثلها الشاعر في ناقته وشبه بها فرسه وهذه الصور المستتبطة من هذا الثور وقصته وتصويره نجد التالي:

(١) ديوان أوس بن حجر، ص ٣-٤.

(٢) ديوان النابغة، ص ٢٣٨.

- ١- أن هذا الثور يوصف منفرداً ولم يكن مع قطيع من جنسه أو غيره في القصيدة.
 - ٢- تظهر صورة الثور وهو مطمئن قبل هطول الأمطار وبزوغ الفجر عليه.
 - ٣- نجد صورة الثور غير عدواني فهو مسالم ولكنه يدافع بقرنيه عن نفسه عند وجود العدو وهجومه عليه.
 - ٤- امتداد المخاطر عليه من هطول الأمطار ونزول الصقيع عليه ثم إغارة الصياد والكلاب عليه.
 - ٥- يلوذ الثور بشجرة الأرتى ويبرز الثور بعد وصف الناقة بصورة القوة المكتملة.
 - ٦- يقابل الشعراء صورتين الحياة والموت فصورة الكلاب التي تريد الموت للثور والثور الذي يريد الحياة بالنجاة والدفاع عن نفسه.
 - ٧- نزول المطر على ظهر الثور فيزيده بياضاً كأن الشاعر يريد له ذلك.
 - ٨- في الغالب تأتي صورة وذكر الثور الوحشي بعد الحديث عن الرحيل ووصف البيئة الصحراوية ومفرداتها.
- "فالحياة الجاهلية في الصحراء حياة قلق واضطراب في تلك البيداء التي تظهر فيها النجوم الساهرة التي تطل عليها والإبل والخيل التي تساعدهم على الانتقال... ولا نجد باباً من أبواب القول ولا مجالاً من مجالات القريض ولا ناحية من نواحي البيان إلا ولها بحياتهم مساس وبمعيشتهم صلة وبسلوكهم ارتباط ووجدانهم نسب"^(١).

(١) بحوث في الأدب الجاهلي، الأستاذ إبراهيم أبو الخشب، د. أحمد عبد المنعم البيه، الطبعة الأولى، ١٩٦١م، مطبعة لجنة البيان العربي، ص ٣٦.

الطيور والصحراء:

حملت القصائد الجاهلية عدداً من أنواع الطيور معبرة عن ميزاتها وصفاتها وما تقوم به من تصوير وتلوين للحياة البدوية، فقد جاءت في حنايا قصائدهم تحمل آمال وآلام البدوي فهي شريكه في الصحراء العربية ولذلك أتت كغيرها عن مفردات البيئة الصحراوية الحية.

تفرس البدوي وتتبع حياتها وخصالها وأشكالها فأوردها في كثير من قصائده مشبهاً بها وواصفاً لعاداتها وأماكن تواجدها فكانت ذخيرة ضمن مكونات الصحراء في أشعارهم وهنا نورد أمثلة لها ما وردت في بعض قصائدهم في أبيات تحمل معاني ودلالات وصفات تساعد في تقريب الصورة إليهم، والنعام إحدى طيور الصحراء التي جاءت في أشعارهم، وقد ضربوا بها المثل في الجبن وهو من العادات المذمومة لديهم والشجاعة مطلوبة للدفاع عن النفس والعرض والأرض وحمى القبيلة، وجاء في المفضليات أن أوس بن غلفاء يهجو خصومه قائلاً:

وهم تركوك أسرع من حبارى *** رات صقراً وأشرد من النعام^(١)

وأتى ذكرها كثيراً في باب الهجاء وقد كثرت المترادفات حولها فالحارث بن حلزة يستعين على الهم بناقة مسرعة خفيفة.

بزفوف كأنها هائلة أم *** رئال دويبه سققفاء^(٢)

ومثلما وصفوا النعام بالجبن ووصفوه عند بيضه برباطة الجأش. قال الأعشى يمدح النعمان بن المنذر ويصف ثياب جيشه قائلاً:

بملومة لا ينفذ الطرف عرضها *** وخيل وأرماح وجند مؤيد

كأن نعام الدوِّ باض عليهم *** إذا ريع شتى للصريخ المندد^(٣)

(١) المفضليات: المفضل الضبي ص ٣٢٠ .

(٢) ديوان الحارث بن حلزة ص ٢١ .

(٣) ديوان الأعشى، ص ٥٠. الدو: القفر، الصريخ: من يطلب الإغاثة.

وجاء ذكر الوعل في الشعر العربي في أبيات متفرقة لدلالته على القوة،
ومجابهة الشدائد فقد وصف النابغة الذبياني منزلته بين قومه ومكانتها بساكن الجبل
الأشم الذي تنزل منه الوعول على الرغم من استطاعتها السكن فيه يقول:

تزل الوعول العصم عن قذفاته *** وتضحى ذراه بالسحاب كوافراً^(١)

وأما الذئب فقد ورد في أشعارهم لأوصاف عدة منها الخفة والسرعة وقد بدأه
امرؤ القيس بقوله:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة *** وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٢)

وأما الشاعر الشنفرى فقد أثر صداقة الذئب لأنه يعتبره أحرص على القيم
يقول:

لعمرك ما في الارض ضيق علي امرى *** سرى راغباً او راهباً وهو يعقل
ولي دونكم اهلــــون سيد عملس *** وأرقط زهلول وعرفاء جبال^(٣)

وأما الثعلب فقد ورد في أشعارهم بصفة المراوغة وهي صفة اكتسبها من
حياة الصحراء، قال طرفة لعمرو بن هند يلوم أصحابه لخزلانهم إياه.

كل خليل كنت خالته *** لا ترك الله له واضحه

كلهم أروغ من ثعلب *** ما اشبه الليلة بالبارحه^(٤)

أما الضبع: فقد ورد ذكره وهو من الحيوانات التي ولعت بأكل جيف الموتى
والعبث بها، قال الأعشى يذكر قيس بن مسعود بالقتلى الذين بعثرت جثثهم في
الصحراء فعبثت بها الضباع والذئاب.

كأنك لم تشهد قرابين جمة *** تعيث ضباع فيهم وعواسل^(١)

(١) ديوان النابغة، ص ١٣٣ . العصم : بياض في ايديها - قذفاته : نواحية يريد نواحي الجبل - كوافراً : اي
متغطية .

(٢) ديوان امرؤ القيس، ص ١١٩ .

(٣) لامية العرب للشنفرى، ص ٩ .

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٣، لا ترك الله له واضحه: لا ترك له سناً واضحه، الوضوح: البياض، أروغ:
حاد عنه.

وأما الأسد فقد جاء ذكره مطابقاً لصفة الشجاعة التي يطلقونها عليه فيذكر زهير
بشجاعة فتیان قومه يقول:

عليها أسود ضاريات لبوسهم *** سوابغ بيض لا يخرقها النبل^(٢)

والطيور التي وردت في أشعارهم وصفوا بعضها بالجلد وأخرى بالقوة
وأخرى نعتوها بالعطف وأخرى عبروا عنها بصفة الحنين يصف سلمة ابن
الخرشب خصومه الذين هربوا فيشبههم بالعقاب في جناحها استرخاء يقول:

فلو أنها تجري على الأرض أدركت *** ولكنها تهفو بتمثال طائر
خُدارية فتخاء أثلق ريشها *** سحابة يومٍ ذي أهاضيب ماطر^(٣)

وتوصف العقاب بأنها تسكن الأعالي من الجبال ولهذا كان مسكنها مضرباً
للمثل في العلو والإشراف يقول امرؤ القيس :
ومرqb تسكن العقبان قلاته *** أشرفته مسفراً والنفس مهتابه
عمداً لأرقب ما للجو من نعم *** فناظر رائحاً منه وعزابه^(٤)
أما الغراب فقد تشاءم منه العرب في الصحراء وقد ارتبطت أشعارهم به
واعتبروه دليل الفرقة قال عنتره:

ظعن الذين فراقهم أتوقع *** وجرى بينهم الغراب الأبقع
حرق الجناح كأن لحي رأسه *** جلمان بالأخبار هش مولى^(١)

(١) ديوان الأعشى، ص ١٣٨. العواسل: الذئاب.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٠٢ - ضاريات : اي متعودات للحرب يعنى الفرسان - السوابغ :
الدروع الواسعة لا ينفذها النبل .

(٣) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الأول، ص ٣٥.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ٤٦ - المرqb المكان المرتفع - قلاتة : راسة - اشرفته : علوته - مسفراً : عندما
اسفر الصبح - مهتابة : وجلة - عزابه : جمع عازب وهو البعيد .

وقد مدح عنتره سواده بقوله:

فيها اثنان وأربعون حلوبة * سوداً كخافية الغراب الأسحم^(٢)**

وكما جاء ذكر الغراب في سياق التشاؤم أيضاً تشاءموا من البوم وهو أيضاً يسكن الصحراء والأماكن النائية.

وأتي في سياق الفخر أيضاً للشاعر الذي يصل لهذه الأماكن النائية التي يسكنها البوم، قال المرقش يصف رحلته وهو يقطع الصحراء وحده:

وتسمع تزقاع من البوم حولنا * كما ضربت بعد الهدوء النواقر^(٣)**

والحمام يقترن اسمه وورد في كثير من الأحيان بالنواح والحنين فوجدوا فيه دليل لإثارة لواعجهم ومشاعرهم. يقول عنتره:

طال الثواء على رسوم المنزل * بين اللكيك وبين ذات الحرمل**

أفن بكاء حمامة في أيكّة * ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل^(٤)**

ومن الحيوانات المعروفة التي ورد ذكرها في أشعار الجاهليين الأرام وهي جمع رئم وهو الطبي الخالص البياض. يقول لبيد:

زجلاً كأن نعاج توضح فوقها * وظباء وجرة غطفا آرامها^(٥)**

ولذلك نجد كثيراً من الحيوانات والطيور وأوردت بعضها على سبيل المثال لأن الصحراء بوسعها وتمدها تحوي عدداً من الحيوانات والطيور التي عاشت مع البدوي فعرفها وعرفته فتفاعل معها ملبياً نداء الجوار والعيش السوي، فوجدت فيها

(١) ديوان عنتره بن شداد، ص ٨٤ - حرق الجناح : اي قد نسلة شعرة وتقطع ، وصفه بهذا تطيراً به - الحرق : الذي لايقوي علي النهوض - اللحيان : جانبا الوجة - الجلم : مايقص به - شبة منقارية اذا صوت بالجلمين لانه اراد تفريقه وقطعة

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٩ .

(٣) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، ص ٢٢٥ .

(٤) ديوان عنتره بن شداد، ص ٩٧ - الثواء : الإقامة - اللكيك ، ذات الحرمل : موضعان - الايك : الشجر الملتف

(٥) ديوان لبيد، ص ١٦٦، زجلاً: جماعات ، عطفت: ثائية اعناقها، وجرة: اسم بلد : توضح: اسم موضع .

بعض الصفات التي يحبها البدوي ويحبها، ولذلك ورد ذكرها من خلال ذكر
الحيوان.

المبحث الثاني

الطبيعة الساكنة (الصامتة)

اهتم الشعراء بالصحراء أيما اهتمام لأهميتها كيف لا وهي الموطن والنشأة والحياة، فصاغوا أشعارهم على وحيها وبددوا ظلم الليالي وقسوة الحياة بقصائدهم فأتت صورة فنية تحمل عبق الأرض ورائحة الرمال والكثبان ووصفو السماء وصوت الرعد ووميض البرق وهدير الرياح وبعد السراب، وفي بهيمها عتمة الليل وبريق النجوم وحفيف الأشجار والحشائش وفي دجنها الأوتار وكثير من المفردات التي سكنت امتدادها وما فتئ الشاعر البدوي يتناول هذه المفردات ويعبر من خلالها عن فرحه وترهه وخوفه وسكونه، متناولاً لها صيغ تعبر عن مدى الإدراك والفكر الثاقب، والنظرة الفاحصة التي تمتع بها البدوي في التشبيه وتماتل الدلالات وتبيانها، فيأتي بها متناولاً لها أبيات متفرقة من القصيدة بمثابة ركائز في القصيدة تطوف حول حمى الصحراء وامتدادها، "فتصورا للجن أشكالاً مختلفة تتمثل للناس في صورة حيوان كالقط أو القنفذ أو النعامة أو الثعبان"^(١).

ومن الأوصاف التي أوحى بها الصحراء الي الشعراء وصف البيئة من برق وسحاب ومطر ورياح .. الخ فأتى خيالهم مع امتداد الأرض التي جال حولها العربي في ترحاله المستمر (وتصورا مساكن كانت تعد مواطن خطر ورعب كأجواف الصحراء وسفوح الجبال، وموارد المياه وملتف الأشجار وزعموا انها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات)^(٢).

ولا أريد أن أخوض كثيراً في مثل هذه الأوصاف التي وردت في كتب التراث وأنت في كثير من الروايات التي حكيت حولها وبعض التخيلات التي وردت حولها ولكن من المؤكد أنه يوجد في الفلوات و الصحراء حتى بلغ بهم أن قاموا بعبادة الجن. يقول تأبط شراً:

(١) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص ٤٩.

(٢) مروج الذهب، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر،

الطبعة الخامسة، ١٩٧٢م، ج ٢ ص ١٥٥.

فأصبحت والغول لي جارة * فيا جارتى أنت ما أهولاً^(١)**

وفي القرآن العظيم إشارات واضحة إلى ذلك قال تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ^(٢) .

فقد وقف كثير من الشعراء عند عدد من مفردات الصحراء، ولنقف عند بعض تلك التي وقف عندها الشعراء كثيراً مثل ، الرمال وهي من المفردات التي كثر الحديث عنها في أشعارهم فوقف امرؤ القيس عند رملة حومل فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٣)**

وسقط اللوى هنا ذرات الرمل المتراكمه بين موضعي الدخول وحومل .
وأشار إليها طرفة وهو يصف ناقته قائلاً:

مؤلتان تعرف العتق فيهما * كسامعتى شاةٍ بحومل مفرد^(٤)**

ورملة عالج التي ذكرها زهير (وهي بين فيد والقريات علي طريق مكة) في قوله:

يهد له ما بين رملة عالج * ومن أهله بالغور زالت زلازله^(٥)**

وكرر ذكرها لبيد في قوله:

جاوزن فلجاً فالحزن يُدلجـ * من بالليل ومن رمل عالج كُتُبا^(٦)**

ويقول النابغة ذاكراً ومشبهاً جسم محبوبته بدعص الرمل الهاري في قوله:

يلاث بعد افتضال الدرع منطقتها * لوثاً على مثل دعص الرملة الهاري^(٧)**

(١) ديوان تأبط شراً ص ٤٩

(٢) سورة سبأ الآية ٤١ .

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص ١١٠ .

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٩ .

(٥) ديوان زهير، ص ١٢٥ .

(٦) ديوان لبيد، ص ٢٠. فلج: اسم موضع، الحزن: أرض غليظة، كُتُبا: مرتفع من الرمل.

(٧) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٥. تلوث: تلف ثيابها، الدعص: فهو يشبه أردافها بكتبان رمل والدعص كومة الرمل.

وإن أغلب ما ورد ذكره في أشعارهم حول الرمال جاء في أثناء حديث الشعراء عن تشبيهه بارداف محبوباتهم أو الأطلال أو وصف الناقة وإنما جاءوا بذلك لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في أرض صلبة ليكون أثبت لأوتاد بيوتهم وتكون الأرض الصلبة عندما تلتوي الرمال وترق، وصوروا صوت الرمال إذا هبت الريح وشبهوا بها بعض أعضاء المرأة بالكثيب والدعص لما فيها من نقاء ورقة.

والكثبان الرملية في امتداد الصحراء توجد بعضها متناسق وأخرى في أشكال مختلفة، ولذا وقف عندها الشعراء كثيراً فصوروها وشبهوا بها، فأتى خيالهم بوصفها وحددوا أبعادها فوصفوا ما استطال منها بالجبل وما اعوج منها سمي كثيباً، وما استدار منها دعصاً، وفي تشبيههم للرمل في شكله ولونه نظرة ثاقبة لتتبع آثار الصحراء ومفرداتها وتتبى عن براعتهم ومقدرتهم في تتبع المنظر أو الشكل الذي يسقط عليه نظرهم وهو بالطبع من صميم مكتسبات البيئة الصحراوية. ويشبه الأعشى أرداف صاحبه وثني الرداء فوقها بكثيب الرمل الذي يكاد ينهار يقول:

رودافه تثني الرداء تساندت * إلى مثل دعص الرملة المتهيل^(١)**

والكثيب هو رمل يجتمع في الصحراء بأشكال مختلفة أعجب كثيراً من الشعراء ولذلك شبهوا به أجسام محبوباتهم لما فيه من الرقة والصفاء. أما الجبل عند الشاعر الجاهلي فهو مظهر من مظاهر الحياة الرفيعة عنده، والجبل في الصحراء يمتد طويلاً وعرضاً فيذكره الشعراء بالعلو والرفعة والصلابة والأنفة، فالشعراء الصعاليك الذين اتخذوا من الجبال بيوتاً يأوون إليها وملجأً لحمياتهم، وبعض الجبال تشققها الوديان ووادي الخزامي أحد مظاهر الوديان التي هام بها امرؤ القيس حينما تذكر سلمى في ذلك المكان، فارتبط بالوادي وهي تدنو بعينها إلى شادن يتبع أمه أو تتراءى له واقفة قرب بئر تعودت أن تأتيها في موضع يسمى ذات حرمل يقول امرؤ القيس :

(١) ديوان الأعشى، ص ١٤٠ .

وتحسب سلمى لأ تزال تري طلاً *** من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا *** بوادي الخزامي أو على رس أوعال (١)
والجبال تعتبر وكراً للطيور الجارحة والعقبان الكاسرة فهي شاهقة قوية، ولذلك
استمد منها البدوي هذه المعاني فأمرؤ القيس يصور ويحس أن للليل إسرافاً في
الطول حتى ليظن أن نجومه شدت ببزبل فهي ثابتة ثبات الجبال قال:

فيا لك من ليل كأن نجومه *** بكل مغار الفتل شدت ببزبل (٢)

وللجبال كثيرٌ من المعاني والصفات المستمدة منها كالعظمة والرفعة والقوة
والثبات والصبر أيضاً وهي معالم بارزة وشواهد وذكريات للشعراء في الصحراء،
وذكر عدد من أسماء الجبال في ثنايا قصائدهم وهم يقطعون المفاوز والصحارى،
وقد دلتهم على قطعها واختراقها، ومن أبرزها جبال الحجاز، وجبال السراة الممتدة
من اليمن جنوباً إلى أطراف الشام شمالاً وكما ذكرت كانت الجبال ملاذاً للصعاليك
ولذلك كثر حديثهم عنها، ويصور أحدهم جلسته في قمة جبل يترصد ويرقب
ويجلس في قمة الجبل يقول:

ومرقة يحار الطرف فيها *** تزل الطير مشرفة القزال
ولم يشخص بها ترقى ولكن *** دنوت تحدر الماء الزلال
أقمت بريدها يوماً طويلاً *** ولم أشرف بها مثل الخيال
ومقعد كربة قد كنت فيها *** مكان الأصبعين من القبال (٣)

والمرقة من علوها تحار العين فيها من بعدها ولكن الشاعر لم يرهبها
وعرف طريقه لها فكان كالماء الذي يهتدي لمنحدره ويستتر فيها حتى لا يره أحد
ويظل على الأرض كالخيال، وتوسط هذا المكان فكان كقبال النعل حيت يتوسط
الأصبعين وهذا دلالة على بديع التصوير لديهم.

(١) ديوان امرئ القيس. ص ١٢٣ طلاً: ولد الطيبة. ميثاء: ميل الوادي، رس: بئر، أوعال: هضبة يقف بها -

محلال : يكثر نزول الناس فيها

(٢) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٣) شرح أشعار الهذليين، ص ٢٢٣. القزال: الرئيس، بريدها: حرفها أو جانبها.

صورة السراب في امتداد الصحراء ووديانها:

لم يترك الشعراء شيئاً يُرى أو يُسمع أو يتخيل في تلك الصحراء إلا وصاغوه في أشعارهم وأتوا بأوصافه وصوروه وعقدوا أوجه الشبه بينه وبين ما يريدون تشبيهه.

ومن أبرز مظاهر الصحراء وجود السراب عند ارتفاع درجة الحرارة فيها ولذلك وصفوا مدى ارتفاعه عند النظر إليه وهو مظهر من مظاهر الصحراء نهاراً ، ثم يصفون رحلتهم في ذلك الهجير فيضفون عليها صفات القوة والصبر والتحمل لإبلاهم ولأنفسهم وحتى في تصويرهم للجبال في الفضاء الرحب يختارون لأوصافهم وسط النهار وشدة الحرارة وظهور السراب فتتراقص فيها أجزاء الصور كأنها مجاميع من شجر الدوم أو مثل السفين، يقول امرؤ القيس:

فشبهتهم في الآل لما تكمشوا *** حدائق دوم أو سفيناً مقيراً
أو المكرعات من نخيل ابن يامن *** دوين الصفا اللاتي يلين المشقرا^(١)

وكان أغلب ما ذكر في السراب من خلال أحاديثهم من النوق وجيدها وجلدها. يقول زهير يصف ظعناً في الصحراء في قصيدة يمدح فيها هرم بن سنان يقطن أميال أجواز الفلاة كما *** يغشى النواتي غمار اللج بالسفن
يخفضها الآل طوراً ثم يرفعها *** كالدوم يعمدن للإشراف أو قطن^(٢)

ونجد كثيراً ما صوروا الديار وأشكالها ووصفوها بوديانها ومنخفضاتها تلك مراتعهم وأماكن أنسهم وطرق ترحالهم وإقامتهم، فالأودية جزء من الصحراء فهي منخفضات وسط الصحراء تجري من مكان مرتفع لمنخفض تصب فيها

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ٦٠ . الآل : السراب يرى في أول النهار عند ارتفاع الضحى، تكمشوا: أخذوا في سيرهم وجدوا فيه، السفين المقير: وهو المطلي بالقار يعني الزفت، المكرعات من النخيل: أي النخل النابت على الماء ، ابن يامن: اسم لرجل كان له نخيل، المشقر: هو حصن بين النجران والبحرين.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٠٩ - الميل القطعة من الارض مد البصر - اجواز : اوسط - النواتي : الملاحون -الواحد نوتي

مياه الأمطار، وقد جاءت متعددة في أشعارهم يتناولونها وغالباً ما تأتي في ذكر المحبوبة والشوق إلى ديارها التي تتواجد فيها وتقوم الأودية المتشعبة بين جبال الجزيرة العربية بمهمتين أرسل المياه عند نزول الأمطار من منحدرات الجبال الي البحر والفيافي وكونها تضم معظم الاراضي الخصبة التي نزلت حولها القبائل واقامت عندها منازل لها وخيام . ووفرة المياه في هذه الأودية هي التي حملت الجاهليين علي سكن هذه الوديان والنزول بها يقول زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة *** فهنّ وادي الرس كاليد في الفم
ظهرن من السوبان ثم جزعنه *** على كل قينى قشيب ومفأم^(١)

ويقول امرؤ القيس يذكر وادي الخزامي وهو احد الأودية في الصحراء:

وتحسب سلمي لاتزال كعهدنا *** بوادي الخزامي أو على رس أوعال^(٢)

ولعل سكن هؤلاء البدو حول هذه الأودية لما فيها من خصوبة وإنبات العشب ومرابع المياه حتى تسهل حياتهم فيها، كما اقترنت بعض الوديان بأيام قتال وحرب، وفي فصل الخريف تنعم هذه الوديان بالماء والكأ وهي راحة من عناء النهار وحرّه. يقول امرؤ القيس:

فأتبعتهم طرفي وقد حال دونهم *** غوارب رمل ذو آلاء شبرق^(٣)

وقد أثارت الوديان الهواجس في نفوس البدو وخاصة عندما توسطوا الصحراء وقد حيك حولها كثير من الحكايات والأساطير وخيل أن بها الجن فطفق بعضهم يصور أصوات الجن وعزيفه. يقول زهير:

(١) ديوان زهير، ص ٣٧-٣٨. قين: خشب طويل يكون تحت الهودج.

(٢) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢٣ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣- فاتبعهم طرفي : نظرت أليهم طويلاً - غوارب رمل : إعالي هضاب - الآلاء : شجر ينبت في الرمل - الشبرق : نبات تأكله الدواب لخشونته .

وبلدة لا ترام خائفة *** زوراء مغيّرة جوانبها

تسمع للجن عازفين بها *** تصبح من رهبة تعالبا

يصعد من خوفها الفؤاد ولا *** يرقد بعض الرقاد صاحبها^(١)

وقال الأعشى يصور نفس هذا الموقف بقوله:

ويهماء تعزف جناتها *** مناهلها أجناتٌ سدُم^(٢)

ونجد أكثر الأودية وروداً في أشعارهم وادي أضم وهو في منطقته الحجاز ولعله يكون مأهولاً بالناس لما فيه من عشب قال طرفة يذكر محبوبته:

لخولة فالأجزاء من أضم طلل *** وبالسفح من قوِّ مقامٍ ومحمّل^(٣)

ويذكر هذا الوادي النابغة أيضاً ذاكراً محبوبته سعاد في قوله:

باتت سعاد وامسى حبلها إجنما *** واحتلت الشرع فالأجزاء من إضما^(٤)

وهناك عدد من الأودية التي وردت أسماؤها في الشعر العربي اتسمت بالخصب والخير الوفير وطيب مسكنها وعذوبة مائها كوادي أضم ووادي مطرق، ووادي الأحص، وغيرها من الأودية التي حفلت بها أشعارهم.

وقد ورد في أشعارهم ذكر الديار وهي الأماكن التي يتخذها العرب دمرأ لهم يقيمون فيها، وقد كثر ذكرها في أشعارهم.

وأورد صاحب التاج حوالي مائة واثنتي عشرة دارة في الصحراء^(٥).

ومن أشهر هذه الديار دار جلجل ودارة المرورات التي ذكرها زهير في قوله:

تربص فإن تقو المروراة منهم *** وداراتها لا تقو منهم إذا نخل^(٦)

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٩٤

(٢) ديوان الأعشى، ص ١٩٨.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٥. خولة: بنت عم الشاعر، الأجزاء: منعطف الوادي، أضم: اسم واد، السفح من الجبل: أصله وأسفله، قو: وادٍ، مقام: إقامة، محمّل: ارتحال.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٠٥.

(٥) تاج العروس للإمام اللغوي السيد حمد مرتضى الزبيدي، دار صادر، بيروت، ٢١٣-٢١٧، مادة (دار).

(٦) ديوان زهير، ص ١٠٠.

وإن أغلب هذه الدارات كانت تذكر لحوادث تاريخية حصلت في الصحراء
واشتاقت نفوسهم لتلك الأيام الخاليات التي يذكرونها.

وأيضاً جاء ذكر البرق وهي أيضاً ديار يقيم فيها البدو وبها حجارة برق
ملونة، كما جاء في معاني الأبيات التي حملتها، وكانت تتخذ أماكن للاستقرار وإقامة
القبائل، ومن أشهرها برقة ثهد التي افتتح بها طرفة معلته يقول:

لخولة أطلال ببرقة ثهد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد^(١)**

وهناك عدد من البرق التي ورد ذكرها في أشعارهم والتي تعبر عن مدى حُبهم
لديارهم ومساكنهم في الصحراء وتسلسل الذكريات في مخيلتهم كلما طاف خيالهم
بالماضي.

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٣.

النباتات الصحراوية في الشعر الجاهلي:

احتضنت الصحراء أشجاراً ونباتات معينة بعضها يتحمل البيئة الصحراوية الجافة من شدة وحرارة وبرودة وقلة مياه، فنبت طول العام وبعضها ينبت إبان الربيع بعد هطول الأمطار، وقد وردت أسماء كثيرة من الأشجار والنباتات وأصنافها في الشعر العربي لا سيما الجاهلي منه الذي حمل نوع وشكل وصفات تلك النباتات الموجودة في الصحراء فهي مصدر رزق لحيواناتهم واستخدموا بعضها في طعامهم كالنخيل وزروع أخرى واستعانوا ببعضها في حياتهم وأعمالهم ووظفوا أغصانها في صنع الرماح والسهام والعصى، وخشبها في صنع الهودج ووقود النار إضافة للعشب والكلأ، وذلك من المنافع التي أحسن العربي استخدامها في الصحراء. وقد أتت أسماء هذه الأشجار في ثنايا القصائد وهي تعبر عن البيئة والمكان وأتت غالباً في أغراض الغزل والوصف، ونورد بعض الشواهد التي أتت في أشعارهم وتعبر عن مواقف مختلفة:

النخلة:

هي شجرة الصحراء وغذاء البدوي فاقتخرت بها العرب. يقول الأعشى:
وقتلى كمثل جزوع النخيل *** تغشاهم مسيل منهمر^(١)

ومن هذه الأشجار الشرى وهو شجر صحراوي يفترش الأرض شديد المرارة ويقال له الحنظل. يقول أوس بن حجر:

ألم تريا إذ جئتما إن لحمها *** به طعم شرى لم يهذب وحنظل^(٢)

(١) ديوان الأعشى، ص ١٠٣. مسيل منهمر: مطر غزير.

(٢) ديوان أوس بن حجر، ص ٣٠. لم يهذب: لم ينقى.

ومن نبت الصحراء الخزامي وهو نبت ربيعي طيب الرائحة واحدته خزاماه. قال امرؤ القيس:

كأن المدام وصوب الغمام *** وريح الخزامي ونشر القطر^(١)

وكان العرب في الجاهلية يأكلون لب الهبيد. قال امرؤ القيس:

كأني غداة البين يوم تحملوا *** لدى سمرات الحي ناقف حنظل^(٢)

والأقحوان من نبات الربيع طيب الرائحة يشبه به الأسنان وهو معروف في الصحراء. يقول ذو الرمة:

إذا أخذت مساوها صقلت به *** ثنانيا كنور الأقحوان المهطل^(٣)

العرفج:

وهو نبات ينبت في الصحراء وينمو في السهول على ضفاف الأودية له زهر أصفر ورائحة طيبة تأكله الإبل. يقول الراعي النميري^(٤):

كدخان مرتجل بأعلى تلعة *** غرثان ضرم عرفجا مبلولا^(٥)

الخمخم:

(نبات صحراوي تأكله الإبل). قال عنتره:

ما راعني إلامولة أهلها *** وسط الديار تسف حبّ الخمخم^(٦)

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ٦٩. صوب الغمام: وقع السحاب، نشر القطر: رائحة القطر وهو العود الذي يتبخر به.

(٢) المصدر السابق، ص ١١١. ناقف حنظل: الذي يستخرج حبه يريد ان دموعه سالت عند فراق من احب كما تسيل دموع ناقف الحنظل رغماً عنه.

(٣) ديوان ذي الرمة، ص ٥٠٩، نور: زهر، المهطل: أصابه المطر.

(٤) الراعي النميري: هو عبيد بن حصين بن معاوية ويلقب بالرعي النميري شاعر له ديوان شعر، توفي سنة ٩٠ هـ الموافق ٧٠٩، لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل، عاصر جريراً والفرزدق — أنظر معجم المؤلفين عمر رضا كحالة، ج ٢ ص ٣٥٥ — الأعلام الزركلي ج ٤ ص ١٨٨.

(٥) ديوان الراعي النميري، شرح د. واضح الصمد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص ٢١٢ المرتجل: الجراد، التلعة: ما ارتفع من الأرض. الفرثان: الجائع: نوع من النباتات. يتابع الشاعر وصف ذئب فيقول: إن لونه يشبه دخان رجل جائع أصاب جراداً فأشعل النار بأعواد العرفج المبلول.

(٦) ديوان عنتره بن شداد، ص ١١٩، راعني: أفزعني، الحمولة: الإبل التي يحمل عليها.

العرار:

نبت طيب الرائحة واحدته عرارة لونه أصفر^(١). قال الأعشى:
بيضاء صحتها وصـ *** فراء العشيية كالعرارة^(٢)

الحرمل:

شجر دائم الخضرة صحراوي ينبت في السهول مر الطعم تعافه الدواب^(٣).
قال طرفة يذم قوماً:

هم حرملٌ أعي على كل آكلٍ *** مبير ولو أمسى سوامهم دثراً^(٤)

القرظ:

شجر يدبغ به الأهب "الجلود" في أرض العرب وأغصانه لدنة طويلة^(٥).

القيصوم:

نبت في القيعان والرياض وشفاف الأودية يعد من رياحين الصحراء، له
نور أصفر^(٦). قال جرير يمدح أبا شاعر مسلمة بن هشام:

ما هاج شوقك من عهود رسوم *** بادت معارفها بزى القيصوم^(٧)

(١) ديوان الأعشى، ص ٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ١١١.

(٤) المصدر السابق، ص ١١١. الحرمل: الذي لا يقدر الأكل عليه يعني تعذر معروفهم وقلة تسهلهم، مبيراً: أي مهلكاً البوار الهلاك، الدثر: الكثير الذي لا يحصي كثره.

(٥) لسان العرب، ج ١٢ ص ٧٤. مادة (قرظ).

(٦) ديوان جرير شرح يوسف عيد دار الجيل بيروت الطبعة الأولى، ص ٦٦٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٦٦٦.

العشرق:

نبات صحراوي يفترش الأرض ويستعمل كدواء وله عناقيد يكون فيها الحب
فإذا يبست وهبت عليها الرياح تسمع لها صوتاً^(١).

قال الأعشى يصف صاحبه هريرة:

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت *** كما استعان بريح عشرق زجل^(٢)

المرخ:

نبات صحراوي تأكل ثماره الإبل^(٣). وقد مدح الأعشى قيس بن معديكرب
في تضاعيف قصيدته:

زنادك خير زناد الملو *** ك خالط منهن مرخ عقاراً^(٤)

الأقحوان:

شبه به الثغور لبياضه وقد اقترن وصفهم للثغور وتعرضهم للإفاح بصورة
الضحك والابتسام فأوراقه صغيرة ومفلة^(٥). قال طرفة يصف ثغر صاحبه:

تضحك من مثل الأقاحي حوى *** من ديمة سكب سماء دُوح^(٦)

الأيقهان:

وهو جرجير البر واحدها أيقهانة^(٧). يقول لبيد:

فعلا فروع الأيقهان وأطفلت *** بالجهتين ظباؤها ونعامها^(٨)

(١) لسان العرب ابن منظور ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ص ٢٥٣ ج ١٠ مادة عشرق.

(٢) ديوان الأعشى، ص ٣٧٠.

(٣) لسان العرب، لابن منظور ، ج ١٤ ص ٤٩، مادة مرخ.

(٤) ديوان الأعشى، ص ٨٦. المرخ والنهار: نوع من الأشجار.

(٥) الطبيعة في الشعر الجاهلي القيسي، ص ٩٥.

(٦) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٤.

(٧) شرح القصائد العشر، التبريزي ص ١٧٤.

(٨) ديوان لبيد، ص ١٦٤. أطفلت: ولدت وصار معها أطفالها، الجهتان: جانبا الوادي، نعامها: على فروع

الأيقهان زاد وارتفع .

الثمام:

نبت ضعيف له خوص أو شبيهه بالخوص (١).

يقول ليبيد:

عريت وكان بها الجميع فأبكروا *** منها وغُودر نؤيها وثمَامها (٢)

السفا:

شوك شجر البهمي، والبهمي من البقول وله شوك مثل شوك النبل، فإذا عظمت البهمي كانت كلاً يُرعى يصيبه المطر فيبتل فينبت من تحته حبه الذي سقط من سنبله (٣). قال ليبيد:

ورمى دوابرها السفا وتهيجت *** ريح المصايف سومها وسهامها (٤)

القلام:

نبت يكون على الأنهار والوديان. يقول ليبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدّعا *** مسجورة متجاوراً قلامها (٥)

اليراع:

وهو القصب. يقول ليبيد:

محفوفة وسط اليراع يظلمها *** منه مصرع غابة وقيامها (٦)

(١) المخصص، ابن سيده، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ج ١١ ص ١٤٢ مادة (ثم). .

(٢) ديوان ليبيد، ص ١٦٥. عريت: خلت لم يبق بها أحد، أبكروا : غدوا منها بكره، غودر: ترك، النؤي: حاجز يجعل حول البيت من تراب لئلا يدخل عليه الماء، الثمام: شجر يلقونه على بيوتهم من الحر .

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ص ٢٩٥ مادة (سفا).

(٤) ديوان ليبيد، ص ١٦٩. الدوابر: مآخير الحوافر، سومها: بدل حرها أو اختلاف هبوبها ريح حارة.

(٥) المصدر السابق، ص ١٧٠. العرض: الناحية، السرى: النهر، صدّعا: شققا النبات الذي على الماء، مسجورة: عين مملوءة، متجاور: متقارب، القلام: القصب.

(٦) المصدر السابق، ص ١٩٦ (ويروى محففاً) اليراع: القصب، مصرع: مبالغة، غابة: الجمع الغاب، قيامها: جمع قائم. يقول توسطاً عيناً محفوفة بالقصب فهو يظلمها وبعضه مائل وبعضه منتصب .

الريحان:

وهو نبت ذو رائحة طيبة، فقد صور الشنفرى مجلساً آوى إليه مساءً فخيّل إليه أنه مظلة تكفنه من كل جانب نسجتها ريحانة مطولة بحباب المطر متفتحة الزهر يقول.

فبتنا كأن البيت جُحر فوقنا *** بريحانة ريحت عشاءً وظّلت^(١)

والنباتات والأشجار التي أتت في صياغ القصيدة العربية القديمة في الشعر الجاهلي مصورة بيئة الصحراء لهي كثيرة ومتعددة وبعضها لا يزال يحمل نفس الأسماء القديمة فهي حياتهم وجزء من البيئة الصحراوية، وبذلك فقد عنى الشاعر العربي في الصحراء بهذه النباتات والأشجار فكثيراً ما تمثل مواقف محبوباتهم وحياتهم العامة. (فهي تدخل فيما يأكلونه وما يبنون منه بيوتهم وحظائرهم وخیلهم وما يصنعون منه ومن رماحهم وسهامهم وأنيتهم وموائدهم وحبالهم ومنازلهم ومعظم ما كانوا يستعملونه في حياتهم وكانوا ينتفعون ببعضها في دباغتهم وزينتهم ويستوقدون بحطبها)^(٢).

إضافة لذلك فهي ظل للهجرة وروح تنبئ بالحياة في ظل الصحراء (وقد تحدث ابن سيده عن النبات وأنواعها في جزيرة العرب فكانت أكثر من مائة وسبعين نوعاً)^(٣).

والصحراء لم تكن كلها جدياً توجد خضرة في بعض أماكنها والتي أطلق عليها الرياض مفرداً روضة. فقد ورد في شعر عنتر بن شداد التشبيب بعبلة ووصف ثغرها برائحة روضة لم تطأها دابة تقضم أزهارها وتلقي فيها أبعادها وإنما هي حديقة عذراء أمطرتها سحابة نقية المطر فملأت غدرانها ووديانها بماء صافي كدراهم ضربت من الفضة. يقول عنتر:

(١) ديوان الشنفرى، ص ٣٦.

(٢) المخصص، ابن سيده، الجزء الحادي عشر، ص ١٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣-٢١٦.

أو روضة أنفأً تضمن نبتها *** غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليها كل عين ثرة *** فتركن كل قرارة كالدريم
سحاً وتسكاباً فكل عشية *** يجري عليها الماء لم يتصرم^(١)

الليل في الصحراء:

فالصحراء تنعم بكثير من المفردات فالليل أحداها ففي تلك البيئة له رونق
وجمال واتساع الكون، فقد وصف به الشاعر النابغة الذبياني ممدوحه في صفة
الاتساع وقوة السلطان فقال:

فإنك كالليل الذي هو مدركي *** وإن خلت إن المنتأى عنك واسع^(٢)

ففيه الهدوء وضياؤه اللامع من نجومه الزهر وقمره الفضي المنير وظلامه الذي
يكتنفه السحر والغموض، ففيه ترويح عن النفس من عناء السفر لمن أضناهم السعي
نهاراً، وهو سعي العاشقين والمحبين الذين اشتكوا من طولهم، ولذلك ورد في
أشعارهم ومقطوعاتهم فيض وافر من الحديث عنه، وهو جمال لمن ينشدون صفاء
الروح وطمأنينة النفس ومناجاة الحق تعالى، يقول جلّ شأنه: (وجعل الليل سكناً)^(٣)
وهو غطاء للذين يخفون شرورهم فيه .

يقول النابغة وهو يعبر عن طول الليل وبطء كواكبه وتلك الذكريات التي تحف
الشعراء ليلاً وتنقل صدورهم بالهم:

كليني لهم يا أميمة ناصب *** وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه *** تضاعف فيه الحزن من كل جانب^(٤)

(١) ديوان عنتر بن شداد، ص ١١٩-١٢٠. روضة: منصوب لأنها معطوف على اسم كأن ويجوز فيه الرفع
على العطف على المضمرة الذي في سبقت قبلها، روضة أنفأ: التام من كل شيء، معلم: مشهور ومعلوم،
قرارة: موضع مطمئن من الأرض يجتمع فيه السيل، سحاً: الصب، يتصرم: لم ينقطع. الثرة: الكثيرة .

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٢.

(٣) سورة الأنعام الآية ٩٦.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٤. أراد كليني لهم وصدر قوله أراح الليل عازب همه أي ردّ عليه الليل ما كان
قد عذب من همه وذلك أنه يتعلل بالنهار في محادثة الناس بخلاف الليل .

ولامتداد الصحراء وتفرق الديار والمنازل فيها تبعاً لأماكن الخصب والماء يجعل لليل سكون وهدوء ودفئ وتوجس أحياناً. وللليل دليل في الصحراء للبدو لظهور النجوم والكواكب فيه وهو زمان لقطع المسافات والتسفار تحاشياً لحر الهاجرة، ففيه أنس وتوارد الخواطر وأنيس المشاعر والخيال، فكثير ما أتت قصائد ولدت ليلاً تعبر عن المحبوب والشوق إليه.

(وليس الليل عند امرئ القيس إطاراً للحركة وموضوعاً للقول الشعري فحسب، وإنما هو أيضاً كلون أسود يمكن من إبراز الأبيض سواء من بياض الحبيبة أو بياض نور البرق)^(١).

والليل عند امرئ القيس أيضاً يشبه البحر عنده في وحشة أمواجه وطول زمانه وكأن نجومه لا تتحرك مشدودة بحبال متينة إلى الأرض وهذا مستوحى من حياة الصحراء وفكر الشاعر. يقول معبراً عن ذلك:

وليل كموج البحر أرخى سدوله *** على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه *** وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي *** بصبح وما الإصباح فيك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه *** بكل مغار الفتل شدت بيذبل^(٢)

وتكرار الليل في أشعار الجاهليين يعبر عن مدى اهتمامهم بمفردات البيئة الصحراوية وهو أحد المكونات الجمالية للصحراء وهو نعمة مهداة وتسخير من الله تعالى لخلقه. يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾^(٣).

والليل سكون وهدوء وباعث للتأمل والتفكير والبواح والصمت والبراح الفسيح المطلق والسفر بالأنواء، كل ذلك يولد في نفس البدوي الإنطلاق في التعبير

(١) الإحساس بالزمان في الشعر العربي، على الفيضاي، منشورات كلية الآداب بمتوبة تونس، ٢٠٠١م، ج ٢ ص ٣٢.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٧.

(٣) سورة النحل الآية ١٢.

والتميز والخيال الواسع والواقع والبوح بما في الضمير، فيأتي الغزل الرصين والمدح الثاقب والفخر البديع، ففي الليل يبرز القمر وضاح الجبين بساماً يشع نوراً وألقاً، ويبعث نوره الفضي المتلألئ للمدلج والمسافر والسامر والمفكر والشاعر والغائر، فيخلب لبه وتلمع النجوم زاهرات مسافرات فتومض وتتناغى وتتناجى مع الفكر والخيال الذي يلف بصورة المحبوبة فينأى المنام، وأما سويد في عينيته فقد أجاد التصوير الحسن الذي نرى فيه أوائل الليل تتعاطف راجعة على أواخره فيصير الليل كأنه حلقة محكمة الأطراف، وكان الشاعر قطب هذا الليل الذي يدور عليه بكل همومه ومعاناته يقول:

وإذا ما قلت ليلٌ قد مضى *** عطف الأول منه فرجع
يسحب الليل نجوماً ظلماً *** فتواليها بطيئات التبع^(١)

النجوم والصحراء:

ومثلما اهتم العرب بمكونات الصحراء وبالليل فقد اهتموا بالنجوم اهتماماً بالغاً لأنها الهادي الوحيد ليلاً في الصحراء، يقول تعالى: (وبالنجم هم يهتدون)^(٢) وتقودهم إلى أماكنهم ومواقع العشب والمياه ويعرفون بها زمن سقوط الأمطار والفصول ووقت نمو الثمار والنبات، وقد ارتبط طول الليل بالنجوم، وتخليها الأعشى أنها شدت إلى الجبال بأمراس وحبال لعدم حركتها وثبوتها وواقفة لا تتغير. يقول في ذلك:

كأن نجومها ربطت بصخر *** وأمراس تدور وتستريد
إذا ما قلت حان لها أفول *** تصعدت الثريا والسعود^(٣)

فقد وردت الأنواء والنجوم كثيرة في الشعر العربي في ثنايا قصائدهم والتألق والضياء وسرعة الانقضاء، وهو وارد في لمعان الماء والارتفاع وضياء النيران وبريق الرماح وتلألؤ الخمر في الكؤوس وجمال ونضرة الوجوه والتغني بالقيم

(١) شعراء النصرانية، لويس شيخو، ص ٤٢٧.

(٢) سورة النحل الآية ١٦.

(٣) ديوان الأعشى، ص ٦٣. السعود: رهط مؤلف من عشرة كواكب.

والمثل، ولا غرابة أن يصل العرب إلى درجة بعيدة في علم الأنواء ذلك لأنها حياة بالنسبة لهم في الصحراء والأمطار تمثل هذه الحياة.

وهي الهاديه لهم في الصحراء وتجوالهم المستمر ومعرفتهم بأيامها ونزول الغيث فيها فناجى البدوي الليل والأنواء وانبهر بجمالها وأصبحت محبوبته التي يقترن جمالها مع محبوبته في الحل والترحال، ينقل صاحب العقد الفريد قول المهلهل ابن أبي ربيعة يشبه لوحة الكواكب بما تمليه عليه ذاكرته من التشبيهات يقول:

فإن يك بالذنائب طال ليلى *** فقد أبكى من الليل القصير
كأن كواكب الجوزاء عوذ *** معطفة على ربع كسير
كأن الجدي في مثاه ريق *** أسيرٌ أو بمنزلة الأسير
كأن النجم إذا ولى سحيراً *** خصال جلت في يوم مطير
كواكبها زواحف لا غبات *** كأن سماءها بيدي مريّر^(١)

ويقول الأعشى بعد تفرسه في السماء أن هناك حارسين في ذلك الليل البهيم لا يغيبان وهما الجدي والفرقد.

فأما إذا ما أدلجت فترى لها *** رقيبين جديا لا يغيب وفرقدا^(٢)
ويقول لبيد:

بُلينا وما تبلى النجوم الطوالع *** وتبقى الجبال بعدنا والمصانع^(٣)

ويذكر الأعشى تلك النجوم وهو في رحلة في امتداد الصحراء وفي ارتفاعها في قبة السماء، ويتأمل ذلك المشهد يقول:

قطعت إذا ما الليل كانت نجومه *** تراهن في جو السماء سوامكا^(٤)

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، الجزء السادس، ص ٦٢.

(٢) ديوان الأعشى، ص ٤٥.

(٣) ديوان لبيد، ص ٨٨. المصانع: القصور.

(٤) ديوان الأعشى، ص ١٣٢، سوامكا: مرتفعا

ونظر البدوي نهراً إلى الشمس فعبر عنها بصفات الرفعة والسمو والقوة والخير، وهي من المظاهر الكونية ولها خاصية مميزة في الصحراء من ظهور وحرارة ووقاية من البرد، ولذلك فهي حبيبتهم وقد عبروا عنها أنها تفرح وتحزن فهي إنسان. قال الأعشى:

يضاحك الشمس منها كوكب شرق * مؤزر بعميم النبات مكتهل^(١)**
وعندما أراد النابغة إسباغ النعمة على النعمان جعله شمساً والكون كواكب تختفي بظهوره قال:

فإنك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منهن كوكب^(٢)**
والشمس امرأة تلقي رداءها على الوجه الجميل كما صنعت مع محبوبة طرفة قال:
ووجه كأن الشمس ألفت رداءها * عليه نقي اللون لم يتحدد^(٣)**
إن الشمس فأل حسن عند البدوي وتغطي كل جميل لديه. وعندما نظر البدوي ليلاً وجد القمر بجانب تلك النجوم ذلك الأبيض الناصع وهو أحد مفردات قبة الصحراء المؤثرة، ولذلك أغبط الشاعر الجاهلي في الصحراء وشبهوا به محبوباتهم وممدوحهم لصفاء لونه واستدارة شكله وعلوه ونقائه. قال النابغة في مدح ملك الحيرة:

متوّج بالمعالي فوق مفرقه * وفي الوغى ضيغم في صورة القمر**
فتهلل وجه النعمان بالسرور وأمر أن يحشى فم النابغة جواهر وقال مزهواً "بمثل هذا فلتمدح الملوك"^(٤).

وقد اقترن اسم الشمس والقمر حتى قالت العرب القمران: قال الأعشى:

فتى لو ينادى الشمس ألفت قناعها * أو القمر الساري لألقى المقالدا^(٥)**

(١) ديوان الأعشى، ص ٢٣٣. يضاحك الشمس: يدور معها حيث ما دارت، كوكب كل شيء: معظمه المراد هنا الزهر، مؤزر: مفعّل، مكتهل: قد انتهى في التمام، العميم: التام السن.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٨.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٩.

(٤) مروج الذهب، المسعودي "أبو الحسن على بن الحسين"، الجزء الثاني، ص ١٠٠.

(٥) ديوان الأعشي، ص ٤٦.

المطر والبرق والرياح ومدلولاتها في الصحراء:

كان البدوي في الصحراء متجولاً يبحث عن الماء والكأ، فالبئر عنده لها أهميتها فهي تجلب سقيه والحياض والغدران كلها أوعية للماء فهي تمثل له الحياة لأهميتها وقلة الماء في الصحراء، فهي تحمل البشرى له، ولذلك جاء ذكرها كثيراً في أشعارهم فذكروا مشاهد هطول الأمطار، وما يترتب عليه من خير وبركة.

فعند هطول الأمطار تتلون الصحراء باللون الأخضر الزاهي وتمتلئ وديانها وخيرانها ومستنقعاتها فيبعث الحياة في الأرض فتخضر وتنتج نوقم وشاؤهم وتسمن وتتناسل ويعم الخير الوفير الأرض، قال تعالى: (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماء)^(١) وإذا أجدبت جاعوا ومرضوا ونهبوا وأتاهم الموت. وقد تتبع الشعراء المطر فوصفوا رعداً وبرقها وسحابها الثقيل منها والخفيف ورياحها الشديدة ورسومها صوراً رائعة لمناظره وهو ينثال من قبة السماء إلى الأرض فأكثرها التشبيهات، وأشاروا إلى السيول والغدران وما يحدثه من انقلاب في الحياة العامة، فالحيوانات تفر مذعورة والضفادع تنعق، وصوروا الضب يتلوى في الماء، وتعم الجبال والتلال والنباتات المخضرة، وإلى غير ذلك من التفاصيل الكثيرة التي أوردها الشعراء، ووردت في كتب التراث الأدبي (وقد كان الشعراء الجاهليون يصدرون في تصورهم للمطر عن فكرٍ ورؤية متحدة وصور متشابهة إلى حد بعيد، ووحدة الصور تتبع في أساسه من وحدة التصور ووحدة التراث ووحدة المعتقد)^(٢).

يصف لبيد يوماً ممطراً في الصحراء بقوله:

أصاح ترى بريقاً هب وهنا *** كمصباح الشعيلة في الذبال
أرقت له وأنجد بعد هدهد *** وأصحابي على شعب الرحال^(١)

(١) سورة الأعراف من الآية ٥٧.

(٢) المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص ٦.

(١) ديوان لبيد، ص ١٩، هب: لمع وأضاء، وهنا: بعد ساعة من الليل، الشعيلة: النار، الذبال: الفتيلة، أنجد: ارتفع أخذ البرق إلى ناحية نجد، شعب الرحال: عيدانها، وأصحاب على شعب الرحال: أي نيام.

وقد وصف أيضاً أوس بن حجر يوماً ممطراً برعده وبرقه ورياحه حتى سألت
الأمطار يقول:

قد نمت عني وبات البرق يُسهرني *** كما استضاء يهودي بمصباح
يا من لبرق أبيت الليل أرقبه *** في عارضٍ كمضى الصبح لَمَّاح
دانٍ منسقٍ فوق الأرض هيدبه *** يكاد يدفعه من قام بالراح
كأن ريقه لَمَّاحاً شطبا *** أقراب أبلق ينفي الخيل رمَّاح
هبت جنوب بأعلاه ومال به *** أعجاز مزنٍ يسحُّ الماء دلاح
فارتج أعلاه ثم ارتج أسفله *** وضاق ذرعاً يحمل الماء منصاح
كأنما بين أعلاه وأسفله *** ريطٌ منشرةٌ أو ضوء مصباح
ينزع جلد الحصى أجش مبترك *** كأنه فاحصٌ أو لاعبٌ داحي
هُدلاً مشافرها بحاً حناجرها *** تزجي مرايبها في صحح ضاحي
فأصبح الروض والقيعان ممرعةً *** من بين مرتفق منها ومنطاح^(٢)

(فلم تكن كل الصحراء جرداء لا حياة فيها ولا نضرة وإنما هناك بعض الأودية
والأماكن التي تستقر فيها مياه الأمطار وتسمى الرياض، أو يسيل إليها ماء السيول
فيستريح فيها فتتبت ضروباً من العشب والبقول ولا يسرع إليها الذبول، إذا

(٢) ديوان أوس بن حجر، ص ١٥-١٧. العارض: السحاب المعترض في الأفق، دان: قريب من الأرض،
هيدب السحاب: ما تهب منه، ريقه: أوله، شطباً: جبل في بلد بني تميمة ينكشف البرق كما يرمح الأبلق فيبدو
ببياضه. الأبلق من الخيل ما فيه بياض وسواد، ينفي: يطرد، رماح: كثير الرفس، الجنوب: ريح تأتي بمطر
غزير، الأعجاز: جمع عجز وهو مؤخرة الشبيء، المزن: السحاب الأبيض، دلاح: مثقل بالماء، أجش: غليظ
الصوت وهو صفة الرعد، المبترك: أي الذي أسرع في العدو، الفاحص: الذي يقلب وجه التراب، الداحي: الذي
يلعب بالمرحاة وهي خشبة يرمي بها الصبي فتمر على وجه الأرض لا تأتي على شيء إلا اجتحتته، المرتفق:
ماء راكد قد حبسه شيء يرتفق به، المنطاح: سائل لم يكن له ما يحبسه فسال، هدلاً مشافرها: مسترخية، تزجي:
تسوق، المربع: مفرداً مربعاً والمراد أولادها، الضاحي: الظاهر.

أعشبت الرياض وتتابع عليها الوسمى ربت العرب بنعمها جمعاء فكانت تسيل في بعضها الجداول الصغيرة وتسمى الرياض^(١).

وقد ذكر كثير من الشعراء مثل هذه الرياض فطرفة يذكر روضة دعى قال:

لخوله أطلال ببرقة ثمهد *** تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
فروضة دعى فأكفاف حائل *** ضللت بها أبكي وأبكي إلى الغد^(٢)

وقد ذكر لبيد رياض الأعراف فقال:

هلكت عامر فلم يبق منها *** برياض الأعراف إلا الديار^(٣)

فالبديوي في الصحراء صور كل حركات وسكنات الصحراء بصور بديعية جميلة ولم يترك شيئاً إلا وعبر عنه بصورة جميلة فصور لنا كيف أن الأمطار هطلت على الأرض وغطت الديار والربوع بطول الجزيرة العربية، فموقف الشاعر البديوي من المطر موقف التذلل والتضرع ممزوجاً بالعشق والوجد والرغبة والرغبة، فهو نعمة له ولماشيتها، وهو محور الحياة وتجدها بل يقرن الممدوح دائماً بالمطر. يقول زهير:

فاستمطروا الخير من كفيه أنهما *** بسببه يتروى منهما البعد^(٤)

والنابغة الذبياني يصور أن الرياح تدفع السحاب فيهطل في أرجاء الصحراء يقول:

وهبت الريح من تلقاء ذي أرل *** تزجي مع الليل من صرادها صرماً^(٥)

ويقول الحارث بن حلزة:

وحسبت وقع سيوفنا برؤوسهم *** وقع السحابة بالطراف المشرح^(٦)

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري القيسي، ص ٩٩.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٦.

(٣) ديوان لبيد، ص ٧٧.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٢٠٥، السيب: العطاء، البعد: جمع البعيد.

(٥) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٠٧، أرل: جبل، صراد: برد، صرم: قطع من السحاب.

(٦) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٤٣.

وقد ورد في الشعر العربي عدد من الأسماء والأوصاف التي تعبر عن المطر، ويقولون "المطرة - أهضوبة - أغصان - بعاع - برد - ثلة - جود - ديم - جن - رث - زهاب - رهام - رجع - ريق - رباب - رزق - رش - رعاف - رذاذ - سحب - ساجية - سح - صوب - طش - عرض - غيث - غريض - قطر - مطر - مزن - هطل - هفاء - وبل - ودق - كف وطفاء"^(١).

والغيث ضرورة من ضرورات الحياة قال الجاحظ: "ولحاجته يعني العربي إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرتته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثابت فيها وما يسير فيها مجتمعاً وما يسير منها فardاً وما يكون فيها راجعاً مستقيماً"^(٢).

ولأهمية المطر في حياة الناس في ذلك الزمان فقد ذكر الدكتور أنور أبوسويلم في كتابه المطر في الشعر الجاهلي "٤١" مؤلفاً تحمل عنوان كتاب الأنواء^(٣). وقد شبهوا الدروع الرقيقة لصفائها بالصحراء المنبسطة كما شبهوا السيوف بالغدران، قال عبد قيس يصف درعه :

وسابغة من جواد الدرو *** ع تسمع للسيف فيها صليلا
كما الغدير زفته الدبور *** يجر المدجج منها فضولا^(٤)

وقال الشنفرى يصف حساماً:

وحسام كلون الملح صاف حديده *** جزار كأقطاع الغدير المنعت^(٥)

(١) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، د. عبد الإله الصائغ، ص ٢١٧.
(٢) الحيوان، الجاحظ عمرو بن بحر، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، بدون الجزء السادس، ص ٣٠.
(٣) المطر في الشعر الجاهلي، الدكتور أنور أبو سويلم، دار عمار، الطبعة الأولى ١٩٥٧م، ص ١٦.
(٤) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الثاني، ص ٣٨٦. الدبور: ريح تهب من المغرب تقابل الصبا وخصها لأنها شديدة المرّ تكدر الماء، زفها الماء: أن تطرده وتدفعه. المدجج: بفتح الجيم وكسرهما: اللابس السلاح.
(٥) ديوان الشنفرى، ص ٣٨. أقطاع: جمع قطع بأقطاع الغدير أجزاء الماء يضربها الهواء فتقطع ويبسود بريقها، جزار: السيف القاطع.

ومصادر الماء متعددة في الصحراء فهي في كثير من الأحيان مصدر النزاع بين القبائل وسبباً من أسباب إثارة الحرب، وقد سميت كثيراً من أيام العرب بأماكن هذه الآبار والعيون، الآبار وتستعمل الدلاء لاستخراج مائها، فيشبه زهير الأتني في سرعتها وانغضاضها على عدوها بالدلو إذا انقطع حبلها في البئر قال:

فشج بها الأماز وهي تهوى * هويّ الدلو أسلمها الرشاء^(١)**

وأصبح الماء مادة للتطهير الحسي والمعنوي، قال طرفة عن هذا المعنى:

إذا المرء لم يغسل من اللوم عرضه * ولم ينقه لم يغن عنه بهاؤه^(٢)**

ويحمل معنى الكرامة والسعادة والعزة والشرف وطيب المعشر، وقد عبر عنه عمرو بن كلثوم بقوله:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً * ويشرب غيرنا كدراً وطيناً^(٣)**

وهذه البيئة الصحراوية التي تكثر جبالها وتتشعب وديانها ويقل زرعها ونباتها، فيترقب المطر من السماء فينتجع البدوي للكأ في الصحراء لا يأويه بنيان ولا تضمه جدران، يقول تعالى: (أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)^(٤)، وهذه البيئة تجعل الإنسان أشد التهابة وأكثر تأثراً يهيجها الحب ويطيش بها الغضب ويثيرها الطرب، وهذه من دواعي الشعر وعوامله.

أما البرق وهو أحد مظاهر الخريف ويظهر في هذا الفصل الذي يرقبه الناس ويبرقون أفرادهم وجماعاتهم خبر نزول الغيث، وقد أخذ الشعراء وصوروه وذكروه كثيراً في أشعارهم تصويراً فهو بشارة خير فهموا وجعلوه أحد مفردات تشبيهاتهم في البهاء والحسن والسرعة فما من شاعر إلا وصار يراقب البرق فهذا

(١) ديوان زهير، ص ٧٧. شج: علا بها بالأتن، الأماز: المكان الكثير الحصى، أسلمها: خزلها، الرشاء:

الحبل، فشبه هوى الحبل إذا انقطع بهوي الأتن في سرعتها.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص ٢٦.

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣١٩، وورد أيضاً (وأنا الشاربون الماء صفواً).

(٤) سورة السجدة الآية ٢٧.

ينم عن تلقفهم للأمطار والرحيل وتلاقي الأهل والأحبة، وبشارات لتجسيدهم للفأل الحسن المتمثل في البرق وهو بشارة المطر. يقول أبو ذؤيب الهذلي:

أمنك برق أبيت الليل أرقبه *** كأنه في عراض الشام مصباح^(١)

ويقول عبيد الأبرص حول مراقبته للبرق:

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه *** من عارض كبيض الصبح لَمَّاح^(٢)

وقال امرؤ القيس يصف البرق:

أرقت له ونام أبو شريح *** إذا قلت ما قد هدأ استطارا^(٣)

وقال النابغة الذبياني يصور البرق ووميضه:

أصاح ترى برقاً أريك ووميضه *** يضى سناه عن ركام مُنْضد^(٤)

وكثيراً ما تأتي أشعارهم تحمل هذه المعاني فالبدو يجتمعون جماعات في الليل في الصحراء يتسامرون ويرقبون البرق في فصل الخريف وهو بالنسبة لهم فرحة وغبطة وسعد. قال طفيل الغنوي:

أصاح ترى برقاً أريك ووميضه *** يضى سناه سوق أثلٍ مرمك^(٥)

وقال الأعشى:

يا من ترى عارضاً قد بت أرقبه *** كأنما البرق في حافاته الشُّعْل^(٦)

وقال لبيد يصف البرق:

أصاح ترى بريقاً هب وهنا *** كمصباح الشعيلة في الذُّبال

(١) شرح أشعار الهذليين، الجزء الأول، ص ١٦٧. أمنك برق: أي من نحو منزلك من الشق الذي أنت فيه،

أرقبه: أنظر أين لمعه، عراض الشام: نواحيها، يريد أن البرق يتوقد كتوقد المصباح.

(٢) ديوان عبيد الأبرص، ص ٥٢. العارض: المعترض، اللماح: الشديد البياض.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ٧٧. أرقت: سهرت، أبو شريح: إسم أخيه.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٤٦.

(٥) ديوان طفيل الغنوي، ص ١٠٣.

(٦) ديوان الأعشى: ص ٢٣١.

أرقت له وأنجد بعد هدهد *** وأصحابي على شُعب الرّحال^(١)

فتأتي التشبيهات لبريق البرق وضوئه منتقاه من بيئتهم الصحراوية بل نلاحظ كأن المراقبة يتهبأ لها الناس لرؤية تلك البشارة فيعمدون للصحيان لهذا الخبر السار يقول حسان بن ثابت مصوراً مراقبته لهذا البرق:

أرقت لتوماض البروق اللوامع *** ونحن نشاوي بين سلع وقارع

أرقت له حتى علمت مكانه *** بأكناف سلع والتلاع الدوافع^(٢)

ولكن هناك بعض الآراء الواردة حول ذكر البرق منها أن وصف البرق ومراقبته "إنما هي مهمة الساحر صانع المطر"^(٣)، وأن الاعتقاد لديهم بأن هناك ساحر يعرف قدوم الأمطار ويسير بها، ولذلك يقوم الشاعر بمناجاته، وفي رأي ليس من الصواب أن نحمل النص أو النصوص أكثر من ظاهرها، فالبرق عندهم بشارة خير وفأل، ولذلك يترقبه كل الناس فهو بالنسبة لهم حياة وسعد.

فالشاعر عندما يصف المطر أو البرق أو الرياح تأتي عنده في صورة متكاملة في سياق القصيدة لتصوير مشهد حي يستطيع تقريب الصورة وتجسيدها كأنها تتراءى للعيان، فنجد صورة لأبيات طرفة بن العبد يصور مشهداً مجسداً لهطول الأمطار فتأتي مشاهد الحيوان والإنسان وتفاعله مع هذا الحدث يقول:

إنا إذا ما الغيم أمسى كأنه *** سماحيق ثرب وهي حمراء حرجف

وجاءت بصراد كأن صقيعه *** خلال البيوت والمنازل كرسف

وجاء قريع الشول يرقص قبلها *** إلى الدفاء والراعي لها متحرف^(٤)

(١) ديوان ليبيد بن أبي ربيعة، ص ١٠٩.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، ص ١٤٧. توماض: لمعان، سلع: جبل، قارع: حصن حسان، التلاع: أرض مرتفعة غليظة، الدوافع: التي تدفع السيل منها إلى غيرها.

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، د. نصرت عبد الرحمن، ص ٦٨.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٢٦. سماحيق: القطع الرقاق من الغيم، ثرب: الشحم الرقيق، حرجف: الشديدة، صراد: سحب لا ماء فيه، صقيعة: ماء يسقط على الأرض كأنه تلج، كُرسف: قطن، قريع الشول: فحل الإبل، يرقص: يسرع، المتحرف: المائل من شدة البرد، وأرادوا أنه يترك إبله ومال عنها أي ناحية ينقسي البرد.

فهذه الصورة الرائعة المتكاملة، التي يصف فيها هطول الأمطار وما كان يغطيها من سحب والغيوم الرقيقة ثم نزول الصقيع على المنازل والأرض، وقد عادت الإبل ويسبقها فحلها وراعيها يطلب الدفء من البرد.

وتشاءموا من بعض الأنواء كالبطين، والهقعة، والهنعة، والدبران، والإكليل، والقلب، والشولة، ومن الأنواء المحمودة الخيرة عندهم الشرطان - الثريا - السماكان - النعائم - البلدة - والسعود الأربعة وإنما حمدوها لغزارة أمطارهم وطيب هوائها^(١)، وهي منازل لأوقات هطول الأمطار معروفة لديهم.

والرياح تناولها الشعراء بجهاتها وزمانها فهي تختلف في شدة جفافها باختلاف مهابها، وقد وضعت العرب لكل ربح اسماً يختلف باختلاف مناطق هبوبها، (وكانوا يطعمون إذا هبت الصبا كما كانوا يتشاءمون بالرياح الشمالية ويعتبرونها مثلاً للشر، وقد أشار الشعر إلى قساوتها وبرودتها لأنها تنذر بالقحط وتنزل بالجدب، وقد سماوا الريح للتي تهب بين مهب ريحين أصليين، كالنكباء التي تهب بين الصبا والجنوب، أما الجريباء فهي التي بين الجنوب والصبا، وقيل هي الشمال، وذكروا الهيف وهي الريح الباردة التي تجيء من قبل مهب الجنوب، وقيل هي كل ربح ذات سموم تعطش المال وتبيس الرطب، وقد حفلت كتب اللغة والمعجم بالعديد منها)^(٢).

لذلك اقترن ذكر الرياح كثيراً بتخريب الأطلال ودمارها أو أنها تحمل عقب الحبيبة وحبها، فعند امرئ القيس ترتبط بالأطلال والديار وأماكن نزوله. يقول:

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمال^(٣)**
فالأماكن والديار قد اندثرت وأصبحت أطلالاً بفعل عوامل الطبيعة ومنها الرياح والأمطار، يقول النابغة في ذلك:

(١) المطر في الشعر الجاهلي، الدكتور أنور أبو سويلم، ص ٦٠.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري القيسي، ص ٤٢.

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ١١٠.

قفت عليها فاضمحل طولها *** هوج الرياح وديمة الأمطار^(١)

وأن هذه الرياح تشتد قوتها في الصحراء لاندفاعها فهي تؤذي حتى الحيوان، يقول النابغة في قصيدة يذكر فيها معاناة البقر الوحشي بقوله :

مقابل الريح روقيه وكلكله *** كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما^(٢)

والرياح أحد عوامل هطول الأمطار في الصحراء وهي تسوق السحاب، ولذلك هي عندهم لها صفات وأسماء يطلقونها عليها، ويذكر المسعودي^(٣) أن الرياح أربعة إحداها ما تهب من ناحية الشرق وهي القبول، والثانية تهب من الغرب وهي الدبور، والثالثة من اليمن وهي الجنوب، والرابعة هي الشمال، أما ريح القبول وهي التي يقولوا أنها ريح الصبا وهي ريح طيبة مقبولة، والنفس تصبو إليها لأنها تأتي بالسحاب، أما الرابعة فتهب مصحوبة بأمطار، ولذلك عرفت بالذاريات والمعصرات^(٤). وجاء في القرآن ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾^(٥).

(١) ديوان النابغة، ص ٩٦. قفت: عفت، اضمحل: درس، الهوج: التي تجيء من كل جانب، ديمة: المطر الذي يدوم يومين أو ثلاثة .

(٢) المصدر السابق، ص ١١٠، روقاه: قرناه، كلكله: صدره، الهبرقي: الحداد.

(٣) المسعودي: هو علي بن الحسين بن علي المسعودي (أبو الحسن) مؤرخ اخباري صاحب فنون توفي في مصر سنة ٣٤٥هـ ، من تصانيفه الكثيرة مروج الذهب ومعادن الجواهر في تحف الأشراف والملوك -أنظر معجم المؤلفين كحالة ج ٢ ص ٤٣٣-٤٣٤ - النجوم الزاهرة جمال الدين أبي المحاسن ج ٣ ص ٣١٥.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد عبد العزيز سالم، ص ٧٧.

(٥) سورة الحجر، الآية ٢٢.

وتتابع الرياح في الصحراء تترك أثراً في الأرض وأشكالاً متنوعة يقول النابغة
مشبهاً إحدى هذه الأشكال بأن آثار هذه الرامسات في هذا الرسم بحصير من جريد
أو أدم ترملة الصوانع وتحزره عند مروره عليها في قصيدة يعتذر بها للنعمان:

كأن مجرّ الرامسات ذيولها *** عليه قضيم نمقته الصوانع^(١)

(١) ديوان النابغة ، ص ٤٣ ، الرامسات: الرياح الشديديات الهبوب، ترمس الأثر: تخفيه، ذيولها: مآخبرها.

الفصل الثاني

الأوصاف الحسية الخارجية للشعر في الصحراء

الأوصاف الحسية الخارجية للشعر في الصحراء

لقد وصف البدوي الأثر الخارجي لطبيعة الصحراء والوقوف على الأطلال والآثار الدارسة وحيواناتها وكل مكوناتها، وأول ما وقف الشاعر الجاهلي من الصحراء وقف على الأطلال التي درست وأصبحت آثاراً بفعل الزمن ومؤثرات البيئة الأخرى لتلك المساكن التي كانت آهلة بأهلها فقد رحلوا في ربوعها كسباً للرزق والماء والكلأ. والوصف ورد في عرض القصيدة ليتوصل الشاعر إلى غرضه الرئيس من مدح وغيره يقول لبيد في مقدمة معلقته واصفاً تلك الديار الدارسة وما آلت إليه:

عفت الديار محلها فمقامها *** بمنى تآبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها *** خلقاً كما ضمن الوحي سلامها
دمنٌ تجرم بعد عهد أنيسها *** حجج خلون حلالها وحرامها^(١)

وهذه الصورة التي بدأها الشاعر في معلقته تكشف صورة من صور الحياة الجافة التي أفلت بفعل البيئة الصحراوية برحيل أهلها وغياب أنيسها وضياع رونقها وبهائتها.

وهناك صورة أخرى في نفس القصيدة تعبر عن عامل الزمن وهو الذي أدى لهذا السكون في روح الصحراء فسرت فيها الحياة بفعل حرارة الشمس وأنواء الربيع وهطول الأمطار فأخصبت الأرض بعد موتها وأخضرت وانتشر فيها العشب وعلت فروع الأشجار وسكنت الطباء وفرحت الأبقار ذات العيون

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة ، ص ١٦٣-١٦٤. تأبد: توحش، الأوابد: الوحش المقام حيث طال مكثهم فيه، منى: موضع، الغول والرجام: أماكن، المدافع: مجاري الماء، الريان: واد، عرى رسمها خلقاً: أي ارتحل عنه، الوحي: الكتابة المعنى أن آثار هذه المنازل كأنها كتاب في حجارة لأنه لا يتبين من بعيد، السلام: الحجارة، الدمن: الآثار، تجرم: تقطع، الحجج: السنون، حلالها وحرامها: يريد الشهور الحلال والشهور الحرام.

الواسعة الجميلة فكان الشاعر يقابل بين صورة الموت وصورة الحياة من خلال تلمسه لمكونات البيئة الصحراوية. قال لبيد:

رزقت مرابيع النجوم وصايبها *** ودق الرواعد جودها فرهامها
من كل سارية وغادٍ مدجن *** وعشية متجاوب إرزامها
فعلا فروع الأيقهان وأطفلت *** بالجهلتين ظباؤها ونعامها
والعين ساكنة على أطلائها *** عوداً تأجل بالفضاء بهامها^(١)

فقد ركز الشاعر على ما يحتاج إليه ويطلب فيه، فقد عنى بالصحراء لأنها مرتعه وسبيل عيشه، واهتم بوصف الناقة لأنها سفينته في هذه الصحراء الواسعة والجراد لأنه عنوان بطولته، والأطلال لأنها دفنر ذكرياته، يقول صاحب العمدية: (إن الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه)^(٢).

وإذا كانت هذه النظرة تتسحب على الشعر كله فإنها تعتبر في العصر الجاهلي أخص ما تكون فالوصف هو فطرة اللغة العربية وأصل طبيعتها الذي ركبت عليه خاصة في ذلك العصر فقد تكاملت الصورة في اللفظ المصور الذي يصف الأشياء ماديها ومعنويها ظاهرها وباطنها وهم يستودعون هذه الألفاظ في ظلال نفوسهم وأحاسيسهم ومشاعرهم حتى إن كثيراً من مركبات ألفاظهم تعتبر وصفاً لهذه المسميات. والشاعر يتحكم في الطبيعة فيلبسها الوصف الذي يراه ولذا نجدهم لا يصورون حيواناً إلا قوي الشكيمة ولا ينهزم إلا حين يريد له الشاعر ذلك، فالناقة يجب أن تكون قوية وسريعة وصبورة حتى تبلغ مكان الممدوح أو الحبيبة، وكلاب الصيد أن تكون قوية وسريعة.

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٦٤-١٦٥. رزقت: دعاه لها. جودها: المطر، الرهام: المطرة الضعيفة. التام سارية: سحابة تجئ ليلاً. وغادٍ: يجئ بالغداة، مدجن: من الإدجان وهو إلباس الغيم السماء، إرزامها: تصديتها بالرعده، علا فروع الأيقهان: أن السيل على فروع الأيقهان، الجهلتان: جانبي الوادي - والمعنى أن هذا المكان خلى لكثرة أولاد الوحش بها، العين: البقر، أطلاؤها: أولادها، العُود: الحديثات النناج، الإجل: القطيع من الظباء، اليهام: جمع بهمة وهي ولد الضأن.

(٢) العمدية: ابن رشيق، الجزء الثاني، ص ٢٠٤.

فالشاعر البدوي في الصحراء يصف بعض مكونات الصحراء بكل ما تحتويه من نبات وجماد بأوصاف خارجية ماثلة للعيان، "فقد حمل شعر الجاهليين تعبيراً يحمل عطر الصحراء الخالدة"^(١).

ولذا نجد وصف الحيوان والنبات أدق تفصيلاً لأنه محبب إليه، فنجد الأعشى أكثر تفصيلاً في وصف الصحراء من غيره كما فاق عنتره غيره في وصف الجواد.

ونجد كثيراً من وصفهم وصفاً حسيماً يرى من الواقع لا يميلون للمعاني التي تتخيل، وزهير عندما أراد وصف الموت نقله إلى مشهد حسي تصويري قال:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطي يعمر فيهم^(٢)**

لقد مثل الموت بناقة عشواء لا تبصر بل تضرب على غير هدى، ومنح الفكرة شكلاً مادياً مما عاينه في الواقع.

وطرفة بن العبد يأتي بصورة تقترب من هذه، إذ يشبه الموت بحبل مرخي وممسك بيد مهما طال ارتخاؤه فسوف يجذب كقوله:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى * لكالطول المرخي وثياه باليد^(٣)**

فالبدوي بطبيعته النفسية يميل إلى التقليد والنقل، ولذلك ما وجد حيواناً أو نباتاً إلا وصفوه ومن أجود ما جاء في هذا الباب قول عنتره في وصف دار عبلة يقول:

أو روضةً أنفاً تضمن نبتها * غيثٌ قليل الدمن ليس بمعلم**

جادت عليها كل عين ثرةٍ * فتركن كل حديقة كالدروهم**

سحاً وتسكاباً فكل عشية * يجري عليها الماء لم يتصرم^(٤)**

وكذلك يصف فرسه الذي خاض به المعركة. بقوله:

(١) دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، ص ٣.

(٢) ديوان زهير بن سلمى، ص ٤٩.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٤.

(٤) ديوان عنتره بن شداد، ص ١١٩ - ١٢٠.

ما زلت أرميهم بثغرة نحره *** ولباته حتى تسربل بالدم
فأزور من وقع القنا بلباته *** وشكا إلى بعبرة وتحمم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى *** وكان لو علم الكلام مكلمي^(١)

ويمثل الوصف أغلب أغراض الشعر العربي وأكثرها ويعتبر من أقدم هذه الأغراض التي عرفها الناس ولم يأت فناً منفرداً وإنما أتى في صياغ القصائد وحناياها وتسرب إلى تضاعيفها.

قال أبو هلال العسكري: "إن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف فتراه نصب عينيك". كقول يزيد بن عمرو الطائي:

ألا من رأى قومي كأن رجالهم *** نخيل أتاها عاصر فأمالها

فهو يصور القتلى مصرعين^(٢). ولذلك نجد الوصف غطى طبيعة الصحراء بتفاصيلها ما تركوا وادياً ولا جبلاً ولا روضة ولا سهلاً إلا وصوروه، فالأمطار والسحاب والبرق والأشجار والأعشاب والسراب، كل ذلك أخذ حظه وافراً من الوصف.

ففي الأمم الأخرى غير العربية وجد الناس إلى جانب الكلمة فناً أخرى يصورون بها أفكارهم ويجسدون فيها مشاعرهم فعرفت تلك الأمم الخط والتصوير والموسيقى فأقامت لكل ذلك مشاهد ينفس فيها خلجات مشاعرها فيرون في كل هذه المجالات مسارح فسيحة تتحرك فيها عقولهم.

ونجد أن شمس الصحراء محرقة خاصة في فصل الخريف فتضرب الشمس أشعتها على الأرض تنتساب فوق رمالها سراب يبهر العيون، ويخدع العطاش فيتبعونه وهو منهم هارب حتى تكوى جلودهم وتشوى لحومهم، ولكن دربة البدوي على ذلك وفطنته جعلته يعرف أماكن الماء فيصور سويد بن أبي كاهل اليشكري جانباً من هذه الطبيعة يقول:

كم قطعنا دون سلمى مهمهاً *** نازح الغور إذا الآلى لمع

(١) ديوان عنتر بن شداد، ص ١٢٦. إزور: مال، التحمم: صوت مقطع ليس بالصهيل.

(٢) كتاب الصناعتين للكتابة والشعر، تصنيف أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، حققه وضبطه

الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص ١٤٥.

في حرور ينضج اللحم بها *** يأخذ السائر فيها كالصقع^(١)

فالوصف عند الجاهلي كان عدته في تصوير وتقريب ما حوله فكانت عينه تجول فيما حوله من الطبيعة المفتوحة الأرجاء من أرض وسماء وبادية ومفاوز مترامية كل ذلك يحاول تصويره ونقله كما يراه وقد نقل القرآن الكريم هذه الحقيقة فقال جلّ شأنه (نحنُ أعلمُ بما يصفون)^(٢). وقد حاولت إبراز جانباً من الوصف في تلك الصحراء ورسم صورة حية للحياة الجاهلية فترى الناس في هذا الشعر أحياء يغدون ويروحون ترى شبابه وشيوخهم وترى الرجل وصديقه والفارس على جواده والعادي على رجليه والعاشق في محراب محبوبته والواقف على الأطلال والظاعن في حياة الصحراء وأماكن الماء والعشب والوحش . فالشعر الجاهلي الذي احتوى وغلب عليه التصوير والتمثيل ولا غرو في ذلك عند أناس بلغوا من البيان والتبيان أن نزل فيه ولإعجازهم قرآن يتلى إلى أن تقوم الساعة.

وتتبع الشعراء وصف الأطلال التي ذكرناها وكذلك تصويرهم للثور الوحشي وما أصابه من عوامل الطبيعة، ووصف الناقة والفرس التي سبق ذكرها... الخ. وتعمق الشاعر في محتويات البيئة الظاهرية منها والباطنية والمعنوية فوصف كل الحيوانات التي تتواجد في الصحراء، فظهرت معاني القوة والشدة والسرعة مجسدة في قول النابغة:

فسل الهوى واستحمل الهم عرمسا *** تخب برحلي تارة وتناقل

موترة الانساء معقودة القرا *** ذقونا إذا كل العتاق المراسل^(٣)

(١) شعراء النصرانية لوييس شيخو، ص ٤٢٧ . مهماً : القفر لا ماء فيه ولا أعلام، نازح الغور بعيد القعر، الأال: السراب، حرور: ريح حارة تكون بالنهار أو حر الشمس، الصقع: حرارة تصيب الرأس.

(٢) سورة المؤمنون، من الآية رقم ٩٦.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ١١٤. فسل الهوى: أي تناصرها وتركها، تخب: هو ضرب من السير، تناقل: أيضاً ضرب من السير، الإنساء: عرق في الفخذ، الذقون: من الخيل التي ترفع رأسها وتملُّ اللجام من نشاطها، العتاق: الكرام من الخيل، مراسل الخيل: سراعها.

فالعرمس هو الصخرة الصلبة ثم قالوا للناقاة الصلبة عرمس تشبيهاً لصلابتها.
وقال المنخل:

كأن وغي الخموش بجانبه *** وغي ركب أميم ذوي هياط^(١)

وهنا تصوير لصوت البعوض بمجادلة الركب وارتفاع اصواتهم . ويصور أيضاً
النايخة ناقته بثور الوحش في قوتها فيأتي بصورة وصفية حسية يجلب معانيها
وألفاظها من البيئة الصحراوية المحيطة به فيقول:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا *** بذلي الجليل على مستأنس وحد

من وحش وجرة موسى أكارعه *** طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

سرت عليه من الجوزاء سارية *** تزجي الشمال عليه جامد البرد

فارتاع من صوت كلاب فبات له *** طوع الشوامت من خوف ومن صرد

فبثهن عليه واستمر به *** صمع الكعوب بريات من الحرد

شك الفريضة بالمدرى فأنفذها *** شك المبيطر إذ يشفي من العضد

كأنه خارجاً من جنب صفحته *** سفود شرب نسوه عند مفتأد^(٢)

فهذه الصورة الحسية الوصفية التي أتى بها الشاعر تصور روح الصحراء
وكيف أن كل مفرداتها تنسم بالحركة القوية للدفاع عن نفسه ومكابدة الحياة وهي
صورة تجسدية، فقد شبه الشاعر ناقته بالثور الوحشي ولم يكتف بذلك بل أراد أن
يجعل من صورة الثور رمزاً لحياة البادية الصحراوية التي لا بقاء فيها إلا للقوي
وبذلك كان لابد من توفر صفات القوة والحركة والسرعة للثور الوحشي، وتصور
الصراع بين الحياة في تلك البيئة وبين مكابدة الإنسان لها، ويعبر هذا الثور الضامر

(١) شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسن السكري، حققه عبد الستار أحمد فراج، راجعه
محمود محمد شاكر، الجزء الثالث، ص ١٥٦. الخموش: البعوض، الهياط: الصياح والمجادلة.

(٢) ديوان النايخة الذبياني، ص ٦-١١. زال النهار: انتصف، الاستئناس: النظر - والذي يخاف الناس، ذي
الجليل: موضع ينبت الجليل وهو الثمام، وحش وجرة: فلاة مجمع الوحش، موسى أكارعه: أي بيض وفي
قوائمه نقط سود. طاوي المصير: ضامر، كسيف الصيقل: الفرد - يريد أنه يلوح كأنه سيف صقيل، سرت:
إذا أمطرت ليلاً، السرّي: السير ليلاً، تزجي: تسوق وتدفع على الثور، جامد البرد: أي ما صلب من الثلج
والجليد.

البطن الذي تساقط عليه البرد وهو يقف وسط هذه العواصف وقد نشبت المعركة بين الكلاب التي تطارده وانتهت بفوز الثور الذي استطاع أن يطعن الكلاب بقرنه طعنة قاتلة، أخذ الكلب إثرها يتلوى من شدة الألم، ولما رأت الكلاب الأخرى انسحبت واحداً تلو الأخرى.

فقد استطاعت القصيدة القديمة أن تعكس الصورة الحية للعصر الجاهلي من خلال الأوصاف الحسية الخارجية للصحراء وما فيها من مفردات، فقد وصفت الأطلال وخرجت إلى الناقة والفرس وإلى الفخر بالنفس والقبيلة واستطاعت أن تعكس الإحساس بالعصر.

وقد ورد الوصف الحسي أيضاً في النسيب والغزل في وصف المحبوبة التي تصور وتصف صورة الطبيعة الصحراوية.

وقد وصف النابغة محبوبته نعى بأوصاف حسية عذبة وواضحة للعين حملت في طياتها الرملة الهاري وهو كثنان الصحراء والشمس وأبراج الفصول وكان الوصف والتشبيه مستقاه من تلك الرموز الموجودة في بيئته فيقول :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها *** لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار
يلاث بعد افتضال الدرع مئزرها *** لوثاً مثل دعص الرملة الهاري
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها *** في جيد واضحة الخدين معطار
تسقي الضجيع إذا استسقى بذى أشر *** عذب المذاقة بعد النوم مخمار
كأن مشمول صرفٍ علّ ريقتهَا *** من بعد رقدتها أو شهد مشتار^(١)

فقد وصف النابغة محبوبته بأنها بيضاء مشرقة كالشمس في صفائها وبهائها تبعث في قلبه الحياة والدفئ، ويوم الأسعد هو اليوم الذي تطلع فيه الشمس في برج السعود وتظل صافية لا سحاب ولا ضباب، ولم تكن ضوءها ونورها المتلئلي، فهي ليست كالشمس التي ترى كل يوم، ويوم الأسعد يشير البدوي لها فهي إشارة للنماء والخصب، والعرب يتفاءلون بذلك وتقول "إذا طلع سعد والسعود نضر العود" دلالة

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٤-٢٣٥. تلوث: تلف ثيابها بعد التوشح، الضجيع: الزوج، ذي الأشر: هو الثغر الحسن، الشمولة: الخمر الصافية الخالصة، المشتار: هو الذي ينزل العسل من بيوت النحل.

للازدهار والنضارة، فهي لم تؤذ أحداً وذات خلق قويم وكرم وعفة وطهارة ولا تعرف الكلمة الفاحشة وتلف ثيابها بعد التوشح عفة على جسم ممتلئ وأردافها كأنها كثنان رمل، والدعص كومة الرمل.

والطيب يزداد طيباً أن يكون بها والمراد وصف ريقها بالعدوبة والحلاوة، وقال بعد النوم ليؤكد عدوبة هذا الريق فإن هذا هو الوقت الذي يتغير منه الفم ويفسد طعمه، والضجيع هو الزوج والثقر طيب الرائحة معطر، ووصف ريقها بعد نومها كأنه خمراً صرفاً أو كأنه عسل وهذا تأكيد للمعنى الأول.

وهذه الأوصاف التي ذكرها الشاعر من إشراقها وامتلائها وطيبها وعدوبة مذاقها استطاع أن يأتي بهذه الأوصاف المستمدة من وحي البيئة الصحراوية. ونجد أن القصيدة القديمة حملت معاني ودلالات مقتبسة من واقع البيئة فكل بيت من أبيات القصيدة يعبر عن موقف معين، وقد كان للأوزان والموسيقى والأنغام المصاحبة لها انعكاس لكثير من القيم والصور، ولن تكون الصورة واضحة إلا من خلال عكس هذه الصور والرموز والمشاعر في القصيدة محققة التوازن بين الفكر والإحساس وبين العاطفة والصورة، وبين الانفعال والصوت، فلن يتأتى ذلك إلا لمن عايش ذلك الواقع بفكر ثاقب وبصيرة نيرة. يقول عنتر بن شداد يصف ثعباناً في الصحراء بقوله:

له ربة في عنقه من قميصه *** وسائره عن متنه قد تقردا
رقود صخبات كأن لسانه *** إذا سمع الأجراس مكحال أمرداً^(١)

وقد عرفوا مواضع مزاحفها وشكلها فصوروها تصويراً يتسق مع واقع الحياة البدوية في الصحراء.

وقال المنخل الهذلي يصور أثر مزاحف الحيات في الصحراء ويشبهه بآثار السياط على الأرض وهذا مقتبس من أثر مادي أمامه وهو اثر علي الارض والسوط وهو من احتياجات البدوي في الصحراء . يقول:

(١) المعاني الكبير في أبيات المعاني، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م ج٢، ص ٦٧٢.

كأن مزاحف الحيات فيها *** قبيل الصبح آثار السياط^(١)

وهذا الذي يجسد الموصوف ويقرب المعنى.

وقال آخر يرسم صورة ووصف الحيات وآثارها فوق رمال الصحراء، وهو تجسيد لصورة حية بصورة منتزعة من البيئة.

كأن مزاحفها أنسع *** جردن فرادى ومثائها^(٢)

ويصور النابغة صورة الحرب وعواقبها من قتل وتقطيع الجثث على الأرض وتجسيد ذلك بصورة فنية قوية. يصف هذه المشاهد وغالباً ما تكون الصحراء هي ساحتها بقوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم *** عصاب طير تهدي بعصاب
جوانح قد أيقن أن قبيله *** إذا ما التقى الجمعان أول غالب
لهن عليهم عادة قد عرفنها *** إذا عرض الخطي فوق الكواثب
تراهن خلف القوم خزراً عيونها *** جلوس الشيوخ في ثياب الارانب^(٣)

فقد صور الشاعر هذا المشهد ويقول أن الطير تحلق فوق جيشه لتأكل من جثث قتلاه، وهي طيور مدربة وضاربة فوصف صورتها وصفاً جيداً فقال تراهن خلف الجيش خزراً عيونها أى تنظر بمؤخرة العين وكأنها شيوخ جالسة في أكسية مرنبانية أى مصنوعة من جلد الأرنب، وهي مائلات جوانح مستعدة للانقضاض على جثث القتلى ومستيقنة أنه إذا ما التقى جيشه وجيش أعدائه فحسبت أول غالب من أول وهلة، وهذه الطيور تعرف بغريزتها أن الجيش خارج للقتال إذا رأت أن الرماح خرجت فوق الكواثب أي قربوس الفرس:

(١) شرح أشعار الهذليين، الجزء الثالث، ص ١٢٧٣.

(٢) الحيوان، الجاحظ، الجزء الرابع، ص ١٧٥. الأنسج: جمع نسع وهو سير يجعل زماماً للبعير وغيره.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٧. حلق فوقهم: يعني الجوارح لأنها تأكل من يقتله هذا الجيش، تهدي: تتخذها

هدى. جوانح: مائلة في احد شقيها للوقوع - لهن: يعني الطير علي الرجال أى قد تعودت الظفر -

الكواثب: الكاثبة من الفرس ما تقدم من قربوس السرج

وهناك صورة تجسدية تصويرية تمثل لوحة فنية حسية ليوم ممطر في الصحراء. يقول امرؤ القيس :

وأضحى يسحُّ الماء عن كل فيقة *** يكبُّ على الأذقان دوح الكنهبل
كأن مكاكي الجواء غُدِيَّة *** صحن سلافاً من رحيق مفلفل
ومرَّ على القتان من نفيانه *** فأنزل منه العَصَم من كل موئل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة *** ولا أطمأ إلا مشيداً بجندل
كأن أباناً في أفانين ودقه *** كبير أناسٍ في بجادٍ مُزمل
كأن ذرى رأس المجيرم غدوةً *** من السيل والإغثاء فلكة مغزل
كأن سباعاً فيه غرقى عشيةً *** بأرجائه القصوى أنابيش عنصل
وألقى بصحراء الغبيط بعاعةً *** نزول اليماني ذي العياب المحمل^(١)

فقد صور الشاعر في هذه الأبيات مشاهداً ليوم ممطر وصوره بمهارة ودقة وحبكة جيدة، فقد كان الغيث من الشدة والعنف بحيث استطاع أن يكتسح لتدفقه وقوته كل ما في طريقه ويقتلع أشجار الكنهبل اقتلاعاً ويلقيها على أذقانها فتخر صريعة، ثم تطاير وتناثر رشاش هذا الغيث فوق الجبال فأفزع الأوعال فهربت لمكان يأويها من المطر.

ولم تترك الأمطار في منطقة تيماء شجرة أو نخلة إلا وتحطمت، وإذا نظرت إلى ما فعل الغيث بالصحراء حتى أصبحت في شكل أشبه بسيد القوم الذي يجلس وتلفح بكساء مخطط، ثم ازدهرت الأرض فأصبحت أشبه ما يكون بقرعة من الأرض قد نشر عليها التاجر اليماني بضاعته المشتملة على ألوان مختلفة من الثياب.

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢١-١٢٢، الفيقه: الفترة ما بين الحلبتين - الكنهبل: شجر ضخ، المكاكي: نوع من الطير واحده مكاءة وهو حسن التغريد في الصباح، الجواء: موضع بنجد، مرَّ على القتان: مر السحاب على جبل القتان في بلاد بني أسد ابن خزيمة، من نفيانه: ما نفى من قطره، من كل موئل: من أماكنها الحصينة الشامخة، الأطم: الحصن المشيد، أبان: جبل، أفانين ودقه: ضروب مطرة ويروى (كأن ثبيراً في عرانيين وبله)، الإغثاء: ما يحمله السيل من بقايا الأشياء، أبانين عنصل: أصول العنصل وهو البصل البري، صحراء الغبيط: الحزن من الأرض، ذي العياب: صاحب الأحمال المملوءة ثياباً.

وأصبحت الطيور كأنها قد شربت قدراً كبيراً من الخمر الجيدة فانطلقت
ألسننتها بالصياح والتغريد ولاحت تشدو ثملة من حدة الشراب وقوته، وفي هذا البيت
تصوير بديع وقدرة على بعث الصورة لتعانق السمع والبصر فكيف أن الطيور تغرد
بعد أن صفا لها الجو، ولكن رغم فوائد الامطار وصورها الجميلة إلا أنها أغرقت
السباع في السيول وتلطخت بالطين وهي على هذا الحال أشبه بأصول البصل حين
تنزعه من الأرض ملطخاً بالطين وهذا يمثل صورة حسية تجسدية لتصوير البيئة
البدوية الصحراوية وثورة من ثوراتها.

فقد كان للوصف الحسي في القصيدة أثر واضح في رونقها وبقائها بما فيها
من وصف وحفظ لأماكنها التي ذكروها والحياة الاجتماعية، فقد ظل البدوي وفيماً
بقيم حياته وعاداته الموروثة من كرم، وفرٍ ووصل وهجر وحب وكره وكرم وضيق
وجدب وبخل وصفاء، ولم يكن يفر من واقعة فادي واجبه بكل صدق وموضوعية
وواقعية في حياته البدوية في الصحراء مما أكسبها الخلود والبقاء، وقد تميزت
القصيدة بطول النفس وروعة الصنعة وفنية التصوير فلم يركز الشاعر فقط على
راحة حبيبته ووصفها، أو على الناقة وإنما أتى لنا بذلك ليصور حياته الاجتماعية
ولذلك ترتبط مع بعضها نفسياً وذاتياً بقدر ما ترتبط موضوعياً واجتماعياً وفكرياً
وموسيقياً.

ومن الملاحظ أن الشعراء الذين عاشوا في القفار هم أدق وصفاً وأكثر تحديداً
لمعايشتهم لبيئتهم وتتبعها، ويتجلى ذلك من خلال أشعارهم، وهكذا يسير الشعراء في
تتبع هذه البيئة وما ينتابهم من انفعالات وأحاسيس مستخلصين تجاربهم في ما يقع
أمامهم من صور محسوسة مستغلين مفردات البيئة الصحراوية من جماد وأحياء.
وقد ارتبط الفرس ارتباطاً وثيقاً بحياة البدوي فيمنح الحارث بن وعله
الجرمي فرسه صفة من صفات الإنسان وهي مناداتها للفرسان لإظهار شجاعتهم
ودعوتهم إلى الثبات والصمود في القتال يقول:

ولما سمعتُ الخيلُ تدعو مقاعساً *** تطالغني من ثغرة النحر جائراً^(١)

أما الناقةُ فهي إحدى مفردات بيئة الصحراء وأهميتها بالنسبة للبدوي فهي راحلته في الصحراء والبدوي مولع وخبير في الصحراء ومتاهاتها يعرف كيف يسير عبر تلك الفيافي دون أن يضل طريقه مهتدياً في ذلك بالنجوم واتجاهاتها قال تعالى: (وبالنجم هم يهتدون)^(٢) سميده في ذلك مطيته وهي تطوي الفلاة طياً، ولذلك وصفوها وفصلوا فيها وتكاد لا تخلو قصيدة لشاعر في ذلك الزمان إلا وذكرها فيصورها الشاعر ويحيطها بأجود الأوصاف فهي من الإبل الكرام السريعات في السير فتظهر براعة طرفة التصويرية الحسية في رسم التعاريج والخطوط والآثار التي تبدو في أثناء سيره في الصحراء. يقول واصفاً طريقاً مسلوكةً في الصحراء القاحلة:

أمون كأواح الإران نساتها *** على لاحب كأنه ظهر بوجد

تباري عتاقاً ناجيات واتبعته *** وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ معبداً^(٣)

وتستمر القصيدة في وصف تلك الناقة التي بها فخذان كاملان مكتنزا اللحم كأنهما مصراعاً باب قصر منيف مملس قال:

لها فخذان أكمل النحض فيهما *** كأنهما بابا منيف ممرداً^(٤)

ثم يلتفت فيرى آثار السيور في ظهرها وجنبيها قنبار إلى ذهنه معالم طريق وراء المياه على هضبة في أرض صلبة مرتفعة ثم يزيد في هذا الوصف ومعانيه فيجعل الآثار شديدة البياض وذلك لكثرة المرور عليها من آثار الأقدام وظهور آثار المشي. يقول:

(١) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الأول، ص ١٦٤، الثغرة: في أعلى الصدر، الجائر: حرٌّ يؤدي الجوف

عند الجوع، مقاعس: أراد بني مقاعس وهم بنو الحارث بن عمرو، تطالغني: طلع وارتفع يعني فرعاً.

(٢) سورة النحل الآية ١٦ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٦ .

(٤) المصدر السابق، ص ٤٧ .

كأن علوب النسع في دأياتها *** موارد من خلقاء في ظهر قرد
تلاقي وأحياناً تبين كأنها *** بنائق غرّ في قميص مقدد^(١)

وكان للشعراء دور بارز في إبراز الصور الجمالية والبديعية للصحراء فوصفوا نجادها ووهادها ووديانها وحرّها وبردها ورمالها وجبالها وسمائها وأرضها وغيومها وأمطارها ونباتها وليلها الهادئ ونجومها الزواهر ورياحها بكل أنواعها وتفصيلها ونسيمها العاطر.

بل وصفوا السيوف التي يستعملونها في حروبهم فرسموا صورها بدقة وعناية. قال عمرو بن كلثوم:

كأن سيوفنا فينا وفيهم *** مخاريق بأيدي لاعبين^(٢)

والسيف من الأسلحة التي حرص عليها البدوي وما دونه عنده أسلحة ثانوية ولذلك انتزع له الأوصاف التي عرفها من تجربة فهو الصارم - الباتر - القاطع - المضاء - الأبيض - المهند - الحسام - وقد اتخذ شعراء الجاهلية من وصفهم للسيف صوراً متعددة وذلك دليل علي نبوغهم وقدرتهم علي استيعاب الصورة وإبرازها وبصورة البرق كقول حسان:

كانها في الاكف اذا لمعت *** وميض برق يبدو وينكشف^(٣)

ونلاحظ في وصف الشعراء لمفردات البيئة الصحراوية عدة أمور منها:
أولاً: الوقوف على الخصائص والصفات الجسدية والحسية للناقة بالإضافة إلى الخصائص النفسية فهي سريعة وقوية ونجيبة وكثيرة الحركة... إلخ.
ثانياً: الاهتمام بالناقة اهتماماً ملحوظاً والوقوف عندها وقفة طويلة لا تقل عن الوقفة عند المرأة والاهتمام بها فهي ذات حضور متميز تحظى بكل اهتمامه، وهي سفينته وحياته في الصحراء.

(١) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٥٠.

(٢) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٣١٠ - مخاريق : حديد يلعب به الصبيان

(٣) ديوان حسان بن ثابت : ص ١٠٢.

ثالثاً: اتسمت الطبيعة الصحراوية بالتنوع الجمالي في مناخها. وبذا كان الوصف والتشبيه أهم ما يميز الأداء عند الشاعر فالناقة تشبه ألواح الأران والطريق كأنه كساء مخطط وهي كالنعامة، والفخذان كأنهما باب منيف، والجمجمة مثل السندان.

كل هذه التشبيهات متوالية بالتفاصيل وتفصح عن أدق الملامح أما النعوت فهي الدعامة الثابتة من دعامات الوصف فهي عوجاء ومرقال وأمون وجمالية.

رابعاً: أكثر الوصف قد ورد في معلقة امرئ القيس وهي أوصاف متراكمة فهي تقوم على الحركة وتدل عليها كقوله:

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة *** ولا أطمأ إلا مشيداً بجندل
كأن أباناً في أفانين ودقه *** كبير أناس في بجاد مزمل
كأن نرى رأس المجير غدوة *** من السيل والإغثاء فلكة مغزل
وألقى بصحراء الغبيط بعاعه *** نزول اليماني ذي العياب المحمل^(١)

ونجد وصفهم للمعنويات والمدركات العقلية والخيالية ونجد الوصف الذاتي كقول المرقش الأكبر :

سرى ليلاً خيال من سليمى *** فأرقني وأصحابي هجود
فبت أدير أمري كل حال *** وأرقب أهلها وهم بعيد^(٢)

وعلى الرغم من وصفهم الحسي لكن نجد الوصف التجريدي وهو كثير ورد في الحكم التي يعج بها شعرهم وذلك في قول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب *** تمته ومن تخطي يعمر فيهرم^(٣)
وقوله :

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٢. أبان: جبل، أفانين ودقه: ضروب مطره، البجاد: الكساء المخطط.

(٢) المفضليات: المفضل الضبي، ص ١٠٤.

(٣) ديوان زهير، ص ٤٩.

ومن لا يصانع في أمور كثيرة *** يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم^(١)

فهذه حقائق مجردة يقدمها الشاعر ماثلةً مرئيةً تسري إلى النفس دون معاناة
لوضوحها ودقتها كما نجد الوصف المادي بكل أشكال وألوان ومحتويات الصحراء
كقول علقمة في وصف الناقة :

فدعها وسل الهم عنك بجسرة *** كهمك فيها بالرداف خبيب

وتصبح عن غب السرى وكأنها *** مولعةً تخشى القتيص شيوب^(٢)

ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر: (ولقد شغلني إعجاز القرآن كما شغل العقل
الحديث ولكن شغلني أيضاً الشعر الجاهلي وشغلني أصحابه فأراني طول الاختبار
والامتحان والمدارسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت إليه حتى صار عندي دليلاً كافياً
على صحته فأصحابه الذين ذهبوا وتبددت في الثرى أعيانهم رأيتهم في هذا
الشعر أحياء يغدون ويروحون رأيت شبابهم ينزرو به جهله وشيخهم تدلف به حكمته
فسمعت غزل عشاقهم وأنين بكائهم وهم للفراق مزمعون كل رأيتهم وسمعته من
خلال ألفاظ الشعر حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس وبحة المستكين وزفرة
الواجد)^(٣). وللشاعر الجاهلي أيضاً مقدرة على وصف النفس وأحوالها وخاصةً إذا
كان مهموماً ثقيل النفس كقول النابغة في تعقب الليل حتى يخيل إليه أنه راعي هذه
النجوم ويخاطب إبنته يقول :

كليني لهم يا أميمة ناصب *** وليلاً أقاسيه بطيئ الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض *** وليس الذي يرعى النجوم بأيب^(٤)

وهكذا نجد الوصف للطبيعة الصحراوية استغرق كما كبيراً من الأبيات الشعرية
التي تخللت القصائد في الصحراء.

(١) ديوان زهير، ص ٥٠.

(٢) ديوان علقمة الفحل، ص ٣٤.

(٣) فن الوصف في الشعر الجاهلي: د. علي أحمد الخطيب، دار المصرية اللبنانية، ص ٦٦.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٤.

الفصل الثالث

مدلول الوقفة الطليية في الصجرااء

مدلول الوقفة الطللية في الصحراء

شغلت الوقفة الطللية في الشعر الجاهلي النقاد والأدباء والباحثين فوقفوا أمام هذه الظاهرة متأملين ومحللين وأردنا الوقوف عندها باعتبارها أحد مفردات الصحراء التي أكثر من ذكرها الشعراء في قصائدهم . والطلل من بواعث قلق الشاعر في الصحراء وأحد مفرداتها فأتى معبراً عن الحب والشجن، وأحياناً يوحي بالألم والحسرة وأخرى بالرحيل والظعن، وتارة يتحدث عن الذكرى والتذكر في الماضي والحاضر ومشوب باللوعة والحسرة وفيه الرغبة والرغبة والوصف والإيحاء ويدلل على أنه مكن تنفس الشاعر وتعبيره عن مكنوناتهم النفسية، فنجد كل أديب وباحث وناقد نظر إليه حسب فكره وما توحى إليه حصيلته الفكرية فكان التباين في التفسير بل أخذ التفسير عدة مناحي واتجاهات (فبعضهم أخذه من الناحية الواقعية)^(١)، (وبعضهم عن الجانب النفسي)^(٢)، وتحدث آخرون من جوانب مختلفة فهي تتسع لكل هذه المناهج وغيرها.

والوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي جاء ثمرة للحياة المتنقلة في الصحراء، وأن النسب وذكور النساء جئ به لتسلية قلب السامع، وأن الرحلة لبيان العناء والكدر، فيستحق بذلك العطاء من الممدوح فالمقدمة الطللية تختلف من غرض لآخر في الشعر فتتزين المقدمة وتتلون بلون الغرض وحديثه عن صاحبه من الهجاء للمديح إلى الفخر، ففي المديح تأتي معبرة عن أشواق الشاعر وحنينه في زى ممدوحه، وفي الهجاء تأتي للوقوف عرضاً، ففيها مسحة تتلون بنفسيات الشاعر، فأما في الفخر فتأخذ الحدة والسرعة، وهكذا نجد في غيرها من اغراض الشعر.

والطلل باعث من بواعث الشاعر الجاهلي فيحمل ذكرى الحاضر والماضي والرغبة والرغبة ومعاني الحياة والبقاء والزوال والفناء، وقد تظهر الوقفة الطللية

(١) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص ٢١٢.

(٢) الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٢٧١.

نزعة فردية ومشكلة خاصة ورؤية ذاتية، فقد وردت في أشعار الجاهليين وبكوها أحر البكاء فوقفوا على سهولها ووديانها وجبالها ورمالها وأشجارها وحيواناتها التي تعيش في أماكن وتأتي عليها الأمطار، وتزيل أمنها، وصور خرس الديار واندثارها وطموسها وشكوا من غدر الزمان وأحسوا بالضياح والعذاب والقسوة، وصوروا حزنهم على الديار والوطن والصبأ وذكريات الحب والهيأ وبنوا آلامهم وأشواقهم وتخيلاهم وأمانهم عن تلك الحياة الدارسة فتكاد تكون الوقفة الطللية في العصر الجاهلي بمثابة كتابة رسم جغرافيا وتاريخ للمنطقة عبرت عنها القصيدة العربية فيسيح الشاعر في ربوع الصحراء فيرى هذه المناظر وتلك الصور.

فأمرؤ القيس وصف مظاهر الصحراء في مقدمة معلقته قائلاً:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *** بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمرقاة لم يعف رسمها *** لما نسجتها من جنوب وشمأل
ترى بعر الآرام في عرصاتها *** وقيعاتها كأنه حب فلفل
كأني غداة البين يوم تحملوا *** لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفاً بها صحبي على مطيهم *** يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة *** وهل عند رسم دارس من معول؟^(١)

ويقول زهير بن أبي سلمى في معلقته سالكاً ذات النهج في ذكر الأطلال

والوقوف عليها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم *** بحومانة الدراج فالمتثلم
ديارلها بالرقمتين كأنها *** مراجع وشم في نواشر معصم
بها العين والآرام يمشين خلفه *** وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة *** فلأياً عرفت الدار بعد توهمي
أثافي سفعا في معرس مرجل *** ونوياً كحوض الجد لم يتثلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها *** ألا أنعم صباحاً أيها الربع وأسلم
تبصر خليلي هل ترى من ظعائن *** تحملن بالعلياء من فوق جرثم؟^(١)

(١) ديوان أمرئ القيس، ص ١١٠.

وللبيد قصيدة يذكر فيها وصفه للأطلال ومن خلالها يصف كل ما حولها.

يقول:

ألم تلمم علي الدمن الخوالي *** لسلمى بالمذانب فالقُفال
فجذبني صوارٍ فنعاف قو *** خوالد ما تحدثت بالزوال
تحمل أهلها إلا عراراً *** وعزفاً بعد إحياء حلال^(٢)

وهكذا نجد هناك ملامح مشتركة في وصف الطلل من ناحية التعبير، والمعنى إذ يصدر من وحدة متجانسة فهي وحدة تفكير البدوي في الصحراء وعن القيمة الفنية لأنها تصدر من ماعون واحد، وهو مكون البيئة الصحراوية.

وقد ذكر ابن قتيبة في وصف الطلل أنه تعبير عن الأسى الذاتي عند آثار حبيبة حقيقية راحلة^(٣). وعلل شوقي ضيف بكاء الديار القديمة بأنه بكاء يفيض بالحنين الرائع إلى ذكريات شبابهم الأولى^(٤).

ونلاحظ أن الشعراء الجاهليين على الرغم من تصويرهم للطلل فكل شاعر منهم يلون مقدمة قصيدته بفكر ولون خاص وبكاء ودموع وبموسيقى وبأس وحزن وغرض تمليه عليه الحياة الداخلية للشاعر، فحياة البدوي كانت معظمها تتسم بعدم الاستقرار، فكان الشعور بالحزن فالديار تعمر ثم تقفر والإحياء بالفناء والأحباب يظعنون فيتركون له الحسرة وفقد أحبابه وجيرانه.

وفي مقدمة قصيدة النابغة التي يرد فيها على تواعد زرعة له بالهزاء بقوله:

طال الثواء على رسوم ديار *** قفر أسائلها وما استخباري
دار تعفت لا أنيس بجوها *** إلا بقايا دمننة وأواري

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٣٣-٣٦.

(٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٠٣. تلمم: تقف، الدمن: الآثار، الخوالي: التي خلت أهلها، المذانب - القفال: أسماء مواضع، نعاف: جمع نعف وهو رأس الوادي، صوار: اسم موضع، خوالد: جمع خالد وهو الناحية، قو: اسم موضع، عرار: صوت ذكر النعام، عزفاً: انهيار الرمال وما تحدثه من دوي، الحلال: المقيمون.

(٣) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م، ص ٧٥.

(٤) العصر الجاهلي، شوقي ضيف ، ص ٢١٢.

قفت عليها فاضمحل طولها *** هوج الرياح وديمة الأمطار^(١)

ونلاحظ هنا هذه المسحة الحزينة التي تصدرت هذه القصيدة. فقد حددت الصحراء مسار الشاعر في تصويره وتفكيره وطرق حياته، فأنتت مقدمة القصيدة تعبر عن ثلاث اتجاهات رئيسة هي الخروج للصحراء للرحلة والصيد ثم وصف سرعة فرسه وتشبيهه بالثور في القوة والسرعة، أو الالتقاء بعشيرته وأهله في مجالس الأنس والسمر والشراب، أو الشعر للمرأة فيأتي الغزل وشعر الحب.

ويرى الدكتور أحمد الحوفي أن الحبيبة هي المثير الطبيعي لعاطفة الحب والأطلال المثير للمقارن أو الصناعي، وأن الحبيبة بعيدة عن الشاعر فديارها حلت محلها في إثارة عاطفتها^(٢). ولكن هناك ترابط وجداني لدى الشاعر بين الحبيبة وديارها وهي جزء من ذكرياته وحياته الماضية، فكان مبعث تجدد هذه الديار من خلال الرموز الموجودة فيها كالسيول والرياح وحرارة الشمس أو الكتابة الباقية على الحجر أو الوشم أو وجود الطباء التي انتشرت في مكان الطلل فهي تصور قحل الطبيعة، ورحيل المرأة والحب والحنين واندثار المنازل للترحال المستمر، وإذا كان من ظاهر القصيدة التي تجمع في ثناياها أبيات طليية هي معاني الدموع والبكاء والرحيل والرياح والاثافي... إلخ، لكن في حقيقته معنى آخر وهو صورة من عمل موازنة نفسية بينه وبين البيئة الصحراوية وهي أيضاً تسلية لهم ثم الخوض في غرض القصيدة.

وعليه فإن هذه المقدمات الرئيسة الثلاث التي اتسمت بها القصيدة العربية تأتي في النسب أو الغزل كما في مقدمة الأعشى:

ودع هريرة أن الركب مرتحل *** وهل تطيق وداعاً أيها الرجل^(٣)

وإما خمرية يفزع فيها الشاعر إلى حديث الخمر والشراب على نحو مقدمة معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصحنك فأصبحنا *** ولا تبقى خمور الأندرينا^(١)

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٩٦.

(٢) الغزل في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، ص ٢٧١.

(٣) ديوان الأعشى، ص ١٩٦.

وإما مقدمات تتحدث عن الفروسية وما يدور بينه وبين صاحبه من حديث حولها، كما نرى عند عروة بن الورد أو عنتره، وهذه الثلاث هي التي تملأ فراغ الشاعر الجاهلي في الصحراء وتخفف من عناء حياته فيها.

وكان تحديد مكان الطلل أو الرحل في الصحراء مهم لاتساعها ومعرفتهم بتلك الأماكن، فامرؤ القيس يذكر مثلاً الدخول فحومل، كما أن زهيراً ذكر الدراج والمتثلم، أما لبيد فقد ذكر منى وجبل الريان، وأما النابغة فقد ابتهل معلقته بحبيبه في العلياء والسند، أما الحارث بن حلزة فيؤكد طلل الحبس، وقد يذكرون مع الأطلال بعض المتعلقات بالطلل فيذكر توضح والمقراة والجنوب والشمال. يقول امرؤ القيس مثلاً :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمال^(٢)**

وقد يقف الشاعر على ثلاثة محاور في الوقوف على الأطلال في البيت الواحد كقوله أيضاً:

قفا نبك من نكري حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٣)**

فاستهل الشاعر بنفسه ورفيقه والحبيبة والمنزل. ولعلمهم أخذوا تعابير الوقوف على الأطلال من بعضهم فأصبح الوقوف والبكاء معاً يعبران عن هذا الموقف يذكر امرؤ القيس في دلالات الوقوف

قفا نبك - نبك الديار - عفت الديار - وقوفاً بها صحبي.

وعند زهير :

أمن ام اوفي دمنة لم تكلم * بحومانة الدراج فالمتثلم^(٤)**

وقفت بها بعد عشرين حجة * فلأيا عرفت الدار بعد توهم^(٥)**

(١) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٢٨٤.

(٢) ديوان امرؤ القيس، ص ١١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٠.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٣٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٥. لأيا: بعد جهد.

ديار لها بالرقمتين كأنها *** مراجع وشم في نواشر معصم (١)

ويذكر لبيد: - فوقفت أسألها وكيف سؤالنا *** صماً خوالد ما يبين كلامها (٢)

عفت الديار محلها فمقامها *** بمنى تأبد غولها فرجامها (٣)

ويذكر عنتره: - فوقفت فيها ناقتي وكأنها *** فدن لأقضي حاجة المتلوم (٤)

يا دار عبله بالجواء تكلمي *** وعمي صباحاً دار عبله واسلمي (٥)

وتلك أمثلة للعديد من الابيات التي تحمل هذه المعاني ، فالمقدمة الطللية ثمرة من ثمرات الحياة المتنقلة التي كان يحيها الشاعر في الصحراء وهي نابعة من حبه لوطنه ودهره.

ويذكر ابن رشيق قول ابن قتيبة من ذكر الطلل أن العربي عندما وقف على الأطلال مخاطباً الربع كان مسائراً لتلك البيئة الصحراوية وحياتها، "وكانوا قديماً أصحاب خيام ينتقلون من موضع إلى آخر فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار فتلك ديارهم" (٦). ولكن عندما تحولت البيئة العربية للحضرية كما في العصر العباسي تحولت العاطفة إلى رموز أخرى ولذلك نجد أبانواس يتهمك على من يقف عليها، وكذلك بشار بن برد (٩) أيضاً يتهمك على من يقف عليها ويقول:

كيف يبكي لمحبهه في طول *** من سيقضي لحبس يوم طويل (١)

أو قول أبي نواس:

قل لمن يبكي على رسم درس *** واقفاً ماضر لو كان جلس (٢)

(١) المصدر السابق، ص ٣٤.

(٢) ديوان لبيد ، ص ١٦٥. الصم : الصخور، الخوالد: البواقي.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٤) ديوان عنتره بن شداد، ص ١١٨. فدن: القصر شبهه به الناقة في كمال خلقها ، المتلوم: المتكمن يريد نفسه

(٥) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٦) العمدة، ابن رشيق، الجزء الأول، ص ٢٢٦.

(٩) بشار : هو بشار بن برد أبو معاذ شاعر المولدين على الإطلاق أصله من طخارستان غربي نهر جيحون ونسبته إلى امرأة عقلية قيل أنها أعتقته من الرق وكان ضريراً نشأ بالبصرة وقدم بغداد أدرك الدولتين الاموية والعباسية شعره من الطبقة الأولى جمع بعضه بديوان اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة سنة ١٦٧ هجرية - أنظر الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٥٢.

(١) ديوان بشار بن برد، شرح حسين حمودي دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ ، ج ١ ص ٤٨٤. المحبس: الحبس، الطلول: جمع طلل، اليوم الطويل: الحشر - أي أنه ينكر على نفسه أن تسعى إلى اللهو والتصابي الذي منه بكاء الأطلال ما دام أدرك أن يوم الحشر آت.

(٢) ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، ص ٣٦٦.

الفصل الرابع

الموقف النفسي للشاعر الجاهلي

الموقف النفسي للشاعر الجاهلي

للشعراء مواقف في أشعارهم ومعاني تأتي معبرة عما يجيش في خواطرهم ونفوسهم وهي انفعالات نتاج للواقع الذي يعيشه أو للمؤثرات البيئية التي تحيط به فيأتي حديث النفس معبراً عن تلك الانفعالات من خلال القصيدة ونجد أن الشعراء كان لها ذلك الأثر في نفوس الشعراء تجلت من خلال قصائدهم إذ لم يختصر أثرها على الحياة الاجتماعية أو الأدبية أو الاقتصادية أو اكتساب البطولة والشجاعة فحسب بل امتد أثرها واضحاً في قصائدهم الشعرية التي تعبر عن كل موقف نفسي يسيطر على الشاعر .

يقول لبيد بن أبي ربيعة:

أرى النفس لجت في رجاء مكذب *** وقد جربت لو تقتدي بالمجرب^(١)

ويقول أيضاً:

وأكذب النفس إذا حدثتها *** إن صدق النفس يزري بالأمل^(٢)

ونلاحظ كيف أن امرئ القيس تعود إلى نفسه الحزينة ذكريات يوم الرحيل يوم أن رحلت محبوبته عن هذا المكان وقد وقف بين شجيرات السمر الشائكة التي قاست الحياة وصمدت فيزرف الدموع على فراقها فيحاول صاحباه تخفيف ألم الحزن ويكفكفا دموعه التي تسيل وعبراته، ويطلبان منه الصبر وأن بكاءه على هذه الأطلال لا يجدي يقول:

كأني غداة البين يوم تحملوا *** لدى سمرات الحي ناقف حنظل

وقوفاً بها صربي على مطيهم *** يقولون لا تهلك أسىً وتجمل

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ٢٦، في رجاء مكذب : يقول يرجو البقاء وطول السلامة ويكذبها الموت .

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١ -يقول حدث نفسك بالظفر وبلوغ الأمل لتتشطها على الإقدام ولا تحدثها بالخيبة فتتبطها أو منّا بالعيش الطويل لتجد في الطلب ولا نقل لها لعلك تموتين اليوم أو غداً .

وإن شفائي عبرة مهراقة *** وهل عند رسم دارس من معول^(١)

ولكن ذكريات الماضي البعيدة وما انطوى عليه من حب ممتع لا يفارقه حتى تعود صورة الحبيبة مرة أخرى فيدخل صراع نفسي آخر وتتنصر العاطفة على العقل فيفزع مرة أخرى إلى حزنه ودموعه يزررها بحرارة كقوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها *** وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا توضع المسك منهما *** نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل
ففاضت دموع العين مني صباية *** على النحر حتى بلّ دمعي محملي^(٢)

ونجد عنتر بن شداد تنازعه كثير من العواصف بفعل الحب فتارة يناجي الخيال ومرة محبوبته وأخرى يزجر حساده، فكانت صلته بالقبيلة وبين متطلباته في خياله أدركت موضع عبله في نفسه فأنت كثير من المقابلات في قصائده بين ما يريده ويتمناه وما هو موجود، فنجده يقابل بين الأسود والثعالب، والأحاب والأعداء، والمكان الأليف والمكان الأبدي كقوله:

ينادونني في السلم يا بن زبيبة *** وعند صدام الخيل يا بن الأكايب
ولولا الهوى ما ذلّ مثلي لمثلهم *** ولا خضعت أسد الفلا للثعالب
وليت خيالاً منك يا عبل طارقاً *** يرى فيض جفني بالدموع السواكب
مقامك في جو السماء مكانه *** وباعي قصير عن نوال الكواكب^(٣)

فمن هنا نجد أن أي شاعر يتأثر بكل موقف يهز مشاعره فشعراء البادية يعبرون عنه تعبيراً مربوطاً ببيئتهم فيثورون ولكنهم لا يلجأون إلى المبالغة أو التهويل من الصورة أو الخروج عن حد الاتزان سواء كان في المدح أو الهجاء أو الرثاء أو غير ذلك من أغراض الشعر الأخرى.

(١) ديوان امرئ القيس ص ١١١.

(٢) المصدر السابق، ص ١١١-١١٢.

(٣) ديوان عنتر بن شداد، ص ٢٢- زبيبة : أمة حبشية - نداؤهم له بأمة تهجين له وتعبير - ويريد بالهوى

هواه بعبلة - فيض الجفن : كثرة ما يسيل منه من الدموع - السواكب : المنصبه

يقول النابغة في مدح النعمان بن الحارث الاصغر الغساني وهو موقف يحتاج فيه إلى المبالغة ولكنه أتى بأسلوب متزن فالموقف له ربط بين الواقع والبيئة بكل مكوناتها الحيائية فصار يقول:

لا يخفض الرز عن أرض ألمّ بها *** ولا يضل على مصباحه الساري
قد عيرني بنو ذبيان خشيته *** وهل على بأن أخشاه من عار^(١)

وأحياناً يستعيض الشاعر عن نفاثته ومأساته بتكرار الألفاظ في القصيدة ويعبر عما يختلج في نفسه من شدة الغضب ويذكر المهلهل أخاه كليب فيصف الأيام التي دارت على بكر فقال:

على أن ليس عدلاً من كليب *** إذا رجت العضاة من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب *** إذا طُرد اليتيم من الجنور
على أن ليس عدلاً من كليب *** إذا ما ضيم جيران المجير^(٢)

وقد كرر الشاعر هذه الألفاظ المملوءة بالقوة والإحساس النفسي بالمأساة تسع مرات في القصيدة (علي ان ليس عدلاً من كليب) فهذا نتاج الحرب في الصحراء. وعندما قتل المهلهل بجيراً ابن أخ الحارث بن همام وكان رسول مودة وسلام ثار الحارث بن همام وأخذ يتوعد المهلهل ودعا بفرسه وكانت تسمى "النعامة" فهلب ذنبها ثم قال:

يا بني تغلب خذوا الحذر إنا *** قد شربنا بكأس موت زلال
يا بني تغلب قتلتم قتيلاً *** ما سمعنا بمثله في الخوالي
قرباً مربوط النعامه منى *** ليس قولي يُراد لکن فعالي^(٣)

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٨٣، الرز: هو الصوت، المصباح ههنا: النيران، الساري: الماشي بالليل.

(٢) أيام العرب الجاوي، ج ١، ص ١٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦١. النعامه: فرس الحارث، أصل النعاج: الجمل.

وأخذ الشاعر يكرر في هذا الشطر من البيت "قرباً مربط النعامة مني" حتى بلغ سبع عشرة مرة، وهذا يمثل دلالة واضحة على حالة الشاعر النفسية والتي ينتفس من خلالها بكل صدق ورؤية فيتفاعل مع بيئته من خلال تكرار الألفاظ التي تدور في القصيدة.

أما النابغة فلم يخف حيرته واضطراب نفسه في حبه لمحبوته نعمى فهو ينادي صاحبه حارث أن يساعده ويتثبت معه من هذا الضوء المبهر الظاهر الوضئ الذي رآه بعيداً في الأفق لمحة من ضوء برق أو وجه نعمى أم لهب نار بقيت تحترق وتتقد ويتقد فؤاده، كما تحترق أنفاسه، وذكر أساليب الاستفهام ودلالاتها على ترائي الأطياف، وأنه عاد من غيبوبته وتثبت معه صاحبه وكيف أنه حذف حرف النداء وطرح الاسم حار بدلاً من حارث ولم تمهله نفسه حتى يدعو صاحبه دعاءً واضحاً وقد خذلته قدرته المضطربة ثم تجمع له فكره وقال أنه وجه نعم فالمنازل المتفرقة ألهمت فيه هذه المشاعر يقول:

أقول والنجم قد مالت أواخره *** إلى المغيب تبين نظرة حار
ألمحة من سنا برق رأى بصري؟ *** أم وجه نعم بدا لي أم سنا نار؟
بل وجه نعم بدا والليل معتكر *** فلاح من بين أبواب وأستار^(١)

فليلبئة أثرها الجوهري في خلق الشخصية وتنمية الملكة لدى الشعراء وصلل الوجدان وطبع الشعور بطابع الرقة أو الغلظة فهو انعكاس لما يدور في خلد الشاعر، فالإنسان وليد بيئته وطبيعته والمكون النفسي له أثره في الطبع، فالبدوي غالباً لا يرحل وحده ولا يسير وحده ولا يقطن في الصحراء وحده، فكان هذا التماسك لهذه المجموعات المكونة للعشيرة طلباً للأمن والعيش الجماعي ولذلك أنت معظم أشعارهم معبرة عن مواقف نفسية ووجدانية وأخلاقية وبطولية تأخذ صورة القوة طبعاً، ولذلك نجد أن الشعراء غالباً ما يختمون قصائدهم بلوحة حزينة وكأنها توهن وهنا معنوي بعد رحلة ذهنية طويلة يصف فيها الشاعر كل ما يمر به بنبرة

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٥.

فيها حزن ونفاد لقوته المعنوية والفكرية في آخر القصيدة وهذا بالطبع عامل نفسي يستقى من الحالة العامة لحياة الصحراء.

ومقدمات القصائد التي يناجي فيها الطلل والحجر ويبيكه كثيراً فيطفي في القصيدة شيئاً من لواعج شوقه وحنينه، ولكن هيهات أن تتحدث الآثار أو ينطق الحجر وهيهات أن تجد النفس شفاءها وجوابها في سؤال الحجر، وعند تصوير الشاعر للفراق يقوم بتصوير كل معاني اللحظة التفصيلية فتأتي قبلها صورة الماضي التليد فيصور صورة الرجل والهوادج، ويصف شكلها وحالها وما ينبعث من عيونهن من عطف ورقة وحزن وما يفيض في عيونهن من حنان ورقة وحزن. يقول لبيد معبراً عن ذلك بقوله:

شافتك ظعن الحي يوم تحملوا *** فتكنسوا قطناً تصر خيامها
من كل محفوف يظل عصيه *** زوج عليه كلة وقرامها
زجلاً كأن نعاج توضح فوقها *** وظباء وجرة عطفاً آرامها^(١)

فهذه المشاهد الرقيقة التي يصورها الشاعر تأتي معبرة عن موقفه النفسي في تلك البقعة الصحراوية الممتدة والتي عفى عليها الزمن فتأتي مشاهد الرحيل والظعن أمام مخيلته ويحدق في هذا المشهد إلى أن يبتعد فيصور الانفعالات الصادقة ويصف شعوره وأحاسيسه في تلك اللحظة، فصور لنا مشاهد الظعن حتى غاب عن عينيه وقد اختلط السراب في تلك القفر الممتدة حتى صارت من أجزاء الوادي البعيد فلم يعد يميز المشاهدين الطعائن ومتعلقات الوادي وأشجاره. يقول

حفزت وزايلها السراب كأنها *** أجزاع بيشة اثلها ورضامها^(٢)

وإذا حاولنا ربط الموقف النفسي العام للشعراء في تلك البيئة من خلال ما ورد في أشعارهم نلمس ذلك الانفعال السائد الذي غمر معظم قصائدهم وسيطر على كلماتها

(١) ديوان لبيد، ص ١٦٦. شافتك: دعتك إلى الشوق إليها، تكنسوا: دخلوا في الهوادج، قطن: الجماعة، تصر: خيامها: تهب الخشب فتصد، المحفوف: الهودج قد حف بالثياب، عصية: خشبة، الزوج، النمط الواحد،

الكلة: الستر الرقيق، القرام: ما يغطي به الشيء، زجل: جماعات، توضح ووجرة: موضعان.

(٢) الصدر السابق، ص ١٦٦.

ومعانيها وصورها فكل شئ يرمز إلى الإحساس بين الوجود والفناء فيصور الفناء والعدم وهما رمز الديار الدارسة بعد أن سكنتها الوحوش، فالصورة الأخيرة تعبر عن العدم والإصرار على مجابهة الواقع الصعب بشئ من العزيمة والقوة. واستطاع الشاعر أن يثبت قدرته على أن يجعل نفسه وتصوراته وتخيلاته خلف الشئ الموصوف دون أن يتحدث عن نفسه مباشرة، والتعبير المباشر عن تلك المخاوف من خلال جعل معادل موضوعي لهذه النفس، وكثيراً ما كانت في وصف الناقة التي يتم تشبيهها بالثور الوحشي وما يجده من معاناة، وهذه الصورة التي ورد ذكرها في المباحث السابقة.

(ونجد أن كل تلك العوادي التي تصيب الآثار والأطلال لها في النفس والفكر والشعور ولها في الخيال والتصوير معانٍ ذات رموز ودلالات تجتمع بين الدهشة والشجن والاعتبار، إنها في ذاتها شاهد على الزمان من حيث صروفه في كل كائن حي وغير حي حيث تذهب الجدة وتخور الفتوة^(١) .

ولذلك نجد أن الصحراء صبغت المجتمع البدوي بصبغة نفسية تميل إلى القوة والصرامة والخشونة ولمسة الحزن والبكاء أحياناً فيعجب الشاعر قومه ويزهو بهم ولا يكون منهم إلا الرجل القوي الذي يصبر على الشدائد ومنازلة الأعداء. يقول أحد شعراء هذيل:

أناسٌ تربينا الحروب كأننا * جدالٌ حكاكٍ لوحتها الدواحي^(٢)**

ولذلك نجد أنه كلما كان الأثر أكثر اندراساً كان التأثير أعمق وأقوى في نفس الشاعر وأبعث في استثارة عواطفه ووجدانه.

(١) الأطلال في الشعر العربي- دراسة جمالية، محمد عبد الواحد حجازي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، الناشر دار الوفاء للطباعة والنشر، ص ١٨.

(٢) ديوان الهذليين لأبي ذؤيب الهذلي، ص ٤٧ جدال: واحدها جدل وهي خشبة توضع للجري تحتك بها، لوحتها: أهمتها، الدواحي: يريد الابل .

الباب الرابع

**مظاهر الصحراء في الخصائص الفنية
للشعر الجاهلي**

الفصل الأول

البناء الفني للقصيدة الجاهلية في الصحراء

البناء الفني للقصيدة الجاهلية في الصحراء

اللغة العربية لغة شعرية غنائية حافلة بمفرداتها تسعف المعبر وتواتيه بالقافية وهي دقيقة في دلالتها غنية بأساليبها ومجازاتها ثرية بمفرداتها ومشتقاتها وفي كلماتها رنين وجرس يلائم الموسيقى والشعر.

ولما غلب على الصحراء طابع الجفاف والحرارة والحروب والتأثر واتساعها أدى إلى تمحور صفات الإنسان واكتسب عادات وتقاليد مستقاة من نفس وروح الصحراء، ولذلك كان لابد من فرض بعض الصفات من الواقع مثل المروءة، القوة، الشهامة، الكرم، العفة، المروءة، النجدة، الفضيلة التي تضمنتها ثنايا القصيدة وعبرت عنها ضمن موضوعاتها المتعددة التي حوتها.

وشكل القصيدة وبنائها الفني الذي يبدأ بالمقدمة ووحدة البيت ثم تعدد الموضوعات التي لا رابط بينها ينتقل فيها الشاعر من موضوع إلى آخر ليصل إلى غرضه النهائي وهذا البناء يتمثل في الآتي :-

المطلع - يصف فيه الديار، الخمر، الرحيل، الوقوف على الأطلال .. الخ.
وصف المطية ، الناقة ، الفرس ويشبههما ببعض الحيوانات أو الطيور في البيئة الصحراوية .

وصف المرأة وطمعها إلى أن يصل إلى خاتمة القصيدة أي الغرض الأساس الذي نظمت من أجله القصيدة .

فقد انطبعت روح ونفسية الشاعر على القوة وروح الحرب حتى في الغزل الذي يغلب عليه روح الرقة والرزانة. يقول امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها *** تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً *** على حراساً لو يسرون مقتلي^(١)

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١١٤.

ولو تأملنا هذه القصيدة في صياغتها ومعانيها ودلالاتها وما يسوغه الشاعر بينه وبين صاحبتة من براعة وتصوير والناس يسمرون من حوله فلا يخش ما يقع عليه ومحاولة صاحبتة تثبيته ولكنه يزيد إصراراً، فلا نجد فرقاً بين هذه الأبيات وما يذكره طرفة في تهديده ووعيده وفخره في قوله:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه * خشاش كراس الحية المتوقد^(١)**

ونلاحظ تشابه صورة امرئ القيس في غزله إلى حد كبير صورة طرفة بفخره وشجاعته وهما صورتان مليئتان بشرف الدفاع عن النفس.

وهناك صورة أخرى لعنتر بن شداد يعرض مواقفه البطولية عند الوغى كقوله مخاطباً محبوبته عبلة:

يخبرك من شهد الواقعة أنني * أغشى الوغى وأعف عند المغنم**

جادت يداي له بعاجل طعنة * بمثقف صدق الكعوب مقوم**

فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم^(٢)**

وبمقارنة هذه الصور الثلاث نجدها متشابهة في بعض العناصر التي تدل على القوة وهي أثر للصحراء في مفرداتها ووحيتها ومعانيها التي يصوغها الشاعر، فالقوة مطلوبة في ذلك المجتمع ولذا فهي انطبعت في نفس البدوي.

ونجد القصيدة العربية الجاهلية تسري مع روح الحياة البدوية فحياتهم في أغلبها حياة بدوية تتجاذبها الطنب من كل أطرافها يصرف دهره على ظهور النجائب، وإقامتهم في الديار منقطعة فالبدوي يسكن شعراً مقسوماً إلى مصراعين متوازيين يقابله بيت شعر متساوي الشطرين.

وقد وردت ألفاظ عديدة تدل على التفاؤل والنظرة الإيجابية في الصحراء، وهذا يدل على مدى التفاؤل الذي اتصف به البدوي رغم طبيعة الصحراء والحياة الاجتماعية التي ذكرناها، فنجد ألفاظ الحسن والملاحة والأناقة والزخرف، الوشم،

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٦.

(٢) ديوان عنتر بن شداد، ص ١٢٣-١٢٤.

الورد، الروضة، فأنت متناغمة مع تداخل موضوعات القصيدة وبنائها الفني
وتركيب ألفاظها ووضوح معانيها وذلك كقول الأعشى:

إلى هدف فيه ارتفاع ترى له *** من الحسن ظلاً فوق خلق مكمل^(١)

وكقول أبي ذؤيب الهذلي:

بذلت لهن القول أنك واجد *** لما شئت من حلو الكلام مليح^(٢)

ويقول زهير بن أبي سلمى:

وفيهن ملهى للطيف ومنظر *** أنيق لعين الناظر المتوسم^(٣)

ويقول أبو ذؤيب الهذلي أيضاً:

كأنها كاعب حسناء زخرفها *** حلي وأترفها طعم وإصلاح^(٤)

يقول طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة تهمد *** تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد^(٥)

ويقول الأعشى:

إذا تقوم يضوع المسك صورة *** والزنبق الورد من أراداتها شمل^(٦)

يقول عننرة بن شداد:

أو روضة أنفاً تضمن نبتها *** غيث قليل الدمن ليس بمعلم^(٧)

(١) ديوان الأعشى، ص ١٤٠.

(٢) ديوان أبو ذؤيب الهذلي، ص ٦٩.

(٣) ديوان زهير أبي سلمى، ص ٣٧. أنيق: معجب، المتوسم: الناظر الذي يتفرس في نظره كأنه يطلب شيئاً من سمته يعرفها به.

(٤) ديوان أبو ذؤيب الهذلي، ص ٦٩.

(٥) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٩.

(٦) ديوان الأعشى، ص ١٦٠.

(٧) ديوان عننرة بن شداد، ص ١١٩.

فقد استطاعت اللغة احتضان كثير من الألفاظ والمعاني الذاخرة فهي لا تقتصر على المعاني والتشبيهات المحسوسة وإنما كان الجانب المعنوي الذي يتم تجسيده في صورة ملموسة. والنابعة يصور ويجسد لنا الألم الذي يحسه والسهد الذي يعانیه فيأتي الموضوع الذي تناوله في القصيدة متناغماً مع ما يرمي إليه موضوع القصيدة يقول:

فبت كآني ساورتني ضيئة * من الرقش في أنيابها السُم ناقع**

يسهد من نوم العشاء سليمها * لحلي النساء في يديه قعاقع^(١)**

ومن هذه المفردات فقد تشكلت القصيدة البدوية في الصحراء على أساس يبني عليه شكل القصيدة وأصبح أنموذجاً واستطاع النقاد أن يقيسوا عليه، وكل من يخرج عن ذلك فهو خارج عن الإطار المحدد الذي عرفه الشعراء والنقاد، ونمط القصيدة الذي لم يستطع من بعدهم أن يأتوا به، فكان نظام الوزن والقافية والمطلع والتصريع والموسيقى كلها.

إذن العامل الجغرافي والمناخي له أثره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية ولذا أتى الشعر حاوياً وسائراً على خطى هذه الظروف معبراً عنها بكل صدق ودقة وتفصيل، فأنت القصيدة تحمل المعاني والرؤى والخيال والفكر، بل وشكل القصيدة مستنداً عليها من وحي فكره ومسار حياته (ولغة الشعر تتفاعل تفاعلاً مؤكداً بالبيئة وإطارها الزماني ولكنها تحمل نفسيات متحدثتها من الشعراء وتكشف عن طرائق تفكيرهم)^(٢).

فقد تطورت القصيدة العربية ومرت بعدة مراحل حتى صارت ما عليه الآن في تكوينها الذي اصطبغ في مراحلها بالصحراء وارتبط بها ارتباطاً وجدانياً.

(١) ديوان النابعة الذبياني، ص ٤٦. ساورتني: واثبتني، ناقع: ثابت، الرقش: المنقطة، يسهد، يمنع من النوم، السليم: اللديغ، الحلي: الخلاخل ويعلق عليه لثلاً ينام .

(٢) دوريات: مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ج ١٣، العدد الأول، ١٩٨٦م، د. عدنان حسين قاسم، ص

يقول ابن رشيق: "كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراضها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأجداد وسمائحها الأجواد لتتهنر أنفسها إلى الكرم وتدل أنباءها على حسن الشيم"^(١).

فالشاعر يأتي بمفردات البيئة الصحراوية ويربط بينها في أحداثها فتأتي مترابطة مع المعنى المراد إخراجها للسامع في تناغم وترابط وصور تشبيهية لتصل إلى السامع فتخلب عقله وتسترعي انتباهه فتأتي الصورة متحركة أمامه من فرط الربط الدقيق ورصد حركاتها .

وجاء التصوير البديع من الشعراء في وقوفهم على الأطلال وعبروا عنها في عواطفهم بطرق مباشرة وغير مباشرة وأن مقدمة القصيدة هو مفتاحها في فهم المعنى المراد. يقول عنتره معبراً عن هذا الموقف:

طال الثواء على رسوم المنزل *** بين اللكيلك وبين ذات الحرمل
فوقفت في عرصاتها متحيراً *** أسلُ الديار كفعل من لم يذهل
لعبت بها الأنواء بعد أنيسها *** والرامسات وكل جون مُسبل
أفمن بكاء حمامة في أيكة *** ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل^(٢)

وقد وجدت القصيدة القديمة اهتماماً بالغاً في مقدمتها وهي بضعة أبيات تلي المطلع وتختلف باختلاف موضوع القصيدة فقد تكون بكاء على الديار ووقوفاً عليها، أو غزلاً بالمحبوبة وحنيناً إليها، أو وصفاً للطيف الطارق وما يطويه من الأرض الشاسعة، أو توجعاً على الشيب والعمر الذي فنى، أو صورة الشاعر الذي يذب عن حياضه، وقد تأتي أحياناً وصفاً للطعائن التي همت بالرحيل وبكى عليها. ولكل مقدمة صورتها العامة التي تميزها عن غيرها حسب المناسبة، وكثير من الأشعار تأتي بدون مقدمة كما في بعض أشعار الهذليين التي تدخل في الموضوع مباشرة وتعبر عنه.

(١) العمدة، ابن رشيق، الجزء الأول، ص ٢.

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ٩٧. اللكيلك وذو الحرمل: موضعان، الأنواء: جمع نوء نزلت بالديار أمطارها، الرامسات: الرياح، الجون: الأسود من السحاب، المسبل: المحمل بالمطر.

أما حسن التلخص أو السلسلة الذهبية في القصيدة وتعبير من فنون القصيدة الجاهلية القديمة فهي خطوة لا يخطوها إلا الفحل من الشعراء فيتخلص الشاعر إلى ناقته أو فرسه وتختلف وسائل التلخص فيصورها أحياناً ضارباً في المفاوز والقفار والفلوات، ويصفها وصفاً معنوياً وحسياً أحياناً ثم يمضي فيشبهها بالثور في قوته وصبره وجلده، ويحكي لنا أطرافاً من أخباره أو يشبهها بالحمار الوحشي أو الظليم فتقف من خلال القصيدة على جزء من دقائق حياته، وقد يشبهها أحياناً بأكثر من حيوان يرد في القصيدة كقول النابغة يتخلص من وصف ناقته ومشبهاً لها بالثور الوحشي:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا *** بذى الجليل على مستأنس وحد
من وحش وجرة موشى أكارعه *** طاوي المصيركسيف الصيقل الفرد^(١)

فإذا خرج من قصته وتوغل في بطن الصحراء القاسية خرج إلى غرض آخر سواء كان مدحاً أو فخرًا أو هجاء... إلخ. وربما انصرف من مقدمته إلى الطعائن فظل يرقبها ويصفها في بطن الصحراء ويصف السراب الذي يمر حولها، ويحكي جزء من شكل الطعن وهيئته فيرقبه بقلبه وطرفه، وربما غازل صويحباتها.

كل هذه المشاهد والحكايات والصور والأشكال والخيال والوصف مستمدة من الصحراء، والسائد من صور التلخص في القصيدة العربية أن يقول أحدهم وهو خارج من نعت الناقة إلى المدح دع ذا ودع ذا وخبر. وربما وصفوا سير الناقة ومشقة السفر ثم قال:

حتى نزلت ربع

والتخلص عند الشاعر البدوي يكون من موضوع لآخر دون أن يكون هناك فارق أو فاصل محسوس في القصيدة، فشاعرنا لبيد استطاع الانتقال من الغزل إلى الوصف لناقته والانتقال من غرض لآخر داخل القصيدة التي تعددت محتوياتها شاملة عدد من مناحي الشاعر وأحاسيسه وعند لبيد الذي يخاطب

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٦-٧.

محبوبته نوار التي قد أعرضت عنه فقابلها إعراضاً بأعراض فهو أمضى عزمًا
منها يقول:

أولم تكن تدري نوار بأنني * وصّال عقد حبال جذامها^(١)**

ولم تكن هناك وسيلة لوصل الحبال غير ناقته فهذا واضح في طريقة استعماله
للأغراض من خلال معلقته وطريقة التصوير الفني منها، فالشاعر صور ناقته في
صور ثلاث الأولى هو الذي يقف عند حدود المشابهة بين طرفي التشبيه فيشبه الناقة
بالسحابة الحمراء التي خف مع الجنوب جهامها، وكان ما يريده الشاعر من هذه
الصورة هو تشبيه سرعة الناقة وسيرها بسرعة السحابة الحمراء التي هطل منها
الماء فأصبحت خفيفة تتحرك بسرعة وهو تشبيه للعدو والسرعة.
ثم يصور ناقته بأتان وحشية قد حملت من فحل وهكذا تستمر القصيدة:

فلها هباب في الزمام كأنها * صهباء خف مع الجنوب جهامها
أو ملمع وسقت لأحقب لاحه *** طرد الفحول وضربها وكدامها
أفتلك أم وحشية مسبوغة خذلت وهادية الصوار قوامها^(٢)**

فهو يشبه ناقته في سرعتها بالبقرة المسبوغة التي افترس السبع ولدها حين تركته
وراءها وأسرعت بمقدمة القطيع لترعى مع صواحبها مع البقر، وهذا يشير لذلك
الصراع السائد في الصحراء بين الإنسان والإنسان، والحيوان والحيوان، وقد جسدها
الشاعر في الرمزية والصراع النفسي له.

أما خاتمة القصيدة وهي آخر ما تبقى من القصيدة والاستماع إليه ولذلك
حرص الشعراء على أن يختاروا المعنى واللفظ الجيد الذي يؤدي غرض الخاتمة
فيكون قد عالج أفكاراً في القصيدة وأن تكون سائغة اللفظ، وبعضهم يزيد بها جودة

(١) ديوان ليبد بن أبي ربيعة، ص ١٧٥. جذام : قطاع أي أصل في موضع المواصلة من يستحقها وأقطع من يستحق القطيعه.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٨-١٧١. هباب: نشاط - يقول إذا صارت بهذا الحال لم يذهب نشاطها كأنها صهباء أي سحابة صهباء، الملمع: التي قد استبان لحمها، وسقت: حملت، الأحقب: الذي في موضع الحقب - منه بياض لاحه غيره، كدامها: عضها - شبه ناقته بسحاب قد هراق ماءه فهو أسرع لمدّه أو بأتان يتبعها حمار.

أن يجعل فيها معنى يذهب مذهب الحكمة أو المثل وتتداولها الألسن وهذه الحلقات تؤدي إلى تماسك القصيدة مع بعضها، وكان التنقل الذي لازم حياة الصحراء لازم الفكر العربي البدوي بوجود العديد من الأفكار التي يريد البدوي طرقها والربط بينها فجعله يتوثب بين المعاني توثباً ذكياً يلتئم شمله بتمام القصيدة وحول شكل القصيدة وبنائها.

يقول ابن قتيبة "إن مقصد الصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكا وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الضاعنين إذا كان نازلة العمدة في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانقالتهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلاً وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل إلى ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق يميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب"^(١).

ولما كان البدوي يهيم في الصحراء فقد أتت روح القصيدة متنسقة مع هذه المعاني، وهذا النسق الذي صور الحياة اليومية للبدوي ويراعي أفكاره فأول ما يذكره أحبابه وأماكنهم.

يقول ابن رشيق "وكانوا قديماً أصحاب خيام يتنقلون من موضع إلى آخر فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار فتلك ديارهم وليست كأبنية الحاضرة فلا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً لأن الحاضرة لا يحوها المطر ولا الرياح إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل"^(٢).

ومثلاً في قصيدة النابغة الذبياني وهي خير شاهد لما ذكر في شكل القصيدة القديمة وما تحويه من ترتيب في المقدمة وحسن التخلص. يقول في قصيدة يعتذر فيها للنعمان يقول في بداية القصيدة ويستهلها كغيره من الشعراء بالوقوف على الأطلال:

يا دار مية بالعياء فالسند * أقوت وطال عليها سائف الأبد**

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، الجزء الأول، ص ٧٤.

(٢) العمدة بن رشيق، الجزء الأول، ص ٢٢٦.

ثم بعد وقوفه على الأطلال يحاول أن يتخلص إلى الحديث عن ناقته التي تحمله
ووصفها بقول:

فعدّ عما ترى إذ لا ارتجاع له *** وأنم القنود على عيرانه أجد

مقدوفة بدخيس النحض بازلهما *** له صريف صريف القعو بالمسد^(١)

ثم يلتفت ليشبه ناقته بالبقرة الوحشية في قوله:

من وحش وجرة موشى أكارعه *** طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد^(٢)

ثم يستطرد الشاعر إلى مدح النعمان في قوله:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه *** وما أحاشي من الأقوام من أحد

إلا سليمان إذ قال الإله له *** قم في البرية فأحددها عن الفند^(٣)

ثم ينصرف للاعتذار مؤكداً براءته مقسماً بالكعبة في قوله:

فلا لعمر الذي قد زرتة حججاً *** وما هريق على الأنصاب من جسد

هذا لأبرأ من قول قذفت به *** طارت نوافذه حراً على كبدي^(٤)

ثم يصف كرم النعمان في قوله:

فما الفرات إذا جاشت غواربه *** ترمي أواديه العبرين بالزبد

يمده كل وادٍ مترع لجب *** فيه حطام من الينبوت والخضد^(٥)

وهكذا نجد أن الشاعر البدوي يبدأ قصيدته فيتخلص من فقرة لأخرى بأسلوب جميل
يسترعى فيه كل حواسه ومشاعره في القصيدة، وقد ارتبط شكل القصيدة بالحياة
العقلية للمجتمع البدوي، ويعبر عن مدى ما وصلت إليه ثقافة وفكر تلك
الأمة على الرغم من قلة التعليم بالمعنى المفهوم لدينا، واستمدوا تفكيرهم وثقافتهم

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩-٢١.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٢.

من تجارب الحياة الممارسة فاستمدوا نباهتهم ونظامهم الفكري والاجتماعي فكانت بلاغتهم وإعجازهم في تدبير حياتهم وفراسطهم وأسلوبهم وبيانهم والقول الصائب والمنطق الساحر، فأتي الشعر معبراً عن كل ذلك، وأصبحت كلمات القصيدة الآن وألفاظها حوشية غريبة في بعضها، وكانت فصيحة بليغة مفهومة فلما ذهبت تلك البيئة من خيام وجنادل ذهبت وأصبحت غريبة لتقادم الزمان.

وبنظرة للشعر العربي عموماً في الصحراء نجده ضربين الأول قصائد طوال تعني بموضوع ومناسبة ولكنها تنطرق لأكثر من موضوع وهذا ما نجده في المعلقات، أما الضرب الثاني من الشعر فهو القصائد القصار أو المقطوعات وفيها التجارب الفردية للشاعر يعبر ويعكس من خلالها الصورة الصادقة للحياة البدوية من تجارب حياته في الصحراء.

خصائص القصيدة الشعرية في الصحراء:

ونعني بذلك القيم الجمالية والسمات الأسلوبية في المسائل اللغوية والبلاغية والتأثيرات البيئية التي منحت ظلالاً من المعاني والأفكار والألفاظ وجعلت للقصيدة سمات وخصائص مميزة من غيرها من العصور والبيئات.

ذكرنا في مبحث سابق تأثير الصحراء على اللغة والألفاظ وإثراء اللغة العربية بسيل من المعاني والكلمات التي أصبحت ذخيرة تمد اللغة بمفردات سالت في أوديتها رابطة أجزاء الصحراء وغاصت في أغوارها ومشت في سهولها وطالت لجبالها وأخذتها رياح الظعن والرحيل والتجوال ومقاطن المدر فشكلت كل هذه الحلقات عصارة قوية استطاعت أن تصبح أساساً ومنبعاً لكل مراحل اللغة العربية والتي تفرعت واتسعت في مواقع ومعان وشكلت ألفاظها وذخيرتها، وهنا نتناول جزء من خصائص القصيدة الشعرية في الصحراء ولسماتها الواضحة التي شكلت لونها وشكلها وأصبحت النموذج الذي سار عليه الشعر والشعراء فيما بعد منها:

- استطاعت القصيدة الشعرية أن تمثل الطبيعة الصحراوية في كل مفرداتها ومكوناتها ومدلولاتها، فالشاعر الجاهلي مفضون على البساطة وصدق الأداء وصراحة اللفظ لا تكلف في شعره يتناول محسوسه ومشهوده في قالب شعري. بين فالبديوي يعايش الطبيعة معاشة وثيقة يألفها في القسوة والرخاء في زمن الغيث والشح في مواقع الماء والكأ في السلم والحرب وفي شعرهم أوصافاً كثيرة للربيع والصيف والبرق والمطر وفي الليل والبرد والصقيع والحيوان والأيام والشجر، ولم يخرج إلى أوصاف خيالية وإنما جاء بأوصاف قريبة من العقل والتصوير ضمن المحسوسات وانطباعاتها.

- **نزعة التقليد:** نجد الشعراء الجاهليين يسيرون في شعرهم على وتيرة واحدة في تصويرهم لكل مشتملات الصحراء في نظام القصيدة وشكلها وبنائها يكاد يكون واحداً. وكان للحياة القبلية تأثير قوي في شد الشاعر إلى ماضيه. أما العقل والخيال مقيدان بقيود التقاليد، فالقصيدة لها شكل متفق عليه من حيث

المعاني والأسلوب والأقسام والتفكير والفهم والخيال والمفردات والحياة والتجربة
عموماً واحدة كلها نتاج ومعايشة تحت قبة الصحراء.

• **الواقعية:** وشملت الأغراض وصدق النقل من الحياة المعاشة وقد حرصوا على
التفاصيل والجزئيات ودقة التعبير والاستهلال بوصف الأطلال وجزئيات
الطبيعة والتعبير عن عواطفهم وأفكارهم ولكن معظمها تبدأ بذكر الأطلال
والديار ووصف الظعن وذكر الأحبة. يقول طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة ثمهد * تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد^(١)**

ويقول امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوي بين الدخول فحومل^(٢)**

ويقول عنتره بن شداد:

هل غادر الشعراء من متردم * أم هل عرفت الدار بعد توهم**

يا دار عبلة بالجواء تكلمي * وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي^(٣)**

ويقول النابغة الذبياني:

يا دار مية بالعلياء فالسند * أقوت وطال عليها سائف الأبد^(٤)**

ويقول لبيد بن أبي ربيعة:

عفت الديار محلها فمقامها * بمنى تأبد غولها فرجامها^(٥)**

وهناك كثير من الأشعار التي تحمل الواقعية في دقة التفاصيل لوصف الحيوان
والنبات وجزئيات الصحراء.

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٠.

(٢) ديوان امرؤ القيس، ص ١١٠.

(٣) ديوان عنتره بن شداد، ص ١١٧.

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢.

(٥) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٦٣.

• **عصر المادية:** نزع الشعراء مع الطبيعة الصحراوية نحو المادية فليس لصورهم أو تشبيهاتهم لغير المحسوس من أثر ذلك لأنه لم تكن هناك صوراً غير محسوسة تدعو للتجديد.

فالصورة المحسوسة تسيطر على كل موحيات الشعراء وموضوعاتهم وأغراضهم الشعرية، فإذا وصفوا المرأة أو الكرم أو الطلل أو الشجاعة أو الناقة أو الفرس أو المطر أو السيف أو الدرع... الخ. لم يتعدوا الواقع في أوصافهم أو التشبيه والتمثيل والمقارنة بين مشهد داخلي وتجربة ذاتية من جهة، ومشهد خارجي وحالة محسوسة من جهة أخرى.

• **تنوع أغراض القصيدة:** تشتمل القصيدة الصحراوية على أغراض متنوعة منها الوصف والوقف عند الطلل وتصوير الناقة وذكر الحبيبة والصيد والثور الوحشي، ونجد فيها مدح وهجاء وغير ذلك من تصورات الشاعر وما كابده في رحلته ويذكرها بتفصيلها، والمعلقات تحمل هذا وأنموذج لما ذكرت.

• **جودة التصوير:**

وللشعراء مقدرة فائقة على إحكام الصورة واختيار الكلمات التي تمتلك طاقة تصويرية هائلة مثلاً يقول امرؤ القيس مصوراً يوماً ممطراً بقوله:

وأضحى يسح الماء من كل فيقة *** يكبُّ على الأذقان دوح الكنهيل

كأن أباناً في أفانين ودقة *** كبير أناس في بجاد مزمل

كأن نرى رأس المجير غدوة *** من السيل والإغثناء فلكة مغزل^(١)

فهنا يرسم الشاعر صورة يوم ممطر وكيف أن الماء تخلل كل هذه البقاع الجبال والمنخفضات وتلك الصورة لرأس المجير الذي أصبح صغيراً من استدارة الماء حوله .

ولذلك نجد الصورة محدودة بحدود البيئة الصحراوية ومنتزعة من بيئة قريبة للتناول، ونجد الحكمة التصويرية والمقدرة على تناول الكلمات والخيال القريب

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢٢، الفيقة: فترة تقطع المطر فيسح مرة ويسكن مرة، يكبُّ على الأذقان دوح الكنهيل : يقتلع شجر الكنهيل من أصوله ويلقيه على أم رأسه. أبان: جبل ، أفانين ، ودقة: ضروب مطر، البجاد: الكساء المخطط، مزمل: ملتف، المجير: جبل فلكة مغزل: لأن الماء استدار حوله .

الذي يجعل كل هذه المفردات تدور في حيز واحد ويطفي عليها من اللمسات الفنية في ترتيب الأدوار.

- **الغنائية:** القصيدة الجاهلية تكثر فيها النزعة الذاتية الغنائية والنزعة الفردية لا أسلوب القصص أو التصوير ونزعات الجماعة، فالشاعر في القصيدة يعبر عن مكنوناته ونزعاته الذاتية وغالباً، ما تأتي في صورة القصيدة أو عن حكمة أو مثل يتبطن القصيدة أو تعبيره عن قبيلته والفخر بها من خلال تمثيل نفسه باعتباره يمثل الجماعة وهو الناطق بلسانها وحال عشيرته.
- **النزعة الخطابية أو الجرس الموسيقي أو بلاغة التركيب:** فالشاعر هو المتحدث باسم القبيلة، فهو خطيبها ولسان حالها ويزود عنها بلغة فصيحة رصينة غريبة أحياناً يشدها الإحكام والتماسك، ويعتبر الجرس الموسيقي وهو من أصدق الحالات النفسية والصور الخيالية التي يعتمدها الشاعر، فالجرس الموسيقي والنبرة الحادة التي يستعملها الشاعر واختياره لكلمات تعبر عن الموقف حسب الحال، فيعطي القصيدة نوعاً من الإيقاع الذي يتناغم وروح وغرض القصيدة.
- تحمل القصيدة شدة وتيرة الصحراء وتأخذ في حناياها العزيمة والإصرار في مكابدة الحياة والتغلب على مصاعبها فهي صورة لامعة تقفز بالحس والمشاعر فوق الإحساس العادي لنبرة القصيدة ولذلك فهي تميز ذاك العصر مهما كان غرضها وموضوعها.
- يصف الشاعر كل ما يجيش بخاطره في رحلته الوصفية وكل ما يحيط به من أحياء وجمادات أو موضوعه الذي يطرقه حسب مناسبة القصيدة فيقوم بتصوير ووصف دابته "ناقته، حصانه" وتشبيهها بالثور الوحشي أو غيره بصورة تفصيلية تستغرق جزءاً كبيراً من القصيدة وهي صورة ذات أبعاد معنوية ونفسية كما جاء في المعلقات.
- يستخدم الشاعر أحياناً شيئاً من المحسنات البديعية دون تكلف أو إغراق في التصوير أو جلب معاني وألفاظ ودلالات تخل بالإحساس البيئي وتسبح بالخيال خارج دائرة الجغرافية المحيطة به.

- في البيئة الصحراوية ألفاظٌ ومعاني مستمدة منها وفيها شئٌ من الغرابة للقارئ في معانيها في هذا العصر وذلك بسبب تقادم الزمان واختلاف البيئة، وتجدد المعاني والألفاظ وتطورها عبر الأزمان والحقب إلا ما يتعلق بها من المعاني والأسماء والألفاظ المشتركة بين كل البيئات الجغرافية أو بعضها.
- أن القصيدة الصحراوية في الشعر الجاهلي قادرة على التعبير عن أقوى المشاعر وأحدها بصورها وكلماتها وموسيقاها ومعانيها فهي تعبر عن الحياة الإنسانية بكل خلجاتها ونبضاتها وأفكارها وتحفظ بملامحها الخاصة.
- حملت القصيدة البدوية في الصحراء صوراً حسية فيها نوع من البراعة والمهارة والصدق وذلك لاعتمادها على الصورة الحسية التي هي أساس التصوير وهي أقوى في الدلالة على المعنى والإحساس به من الصورة العقلية التي تهدف إلى الإقناع، فالصورة الحسية أعمق وأبلغ في نقل التأثير المنشود من الصور الذهنية والفرق واضح وبيّن، ففي الصورة الحسية كقول النابغة في المدح:

فإنك شمس والملوك كواكب *** إذا طلعت لم يبد منهن كوكب^(١)

ثم ننظر لقول بشار بن برد الذي يقول:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا *** ليل تهاوى كواكبه^(٢)

فبينما نرى التشبيه من بيت النابغة مستمد من الواقع المشاهد المحسوس بكل ما فيه من إلفة نراه عند بشار يذهب بعيداً عن الواقع لاستعمال الخيال حيث يصور المعركة بما فيها من غبار وأسياف تلمع بالليل الذي تتهاوى كواكبه، وهذا الليل الذي تتهاوى كواكبه شئٌ يمكن تخيله ولكنه ليس بالشئ الحي القريب المألوف الذي يعايشه المرء كل يوم. أما تصوير النابغة صورة من الحياة ومثل هذا التصوير الحسي هو الغالب في

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٨.

(٢) ديوان بشار بن برد، ص ٢٧٣.

القصيدة القديمة ولذلك استطاعت أن تبلغ مكانة عليّة في التجسيد من خلال الصورة الحسية الخارجية.

- تعتبر القصيدة القديمة في الصحراء هي السجل الوحيد الذي يقع على كاهله تسجيل كل هذه النواحي في تلك البيئة والنشاط الإنساني والأماكن والجغرافية بصورة متكاملة كقول الحارث بن حلزة في قصيدة يذكر فيها بعض أماكن محبوبته يقول:

فالمحياة فالصفاح فأعناق * فتاق فعاذب فالوفاء^(١)**

- **القول الجامع:** كانت الصفة الغالبة على الشعر البدوي في الصحراء أنه شعر وجداني، ولذلك كان معرضاً للآراء المفردة أكثر منها معالجة مستفيضة لشؤون الحياة ومال العرب إلى استجماع القول حتى كان البيت الواحد في القصيدة يجمع معاني تامة. وقد جعل الأقدمون يفتخرون بذلك وأعجب النقاد. بقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٢)**

- وقالوا أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في بيت واحد.
- صورت القصيدة البدوية الجاهلية ونقلت الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية والاقتصادية والثقافية والجغرافية نقلاً أميناً بعيداً عن الكلفة والتعمل.
- حملت القصيدة القديمة العديد من الأبيات التي تقصد الحكمة وأتت خلاصة لمعايشة ومكابدة وتجارب الحياة في الصحراء من شظف ونعمة وكثرة وقلة وعدم وغنى وجذب ومدر وحر وبرد وموت وحياة وحرب وسلم وغبطة وغضب فأنتت معبرة عن وجدانيات الشاعر البدوي الذي جمع كل هذه الأفكار والرؤى فصاغ منها هذه التعابير للتسلية وتخفيف وطأة الحياة.

(١) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٢٠. الحياة - الصفاح - الأعناق - فتاق - عاذب: أسماء مواضع، فتأتي معبرة عن كل هذه النواحي.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٠.

يقول زهير في إحدى قصائده:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب *** تمته ومن تخطي يعمر فيهرم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة *** يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله *** على قومه يستغن عنه ويذم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *** ولو نال أسباب السماء بسلم
ومن لا يذد عن حوضه سلاحه *** يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم^(١)

وقال لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلها *** بها يوم حلوها وغدوا بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه *** يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا وديعة *** ولا بد يوماً أن ترد الودائع^(٢)

- رقة الإحساس بالحياة وقوة الشعور بالجمال: فهذه الرقة نجدها موزعة في أجزاء القصيدة وتتصل بكل غرض من الأغراض فتلابسه في القصيدة الواحدة فبدأ بوصف جمال المرأة ورقتها وصفاتها الخلقية، وقد تبين ذلك في نفس الشاعر وحياته ومهما يكن من غرض القصيدة الشعرية العربية القديمة تبدأ بالمرأة أو الطلل وفيها إشارة له أو يصف رحيلها أو هجرها له.
- استجلاء الجمال في الطبيعة بكل مظاهرها وإيضاح الصورة الجميلة التي يعكسها الشاعر مع شعوره به ينعكس ذلك على نفوس غيره.

(١) ديوان زهير، ص ٤٩-٥٠.

(٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ٨٨-٨٩. غدو: غداً، بلاقع: قفار، الشهاب: النار، يقول كل أمرئ ينجو بعد توقد حين تدركه المنية كالنار تكون ساطعة الضوء ثم تصبح رماداً.

الفصل الثاني

أثر الصحراء في اللغة الشعرية

أثر الصحراء في اللغة الشعرية

تأثر الشعر الجاهلي بالصحراء في مختلف جوانبه في الشكل والمضمون والموضوعات والمتنوع للشعر العربي القديم يستطيع أن يرجع كثيراً من ألفاظه إلى وحي الصحراء ومظاهرها وطبيعة الحياة فيها وتمثل هذه الألفاظ الشعرية معجماً لغوياً كبيراً يكون في مجمله جانباً لا يستهان به من مفردات اللغة العربية من أسماء الصحراء وصفاتها ووصف جبالها ووديانها وما يتعلق بطبيعتها المتحركة منها والسكنة وهي ألفاظ كثيرة تتصل بالحيوان والنبات والمطر والخريف إضافة لما يتعلق بالحياة الأخرى .

والبيئة هي المحيط الذي تدخل تحته كل المعاني والألفاظ والكلمات والأسماء والإيحاءات فتنطبع وتخرج معبرة عنه، وقد أثرت الصحراء في كل مناحي الحياة في الصفات والأسماء وهي مستمدة منها، فقد علمت البدوي الجلد والصبر والقوة، ولذلك نشأ على البطولة والمحامد، وأوحت إليه بالشدة والقوة فتخيروا أسماء صفات تناسب المسمى في قوته وشدته مثل أسد، ثور، صخر، فرس، فهر... إلخ. أما المفردات اللغوية فقد كثرت في تلك البيئة الصحراوية معبرة عن صفات وأسماء ومعاني تلك الحياة في الصحراء وما فيها من جمادات وحيوانات لأنها عماد الحياة، وأكثر ما ذكر في الإبل (ونقل عن دوهمان أنه توصل إلى جمع أكثر من ٥٦٤٤ لفظاً لشئون الجمل رقيق الأعرابي في الصحراء ومؤنسه في وحشته)^(١). وهو لا شك أهم وسائل الحياة في الصحراء حتى أصبحت الناقة تنافس المرأة في مكانتها من قلب الشاعر وفي حظها من ذكره وتصويره. (وقد أفرد ابن سيده أكثر من مائة وثلاثين صفحة تتحدث عن الإبل في نعومتها وحسنها وخلقها ولحومها وأوبارها ورعيها وبركها وأناختها وسيرها في اللين والرفق)^(٢).

(١) الأدب الجاهلي قضاياه - أغراضه - أعلامه - فنونه، د. غازي طليمان، عرمان الأشقر، ص ٤٠.

(٢) المخصص، لابن سيده، الطبعة الأولى، ١٢١٨هـ، الجزء السابع، ص ١-١٣٨.

ولذلك عظم البدوي كثيراً من الأشياء المحيطة به فوهبها أسماء وصفات كثيرة بدء من الصحراء نفسها كما ذكرنا آنفاً وكثرة الأسماء تدل على عظم المسمى ولذلك فاضت الألفاظ والكلمات المعبرة عن محيط البيئة الصحراوية ومحتواها ولذلك حفل الأدب العربي الجاهلي في الصحراء بكثير من المعاني المتعلقة بالأنواء والأمطار والجفاف والجذب والخصب والنبت والصيد والطرْد والظعن والفرس والناقة ، (ولذلك كان للبيئة اثر في اللغة حتي ليصبح ان تشبيه النفس الإنسانية بالغيثارة توقع عليها الطبيعة ضروراً من الالْحان والانغام وهي رجع لما في البيئة الطبيعية من عوامل ومظاهر اكثر ما هي صدى لغيرها من المؤثرات)^(١).

وغرق هذا التصوير والوصف في سيل من الألفاظ التي استقوها من الصحراء فأصبحت الآن حوشية أو غير مستعملة في كثير من الأحيان وذلك بسبب تقادم الزمان وتغير تلك البيئة وتطور اللغة. (فاللغة هي الوسيلة وحاملة وعاء الحياة البيئية والتعبير عن الطبيعة والأفكار والمعاني لا العواطف فليست اللغة قادرة على نقلها نقلاً تاماً صحيحاً كما هو الشأن في المعاني)^(٢).

ونجد حركة الحياة وواقع المجتمع أدياً للتعامل مع مفردات اللغة واستنباط معاني وصفات وأسماء من سير حركة الحياة، فمثلاً نذكر أشعار الهذليين التي غلب عليها استخدام ألفاظ في مجال الدلالة على القدر والدهر والمنون والمنايا وحوادث الأيام، وهذا لا يعني وجلهم من القدر ولكن لشجاعتهم وتحملهم لنكبات الحياة في الصحراء بكل إفراراتها وربطوها بالبطولة ودعوتهم للصبر على النائيات والانتصار على الصعاب كقصيدة أبي ذؤيب الهذلي التي مطلعها:

أمن المنون وريبها تتوجع * والدهر ليس بمعتب من يجزع^(٣)**

(١) في صحبة الادب القديم : د . احمد محمد الحوفي . شركة نهضة مصر للطباعة والنشر بدون ص ١٧ .

(٢) النقد الأدبي، أحمد أمين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م، ص ٢٩.

(٣) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، ص ١٣٠

فاللغة أداة تعبير للحياة ورمزاً لها باعتبار أنها إدراك حسي للأشياء فهي محاكاة لطبيعة ورموز دالة على الأفعال، (فالإنسان لم يعرف السحر إلا يوم أدرك قوة الكلمة، ولم يعرف الشعر إلا يوم أدرك قوة السحر)^(١).

وهناك عدد من مظاهر الصحراء في الشعر العربي الجاهلي ولكن أبرزها يتمثل في تزويد المعجم اللغوي بكثير من المفردات والألفاظ والمصطلحات وفي مقدمة تلك الصفات والأسماء ما أطلق على الصحراء نفسها.

وقد كان للصحراء أثر في أفكار ومعاني الشعر وفي الصورة الفنية على وجه العموم، وبذا أثرت معاني اللغة وألفاظها وأسلوبها وأخيلتها وصورها بل الأوزان والقوافي والموسيقى بكل صورها.

ولم تقتصر الأسماء والصفات على اسم الصحراء بل تعدتها إلى الرمال والوديان وتفصيل تلك البيئة ومنها الجواء وهو جمع جو وهو البطن من الأرض الواسعة في انخفاض. يقول عنتره:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي *** وعمى صباحاً دار عبلة واسلمي^(٢)

أما القرارة وهو الموضع المطمئن من الأرض يجتمع فيه السيل فكان القرارة مستقر السيل. يقول عنتره أيضاً:

جادت عليها كل عين ثرة *** فتركن كل قرارة كالدريم^(٣)

العلياء: وهي المرتفع من الأرض. يقول النابغة الذبياني:

يا دار مية بالعلياء فالسند *** أقوت وطل عليها سائف الأبد^(٤)

(١) الشعر العربي المعاصر - قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢ م. ص ١٧٣

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ١١٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٩. ويروى كل بكر حرة .

(٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٢. العلياء: مكان مرتفع، السند: الجبل، أقوت: قويت، وأفقرت ومعناه صارت في قواء وقفر .

الثرى: وهو وما ابتل من الأرض. يقول لبيد:

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت *** بكرت تزلُّ عن الثرى إزلامها^(١)

الهيام: هو الرمل اللين وقيل ما تناثر منه. يقول لبيد:

تجتاف أصلاً قالصاً متبذاً *** بعجوب أنقاء يميل هيامها^(٢)

الحُدب: وهو ما ارتفع من الأرض، والأكام الجبال الصغار الواحدة أكمة. يقول لبيد:

يلو بها حدب الأكام مسحاً *** قد رابه عصياتها ووحامها^(٣)

الأحزة: جمع حزير وهو ما غلظ من الأرض. يقول لبيد:

بأحزة الثلبوت يربأ فوقها *** قفر المراقب خوفها آرامها^(٤)

والمعني ان الحمار يخاف من هذه الحجارة اذا رآها لانه يتوهم انها مما تخيفه .

السبط: وهو الغبار. تنتزع العير والأتان سبطاً يعني غباراً ممتداً. يقول لبيد:

فتازعا سبطاً يطير ظلالة *** كدخان مشعلة يشب ضرامها^(٥)

السراب: هو لمعان الشمس في الفضاء. يقول لبيد أيضاً:

حفزت وزايلها السراب كأنها *** أجزاع بيشة أثلها ورضامها^(٦)

(١) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٧٢. بكرت : غدة بكرة

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٢. تجتاف: تدخل في جوفه، قالص: المرتفع الفروع ، متبذاً: متفرقاً، بعجوب:

العجوب جمع عجب وهو أصل الذنب ويريد أطراف الرمال - الهيام : الرمل اللين - انقاء : رمل لم يخط.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩ - مسح: مععض.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٩. - يربأ : يعلو - الارام : حجارة تجعل اعلاماً

(٥) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٦) المصدر السابق، ص ١٦٦.

اللاحب: هو الطريق الذي فيه أثر. يقول طرفة:

أمون كأواح الإران نساتها *** على لاحب كأنه ظهر بوجد^(١)

الجنوة: التراب المجموع. يقول طرفة:

تري جنو تين من ترب عليها *** صفائح الحجارة الغراض^(٢)

القف: ما ارتفع من الأرض ولم يبع أن يكون جبلاً. يقول طرفة:

تربعت القفين بالشول ترتعى *** حدائق مولى الأسرة أعيد^(٣)

الخلقاء: هي الصخرة الملساء، والقردد هو الصلب من الأرض. يقول طرفة:

كأن علوب النسع في دأياتها *** موارد من خلقاً في ظهر قردد^(٤)

الأمعز: هو المكان الغليظ. يقول طرفة:

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت *** وقد خب آل الأمعز المتوقد^(٥)

حر الرمل: هو أحسن الرمل ألواناً وأنقاه، الدعص: هو كثيب الرمل. يقول طرفة:

وتبسم عن ألي كأن منوراً *** تخلل حر الرمل دعص له ند^(٦)

المرداة: صخرة تدق بها الحجارة، الصفيح: هو صخر في صفيح مصمّد. يقول طرفة:

وأروع نباض أحد مملم *** كمرداة صخر في صفيح مصمّد^(٧)

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٩. تربعت: رعت الربيع فيه، الأسرة: طرائق من نبت، أعيد: الناعم.

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص ٧٢. علوب: الآثار، النسع: سير من جلد، دأياتها: ضلوع صدرها.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٧. القطيع: السوط، أجذمت: أسرعت: خب: اضطرب، الال: السراب. الأمعز: الموضوع الكثير الحصى.

(٦) المصدر السابق، ص ٥٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٧١، أروع: يعني قلبها، نباض: من الفزع، الأحذ: الأملس، مملم: مجتمع، مرداة: أرض، الصفيح المصمّد: الحجارة الصلبة.

والعلاقة بين اللغة والفكر علاقة جوهرية ذات تأثير متبادل كما نلاحظ ذلك من خلال أشعار العصور المختلفة فاللغة تشكل الفكر الذي يترجم نتاجه في المعاني والصفات والفكر يصوغ اللغة من وحي البيئة، ولذلك أتت أشعار البدويين في الصحراء ذات فكر ثاقب ودلالة بعيدة في التعبير نتاجاً لقوة اللغة ورسالتها. وقوتها ومن هنا نجد صياغة اللغة يعني أن يقوم الشاعر بعملية اختيار التركيب للعناصر اللغوية حتى يخرج التعبير مؤثراً يعطي الدلالة بصورة واضحة للمتلقي، ولذلك كثرت الدلالات والصفات للاسم الواحد لاتساع رقعة الصحراء وانتشار البدو في أرجائها جماعات متفرقة، ونجد أن مفردات المطر لا تقل عن مفردات الطبيعة الأخرى في الصحراء عدداً وقرائن وأوصاف (وكان الجاهلي يقول للمطرة ، أهضوبة، أغصان، بعاع، برد، ثلة، نحلة، جود، دجن، رث، زهاب، رهام، رجع، ربق، رباب، ، رزق، دش، رعاف، رذاذ، سحاب، ساجية، سح، شؤوب، صيب، صوب، صرب، طش، عرض، عضانين، غيث، غريض، فطر، قطقط، موار، مزن، نقضه، هطل، هفاء، وسمى وبل، ودق، كف، وطفاء"^(١). وأتت قائمة النباتات في الصحراء والتي أفردنا لها مبحثاً في بداية البحث وأتت في ثنايا قصائدهم تعبر عن تشبيهاتهم وفي مدحهم ووصفهم فقد شبه امرؤ القيس ما جرى من دمعه لفقد أهل الدار بما يسيل من عين ناقف الحنظل في قوله:

كأني غداة البين يوم تحملوا * لدى سمرات الحي ناقف حنظل^(٢)**

وحملت أشعارهم أسماء الورود كشقائق النعمان وهو زهر أحمر اللون فشبها به الدم، وعرق الكافور والزنبق والقرنفل والياسمين... إلخ.

أما الحيوان فقد أخذ قسطاً وافراً من مفردات اللغة الشعرية فقيل للناقة مقذوفة دلالة على كثرة لحمها وعزافرة وهي الشديدة التحمل، الوجناء من النوق وهي ذات الوجنة الضخمة، جمالية وهي الوثيقة التي تشبه بالجمال في خلقها وشدتها، وعظمتها . عرمس وهي الصلبة الشديدة فشبها بالصخرة، غلباء وهي الغليظة الرقبة، ، علنداء وهي الناقة الضخمة الطويلة، مذكرة وهي الناقة الشديدة، عرندس وهي

(١) المفضليات، المفضل الضبي، الجزء الثاني، ص ١٦٥.

(٢) ديوان امرؤ القيس، ص ١١١.

الشديدة القوية، عنتريس وهي الصلبة الوثيقة الشديدة الكثيرة اللحم، دوسرة وهي الضخمة الشديدة، عاقر وهي القوية، وغيرها كثيراً من الأوصاف التي وردت في أشعارهم أما التي تحمل طابع السرعة وتسمى الناجية، والعتاق، وهي النوق الكريمة، والجنوح وهي التي تجنح في سيرها، والرفاق وهي المسرعة، أما العنديل وهي الضخمة، وجاء ذكر الناقة الطليح وهي المهزولة، مذعورة وهي الخائفة.

ومن المعاني والصفات المستمدة من الصحراء صفة القوة والصلابة ولذا أتت مسميات المفردات فيها تحمل صفات ومعاني القوة والشدة كالجبال والحجارة، والحرارة، والهجير، والشتاء القارص، والأمطار التي تقلع الأشجار، والقفار والصحارى الممتدة، وقسوة المسير والترحال، والصلعكة وما تحمله من مفاهيم ومعاني، والحروب والثأر.

وأما مفردات الحرب في اللغة فقد كان لها حظ وافر في التداول في أشعارهم فوردت الألفاظ والأوصاف والأسماء التي تعبر عنها فالسيف من الوسائل المستعملة في الحرب بجانب القوس والسهم والرمح والدرع وأتى عدد منها في ثنايا قصائد تحمل طابع الفخر والمدح. يقول عمرو بن كلثوم ذاكراً تلك السيوف المستعملة في الحرب ومشبهاً لها بالمخاريق لكثرتها:

كان سيوفنا منا ومنهم * مخاريق بأيدي لاعبيننا^(١)**

ويقول عنتره:

ولقد ذكرك والرماح نواهل * مني وبيض الهند تقطر من دمي^(٢)**

ويقول عمرو بن كلثوم واصفاً عدداً من الأسلحة المستعملة كقوله:

علينا البيض واليلب اليماني * وأسياف يقمن وينحنينا**

علينا كل سابعه دلاص * ترى فوق النجاد لها غضونا^(٣)**

(١) شرح القصائد العشر ص ٣٠٠.

(٢) ديوان عنتره بن شداد ص ١٢٣.

(٣) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٣١٥-٣١٦.

واللغة المستخدمة بين أفراد المجتمع في الصحراء تأخذ معانيها وروحها وفكرتها من وحي البيئة المحيطة، وتطير في الصحراء أسرع من الرياح تحمل المعنى واللفظ والمدلول والمغزى في طياتها، والشعر هو الوسيلة الناقلة السريعة فتحدث أثرها العظيم في أرجاء الصحراء، وظل الشعر أيضاً يحمل معاني الكرم والمروءة والشهامة والشجاعة والقوة والإقدام والإيثار والخلق القويم والعفة، وأن الحياة فيها تعتمد على الترحال المستمر والذي بدوره يحرمهم من العلم والتعلم الذي يحتاج إلى استقرار ولكن على الرغم من ذلك تحصلوا عليه بالدربة والتجربة والمعانيه والفكرة الثاقبة فعرفوا شتى مناحي الحياة الصحراوية فخبروا النجوم ومواقعها وسخروا معرفتهم بها لمعرفة قوافل التجارة، وأطالوا النظر إلى مصادر رزقهم فنظروا إلى السحاب والمطر، ومن المعارف التي جادت لهم من البيئة الصحراوية واكتسبوها وتشهد لهم بالذكاء ودقة الملاحظة .

الفراسة معناها معرفة أخلاق الناس من هيئتهم وآثار أقدامهم وحياتهم الاجتماعية، وكان للصيد والأنس والخمر مفردات ومعاني أثرت معاجم اللغة بعدد منها. أوضحناها في مباحث سابقة، ونجد أن اللغة المستعملة في الشعر العربي القديم هي لغة جزلة غالباً، (والجزل من الكلام هو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها^(١)).

يقول ابن الأثير إن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيفة ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستخدم في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد وأشباه ذلك. أما الرقيق فيها فإنه يستعمل في وصف الأسواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه بل أعني أن يكون متيناً على عنوبته في الفم ولذاذاته في السمع^(٢).

(١) كتاب الصناعتين للكتابة والشعر تصنيف أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري حققه وضبطه

الدكتور مفيد قميحة دار الكتب العلمية الطبعة الثانية ١٩٨٦م - ص ٦٤.

(٢) المثل السائر، تأليف ابن الأثير، قدمه وحققه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة الناشر

دار النهضة بمصر الفجالة ١٩٦٠م ص ٦٥.

الألفاظ والمعاني بدأت في النقد الأدبي الحديث (عند تساؤل النقاد عن إعجاز القرآن الكريم هل هو معجز بلفظه أم بمعناه ثم نقلوا التساؤل إلى الشعر)^(١).
(وقد عرف العرب اليهودية والنصرانية وعبادة الكواكب كما عرفوا عبادة الملائكة والجن وتسربت إليهم المجوسية، نجد أن هذه الأديان جميعاً لم يكن لها ذبوع وشيوع كالوثنية فكان تأثير عقليتهم وعقائدهم في أدبهم)^(٢).

(١) دلائل الإعجاز تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبدالقادر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر . الناشر مطبعة المدني بجدة الطبعة الثالثة ١٩٩٢م ، ص ٢٦١ .
(٢) الأدب الجاهلي قضاياها - أغراضه - أعلامه - فنونه، د. غازي طليمان عرمان الأشقر . ص ٤٣ .

الفصل الثالث

الأسلوب – الخيال والتصوير.

الأسلوب

الأسلوب في معناه العام هو وسيلة أداء المعنى الأدبي في النص، فيشمل الألفاظ والتراكيب والجمل والصور الشعرية والموسيقى والإيقاع. وفي اللغة: "يقال للشطر من النخيل أسلوب وكل طريق ممتد فهو أسلوب، قال: والأسلوب الطريق والوجه والمذهب... ويجمع على أساليب، والأسلوب الطريق، والأسلوب بالضم الفن" (١).

واصطلاحاً: يقترب من المعنى اللغوي فهو طريقة بناء النص وهو الثوب العام الذي يحتوي الأفكار والعواطف للنص الأدبي (٢).

وأما أسلوب القصيدة في العصر الجاهلي فهو طبقاً لما كان عليه المجتمع البدوي في الصحراء لبعده عن الحضارة والترف، وظهرت في معاني القصيدة وألفاظها الغلظة وعزة النفس العربية وخشونة الحياة البدوية وحدة الطبيعة الصحراوية والتي تكثر من الاعتماد على الصور الحسية، وكان أسلوب الشعراء أسلوب رصين وقوي تم عن دراية وخبرة ومعرفة بأسباب الحياة رغم قصر التعليم والتعلم، ولكن كان للصحراء دور في توجيه الفكر والعقل والإحساس للتدبير والوقوف على أسرار الحياة وكنهها، وكان العرب في ذلك الوقت يدينون بدين الوثنية فيعبدون الأصنام، ولوحظ أنهم لم يكن كلهم يعتقدون في الأصنام فقد ظهرت في أشعارهم بعض الألفاظ التي تدل على التوحيد ولذلك كان له أثره في الأسلوب في توجيه المعاني والألفاظ كما في شعر زهير وهو عالم بخفايا الأمور يقول:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم *** ليخفي ومهما يكتم الله يعلم (٣)

ويقول امرؤ القيس:

-
- (١) لسان العرب، ابن منظور، ج ١ ص ٤٥٦ مادة (سلب) .
(٢) النقد الأدبي الحديث، علي جابر المنصوري، ص ٢٨٤ .
(٣) ديوان زهير، ص ٤٢، يقول (إن الله يعلم السر فلا تكتموه وأن في أنفسكم الصلح وتقولون لا حاجة لنا إليه)

فقلت يمين الله مالك حيلة * وما أن أرى عنك الغواية تتجلي^(١)**

ثم يشكر الله بجملة "الحمد لله" في هذا البيت في قوله:

أرى أبلى والحمد لله أصبحت * ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها^(٢)**

ولعل أوضح ما ورد في شعر الجاهليين الأبيات المنسوبة إلى عبيد بن الأبرص والتي تدل على أن فهمه لله قريب من مفاهيم الإسلام والموحدين ولذلك أتى الأسلوب بصورة مطمئنة جيدة يقول:

من يسئل الناس يجرموه * وسائل الله لا يخيب^(٣)**

وقد تناول الشاعر الجاهلي ما سهل من المعاني من محيطه ولا يلجأ للمعاني العميقة التي لا توجد أصلاً في فهمه وحياته وبيئته فهو يتحرى الحقيقة والواقع وقد اهتم بجمال المطلع والبيت المفرد وما يتضمنه عن صور ومعاني.

ونجد أكثر أساليب الشعراء في الجاهلية الذين عاشوا في الصحراء، والأسلوب الخطابي أكثره إذ أنه يناجي الحسية من المشاهد عن ناقته ويرد له فرسه بعبارة وتحمم ، ويشكو تعبته ونصبه فيصف الطريق ومشكله، ونجد عنصر الخطاب الموجه للجماعة هو السائد فتأتي صلبة قوية في مبناها.

ونجد الطبيعة من حول الشاعر ظاهرة لا غموض فيها بكل قوتها وحرارتها ولذا جاء تصويره صادقاً مخلصاً صورها تصويراً دقيقاً ولذا أتى الأدب متشابهاً في إيقاعه ونظمه كتصوير امرئ القيس في وصفه لليل وتساقط المطر على الجبل والسباع والطيور بقوله:

كأن أباناً في أفانين ودقه * كبير أناس في جناد مزمل**

كأن نرى رأس المجير غدوة * من السيل والإغثناء فلكه مغزل^(٤)**

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١١٤. مالك حيلة: لا أجد لك حيلة، الغواية: الجهالة، تتجلي: تتكشف.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧، ثقالاً: يريد ثماراً أو بما حملت من الخيرات .

(٣) ديوان عبيد الأبرص، ص ٢٦.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٢، فقد شبه الجبل وقد غطاه الماء والغثناء الذي أحاط به إلا رأسه بشيخ في كساء مخطط وذلك أن رأس الجبل يضرب إلى السواد والماء حوله أبيض، فكأن الجبل فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثناء

ولذا نجد غالبية الألفاظ تحمل معاني الخشونة والقوة والحدة وأنت ألفاظاً عديدة في شعر امرئ القيس مثل عرصاتهما - السجندل) وفي شعر الأسود بن يعفر^(١):
(شمال - ديموما - مهمماً - الضوالح فروقاً) كما في قوله :

وسمى المشي شمال قطع بها *** أرضاً يجار بها الهادون ديموما
مهامها وفروقاً لا أنيس بها *** إلا الضوالح والأصداء والبوما^(٢)

ويقول لبيد:

يعلو بها حذب الأكام مسح *** قد رابه عصيانها ووحامها^(٣)

إذن اللغة أداة البيان والتعبير المثلي والصحراء بمضمونها الدلالي أثرت اللغة العربية بفيض من الألفاظ والمفردات التي وظفها الشعراء لأنهم شبوا وترعرعوا وولدوا فوق سهولها ووديانها.

وكما ذكرت هناك كثير من المعاني التي تدل على الصلابة والشدة والقوة والغلظة والصبر والجرأة، ولذلك أنت مثل مقدوفة للناقة الكثيرة اللحم، عذافرة الناقة الشديدة التحمل، الوجناء من النوق هي ذات الوجنة الضخمة، جمالية هي الناقة الوثيقة التي تشبه بالجمل في شدتها، عرس هي الناقة الصلبة فشبهت بالصخرة، غلباء هي الناقة الغليظة الرقبة.

وهناك بعض المعاني التي تدل على الحرب والفخر وأنت ألفاظها تحمل ذات المعاني مثل الظلم، الظالمينا، تخر الجبابر، ساجدين، يجهل الجاهلين. يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

نسمى ظالمين وما ظلمنا *** ولكننا سنبداً ظالمينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي *** تخر له الجبابر ساجدينا

(١) الأسود بن يعفر هو الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي أبو نهشل وأبو الجراح شاعر جاهلي من سادات تميم من أهل العراق كان فصيحاً جواداً نادماً النعمان بن المنذر وسن وكف بصره يقال له أعشى بن نهشل أشهر شعره داليتة ، توفي نحو ٢٢ ق هـ - أنظر الأعلام للزركلي ج ١ ص ٣٢١.

(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، الجزء الأول، ص ٣٢٠.

(٣) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٦٩.

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا^(١)**

يقول ابن الأثير إن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستخدم في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد وأشباه ذلك، أما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد^(٢). كقول طرفة في معلقته:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن * مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد^(٣)**

فالأحوى هو ظبي له خطان سود وله حوة في الشفاه وإنما أراد حور مدمع عينيه، المرد: فرع الأراك، النفض: ما سقط من النفض مظاهر، سمطي: يلبس بعضه فوق بعض.

وبعض المعاني تأتي سلسلة رقيقة تسري كسريان النسيم فيأتي الخيال تحمله نسمات الصبا على أعناقها كقول سويد في معلقته:

بسطت رابعة الحبل لنا * فوصلنا الحبل منها ما اتسع**

حرة تجلو شتيتاً واضحاً * كشعاع الشمس في الغيم سطع**

صقلته بقضيب ناضر * من أراك طيب حتى نضع**

أبيض اللون لذيذاً طعمه * طيب الريح إذا الريق خدع^(٤)**

ولذلك أتى الأسلوب يحمل جانب الرقة سهل تتابعه الألفاظ تحمل المعاني التي تتسجم معها من وحي البيئة .

وهكذا يظل هذا الخلاف قائماً بين النقاد في هذه القضية لأن المعاني متجددة والألفاظ والمسميات كذلك.

(١) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٣٢٤.

(٢) المثل السائر، تأليف ابن الأثير، ص ٦٥.

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٦٩.

(٤) شعراء النصرانية، لويس شيخو، ص ٤٢٦-٤٢٧.

ف نجد أن الفطرة السليمة جديرة بأن تولد عقلاً متفتحاً نقياً يأتي بمكونات الحياة في أنقى وأبهى صورها وأزكى صفاتها وأنبأ أخلاقها، وقد تميز الأسلوب في العصر الجاهلي بخصائص عديدة منها:

(أ) القصد إلى المعنى بإيجاز دون إطباب أو تطويل أيضاً قلّة المحسنات البديعية لعدم إمامهم بذلك وما ورد جاء عن طريق الفكر الثاقب والذوق المستقى من البيئة الصحراوية .

(ب) الابتداء في قصائدهم بذكر الأطلال وذكر الديار والترويح عن النفس بالتشبيهات القريبة المستقاة من الصحراء .

(ج) قوة الأسلوب في شدة اللفظ ودويّة. يقول امرؤ القيس:

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه *** وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما *** نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا^(١)

ومن تلك الخصائص القصد إلى الغرض أو الموضوع بوضوح، وفي بلاغة وسحر ودقة وتصوير بديع شفاف، وقد برز في كثير من أشعارهم، "وللبينة أثر على الأساليب التي يعبر بها الأحياء فعندما ندرس الأساليب العربية في أطوارها المختلفة عبر عصور التاريخ، نجد أن ما نالها من صور مختلفة متأثر بأسباب علمية وذوقية حكمت الأساليب والأخيلة"^(٢). وهذا بالطبع له أثره في أسلوب الشعر وألفاظه المكونة.

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ٦٤.

(٢) النقد الأدبي الحديث، د. علي جابر المنصوري، ص ٣٤.

الخيال والتصوير:

الخيال في العصر الجاهلي مستمد من تحركات الأشياء من حول الشاعر فصورها في مشهد بهي استطاع أن يحرك كل هذه الأشياء من حوله حسب الخيال الذي تطرق إليه، فيأتي خياله من الطبيعة ويأتي أحياناً يعبر عنه وهو طيف الحبيبة فكيف لا وأن طيفها يكون سلوى له من مشاق حياة الصحراء.

الخيال لغة: ما تشبه لك في اليقظة والحلم من صور... والخيال خيال الطائر يرتفع في السماء فينظر إلى ظل نفسه^(١). وهو عملية توليد الصورة والتي وظيفتها تصوير الحقائق النفسية والأدبية^(٢).

والخيال "هو الأب الشرعي للصورة أو الرحم الذي يتخلق فيه الشعر بل خيال جثة هامة لا قيمة لها، فالخيال مقام الشعر"^(٣)، قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(٤).

والخيال والتصوير هما أساس البيان وأساليبه الممتلئة في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، فكل أسلوب في الغالب يعقد المقارنة بين شيئين يمثلان طرفي الصورة كقول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله *** عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بجوزه *** وأردف أعجازاً وناء بكاكل^(٥)

ففي البيت الأول التصوير يقوم على التشبيه وفي الثاني يقوم على الاستعارة وفي قوله:

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج ١١ ص ٢٣٠. مادة (خيل).

(٢) النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال. الناشر دا النهضة العربية القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٩ ص ١٦١.

(٣) التقليد والتجديد في الشعر العباسي، د. سلام مصيلحي عبد الله، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١م. ص ٤٧.

(٤) سورة طه، الآية ٦٦.

(٥) ديوان امرئ القيس، ص ١١٧.

فيا لك من ليل كأن نجومه *** بكل مغار الفتل شدت بيذبل^(١)
فهنا كناية عن طول الليل .

فالشاعر سويد الذي كان يعاني إحساساً بالصباية عاوده الإحساس بذلك بعد أن كبر فغنى الغناء الذي تشوبه وتخالطه ظلال الضعف بعد أن ذهبت الجدة منه والربع، فقد وصف أشواقه وخيال بيئته وحاله وليله ونهاره فأنت كل تلك معبرة عما يحس به. يقول:

بسطة رابعة الحبل لنا *** فوصلنا الحبل منها ما اتسع
حرة تجلو شتيتاً واضحاً *** كشعاع الشمس في الغيم سطع
صقلته بقضيب ناضر *** من أراك طيب حتى نضع
أبيض اللون لذيذاً طعمه *** طيب الريح إذا الريق خدع
تمنح المرأة وجهاً واضحاً *** مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافي اللون وطرفاً ساجياً *** أحل العينين ما فيه قمع
هيج الشوق خيال زائر *** من حبيب خفر فيه قدع
كم قطعنا دون سلمى مهمهاً *** نازح الغور إذا الآل لمع
في حرور ينضج اللحم بها *** بأخذ السائر فيها كالصقع^(٢)

ولما كان الشعر مادته الخيال، والخيال غذاؤه الحس، والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية ولا يسمع من الأفاصيص إلا البطولة والحرب، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل^(٣).

تحدث بعض الكتاب عن محدودية الخيال للشاعر الجاهلي باعتبار اقتصار البيئة الصحراوية ومحدوديتها للمشاهد التي فيها، وهذا ليس بسليم لأن الصحراء

(١) ديوان أمراء القيس، ص ١١٧، مغار الفتل: الحبل المفتول جيداً، يذبل، جبل ويروى :

فيا لك من ليل كأن نجومه - بأمراس كتان إلى صم جنبل

(٢) شعراء النصرانية: لويس شيخو، ص ٤٢٦-٤٢٧. الحبل: العهد والميثاق معناه طواعني فاشتد: شد الحبل على مرادنا .

(٣) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ص ٣١.

واسعة ممتدة وغنية بمشاهدها ومواردها ومفرداتها ومكوناتها، فللشاعر خيال واسع يصور كل مكون في الصحراء وليس لديه الخيال التجريدي ولكنه خيال يتسق مع بيئته وموطنه وما يدور حوله من مناظر وماديات، وقد شغف الشعراء في ذلك العصر بالحديث عن خيالهم وكثر ذلك عندهم . يقول عنتره بن شداد يقلب فكره في الترحال والسفر:

فقلبي هائم في كل أرض * يقبل إثر إخفاف الجمال**
وجسمي في جبال الرمل ملقي * خيال يرتجي طيف الخيال^(١)**

والأعشى يقلب فكره وخياله ويتراءى له طيف حبيبته يقول:

ألمّ خيال من قتيلة بعدما * وهي حبلها من حباننا فتصرما**
فبت كأني شارب بعد هجعة * سخامية حمراء تحسب عندما^(٢)**

يقول طرفه بن العبد:

فقل لخيال الحنظلية ينقلب * إليها فإني واصل جبل من وصل^(٣)**

وإذا كان الخيال عند الشاعر الجاهلي يحوم حول مكونات الصحراء ومعالمها فإن بعضهم كما ذكرت حام حول خيال الحبيبة، وأصبح يتعشقه ويهيم به لعله يخفف عنه شوقه، وقد تطرق إليه كثير من الشعراء.

يقول الحارث بن حلزة وهو يصف رحلته الذهنية وخياله الطارق يقول:

طرق الخيال ولا كليلة مدالج * سلك بأرحانا ولم يتعرج**
إني اهتديت وكنت غير رجيلة * والقوم قد قطعوا متان السجسج^(٤)**

(١) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٠٤.

(٢) ديوان الأعشى، ص ١٨٦، السخامية : الخمرة.

(٣) ديوان طرفه بن العبد، ص ٨٨.

(٤) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٤٢. المدالج: الذي يسير في الليل كله، السلك: المُلازم، لم يتعرج: بم يقم، الرجيلة: القوية على المشي، المتان: جمع المتن وهو ما صُلب من الأرض، السجسج: الأرض الواسعة - يقول: لم أر كليلة: أدلجها إلينا هذا الخيال من هولها وبعدها منّا.

فالخيال تناوله بعض الكتاب بالتعريف "ويشير استخدامنا اللغوي لكلمة الخيال إلى القدرة على تكوين صورة فنية لأشياء غابت عن متناول الحس، ويظهر جانب القيمة الذي يصاحب كلمة الخيال في المصطلح اللغوي المعاصر"^(١).

ولقد تهيأ للنابغة تشبيهه رحلة ناقته بثور الوحش الذي يرسم الذعر في عينيه، ويرتسم الجوع على مصيره، وإمعاناً في الذعر والمكابدة تمطر الجوزاء وترشقه بالثلج فيأتي خياله حاملاً كل تلك المعاني بقوله:

من وحش وجرة موشي أكارعه *** طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد
سرت عليه من الجوزاء سارية *** تزجي الشمال عليه جامد البرد
فارتاع من صوت كلاب فبات له *** طوع الشوامت من خوف ومن صرد
فبثهن عليه واستمر به *** صمع الكعوب بريات من الحرد
فهاب ضمران منه حيث يوزعه *** طعن المعارك عند المحجر النجد
شكّ الفريضة بالمدرى فأنفذاها *** شك المبيطر إذ يشفي من العضد
فظلّ يعجم أعلى الروق منقبضاً *** في حالك اللون صدق غير ذي أود^(٢)

ويقول شوقي ضيف "ونظره إلى الشعر الجاهلي كفيله بتوضيح الجهد الذي كان يبذله الشعراء في إنشاء قصائدهم من وزن واحد وقافية واحدة من خصائصه الخيال والتصوير، فالقصيدة مرسومة بقيود ومصبوغة بصبغة ليس للنثر"^(٣).

فخيال الشاعر البدوي واقعي ويتناول المؤلف من المناظر فتتكامل الصورة في البيت وتعطي المعنى المفهوم. يقول امرؤ القيس مصوراً إحدى رحلاته:

وقد اغتدي والطير في وكناتها *** بمنجرد قيد الأوابد هيكل^(٤)

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر المنصوري، طبعة ١٩٨٣م، ص ١١١.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ٦-١٢.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف مصر ١٩٦٥م ص ٣٣٣.

(٤) ديوان امرؤ القيس، ص ١١٨.

ويقول أيضاً:

كأن عيون الوحش حول خباتنا *** وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب^(١)

فالشاعر لا ينقل الصورة مباشرة من الطبيعة بل تكون فيها لمسات فنية وتلمس جمال التلوين وهو في غاية الروعة في قوله:

فعنّ لنا سرب كأن نعاجه *** عذارى دوارٍ في ملاءٍ مذيّل

فأدبرن كالجزع المفصل بينه *** بجيد معمٍ في العشيرة مخول^(٢)

ولأهمية الخيال في القصيدة والعمل الأدبي على وجه العموم يقول الدكتور الطاهر محمد علي "إن الإمام بجزئيات الحياة وحقائقها لا يصنع وحده أدباً فلا بد من وجود العاطفة والخيال الأدبي الذي يرقى به ليكون أدباً"^(٣).

(والخيال البعيد التجريدي لم يلمسه الشعراء والخيال ينطلق من حدود الكرة"^(٤))، فقد أنت القصيدة العربية معبرة عن الواقع في الصحراء بمقدمات متنوعة منها مقدمات الأطلال والظعن والنسيب والخيال والفروسية والخمر والغزل العذري والحسي... إلخ، كما تنوعت الأغراض في القصيدة الواحدة (وكثر ذلك في المعلمات من فخر ومدح ووصف ورحلة وظعن وصيد إلى غير ذلك من الحاجات التي تدور في خلد الشاعر فيبوح بها مرتبطة ببعضها مستقاة من واقعه

(١) ديوان امرئ القيس ، ص ٣٧. الأرحل: جمع رحل وهو حمل البعير، الجزع: الخرز اليماني - وهو الذي فيه سواد وبياض.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠. عن: عرض، السرب: قطيع البقر، النعاج: البقر الوحشي، عذارى دوار: أبقار يدرن حول صنم، الملاء المذيّل: الثياب الطويلة، الذيل: الجزع - الخرز اليماني الذي فصل بينه وبياض وسواد وقد جعل ذلك الخرز في صيد رجل كريم الأعمار والأقوال كناية عن قيمته الكبيرة.

(٣) الملاح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، د. الطاهر محمد علي، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٩٨٤م، ص ١٠.

(٤) مشكلة السرقات في النقد الأدبي، تأليف الدكتور محمد مصطفى هدار، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٩٣.

فيأتي بمقدمة غزلية تربطه بحب الناس والأرض والخير وطيف خيال ما لم يرسم
طموحه الكبير وفروسية تدفع عنه عاديات الزمن^(١).

وتتمتع القصيدة الشعرية القديمة بوحدة فكرية تربط بعضها ببعض بوشائج
مرتبطة بوحدة ذهنية وفكرية وخيال متقد يربط بين هذه المتعلقات وروح الصحراء،
(إذ أن نوعية الخيال وإمكانياته وفاعليته هي ما تميز الفنان المبدع من غيره ولا
تفضل قيمة الشاعر في مثل هذا التصور عن قدرته الخيالية التي تمكنه من التوفيق
بين العناصر التي تجعله يكتشف منها علاقات جديدة)^(٢).

يعبر الشاعر تعبيراً صادقاً عن واقعها من خلال مفردات البيئة (فالحياة نجم
والموت أفوله، والشباب قمر والشيوخ غيابه، والحببية مطر وفراقها جذب...
الكرم سيل والمستحيل ثريا، والمجد سماء والشر ريح سموم)^(٣).

فالشاعر يستقي خياله من واقعه المصور بالزمان والمكان في رحابة
الصحراء الممتدة (إذ أنه لا يشبه حبيته بزهرة النرجس أو طائر النورس ولا يشبه
عدوة بالغور لا أو الشمبازي أو القرش... فللبيئة ضغطها الذي يمتد على الخيال)^(٤).
فالشعراء من رؤاهم وخيالهم يحكون تشبيهاتهم ويقولون: (أهدى من النجم،
وأجود من الريح، وأصبح من الصبح، وأسمح من البحر، وأثور من النهار، وأسود
من الليل، وأمضى من السيف، وأوحش من مفازة، وأثقل من جبل)^(٥).

ولذلك نجد الخيال والإحساس والتفكير لديهم ينصب في مفردات تلك البيئة
الفسحة ولذلك تنعكس هذه الرؤى في المعاني والصور والتراكيب والمشاهد
والتعابير والصيغ والألفاظ والتشبيهات والاستعارات والأحداث كلها.

وحالة عدم الاستقرار في الصحراء والترحال المستمر للبدو، فالشاعر يرحل
عنه أهله وأحبابه فيشغل فكره ويشغف قلبه فكان الخيال هو سلوانه لتقرب حبيته

(١) النقد الأدبي الحديث، الدكتور علي جابر المنصوري، ص ٨٢.

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر المنصوري، ص ١٤.

(٣) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، تأليف د. عبد الله الصائغ، ص ٢٠١.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٠١.

(٥) العقد الفريد، ابن عبد ربه، الجزء الثالث، ص ١٠.

فيأتي طيفها وخيالها له بقرب حبيبته ومحادثتها، ولذلك كثر هذا الضرب في الشعر
فأتى طيف الحبيبة وعبروا عنه بصور شتى.

يقول عمرو بن قميئة:

تأتك أمامة إلا سؤالا *** وأعقبك الهجر منها الوصالا
وحادت بهانية غربة *** تبدل أهل الصفا الذيالاً^(١)

وقد اتضحت صورة الطبيعة في الغزل مثلاً من السهام والدروع والجيوش
والطيور تغني وهذا التأثير من طبيعة المكان الذي يلزم الشاعر فيه خياله فانطبعت
هذه الصورة في ذهنه.

الغالب في الشعر الجاهلي كثرة استخدام الصور الحسية وهذه الصور
المستقاة من الصحراء تجعل نفاذ الأفكار والمعاني إلى ذهن المتلقي أكثر سهولة
فضلاً عن أنها أقوى وأعمق في الدلالة على المعنى والإحساس به من الصورة
الذهنية المتخيلة.

"أتى الشاعر البدوي في أشعاره بتصوير بديع نابع من الطبع السمع والفكر
الواضح بقوة المعنى ونصاعة الخيال، ويلتزم الصدق في تصويره ووصفه".
(والتصوير هو التعبير بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة
النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة
البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة
المتجددة^(٢)).

فقد كان الشاعر يصور الأرض التي عشقها والمناخ الذي أطنب في نقل
وقائعه والمناظر التي أفاض في تصوير ألوانها وأصواتها وهدير الحياة فيها. فيأتي
الشاعر بالصورة مجتمعة فيلقي فيها مسحة جمالية خيالية تأتي خياله معبراً لتتكامل
اللوحة.

(١) ديوان عمرو بن قميئة، شرح حسني كامل الصيرفي، مطابع دار الكتاب العربي بدون، ص ١٥٨. النية : مثل
النوى وهي الوجهة الذي ينويه المسافر، نية غربة بعيدة، الذيال: الفراق.

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ط ٧ بيروت دار الشرق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م ص ٣٤.

وهناك صورة أخذها النابغة وغيره من الشعراء من بعده صورة الطير وهي تحلق فوق جيشة لتأكل من جثث القتلى وهي طيور مدربة دالة على عظم وقوة وشجاعة وبطش ومدوحيه بأعدائه. يقول النابغة:

إذا ما غزا بالجيش أبصرت فوقهم *** عصاب طير تهدي بعصائب
يصانعهم حتى يغرن مغارهم *** من الضاريات بالدماء الدوارب^(١)

ويقول عنتره بن شداد في نفس هذا المعنى :

وإذا غزوت تحوم عقبان الفلا *** حولي فتطمع كبد كل غضنفر^(٢)
وقد أخذ هذه الصورة أبو نواس^(٣) من بعد فأوجز في المعنى وأضاف إليها إضافات يقول.

تتأبى الطير غدوته *** ثقة باللحم من جزره^(٤)
فأوجز الصورة وركزها وأضاف إليها حساً جديداً يأتي في كلمة جزرة، فالطيور تنتظر بشوق ولهف لزمن خروجه، وجزره هنا تعني أنه متمكن من أعدائه وعند وصوله يجزر أعدائه ولا توجد هذه الصورة عند النابغة، وأخذ المعنى أبو تمام وجاء بصورة تحمل هذا المعنى بقوله:

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى *** بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها *** من الجيش إلا أنها لم تقاتل^(٥)

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٧-٥٨. الدوارب: المتعودات.

(٢) ديوان عنتره بن شداد، ص ٧١.

(٣) أبو نواس هو الحسن بن هاني بن عبد الأول شاعر العراق في عصره ولد في الأهواز من بلاد خوزستان ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد أجود شعره خمرياته من آثاره ديوان شعر وله ديوان آخر سمي الفكاهة والإنتناس في مجون أبي نواس توفي ١٩٨هـ وبتاريخ ولادته خلاف قيل ولد سنة ١٣٠ - ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٥ - ١٤٦هـ وقيل في وفاته ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٨هـ - أنظر الإعلام للزركلي ج ٢ ص ٢٢٥.

(٤) ديوان أبو نواس، ص ٥.

(٥) ديوان أبو تمام، ص ٨٢.

فقد أخذت الصورة شيئاً من الخيال، فالأعلام لها أعناق وكأنها طيور بيضاء نصبت أعناقها في السماء ثم أن هذه الأعناق قد ظللتها الطيور الجارحة، فالمقصود ليس أعناق الأعلام وإنما هو تظليلها بالطيور.

وقوله حتى كأنها من الجيش معنى أضافه الشاعر فقد تثبت هذه الطيور مع الجيش حتى صارت جزء منه، أما مسلم بن الوليد^(١) فقد اقتصر الصورة بقوله:

قد عود الطير عادات وثقت بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل^(٢)**

فهذه الطيور لا تتبع الممدوح وإنما تتبع الجيوش، وأتى أيضاً بهذه الصورة المتنبئ وجاء بصورة بديعة في هذا المعنى يقول:

يفدَى أتم الطير عمراً سلاحه * نسور الفلا أحداثها والقشاعم**

وما ضرها خلق بغير مخالب * وقد خلقت أسيافه والقوائم^(٣)**

فقد ذكر الشاعر هذا النسور لسلاح الممدوح لأنه جعلها مستغنية عن مخالبها لأن سلاحه يبسر لها الطعام فأكلت من جثث قتلاه فلو خلقها الله من غير مخالب ما ضرها، فهذه الطيور لها عمر مديد ولكنها تتنازل عن هذا العمر والقشاعم هو المسن من النسور.

فقد لبست هذه الصورة أردية مختلفة وألوان متنوعة فهي صورة مستمدة من البيئة في سير الجيوش على امتداد الصحراء وتحلق هذه الطيور حولها، ولذلك

(١) مسلم بن الوليد: هو مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني شاعر غزلي هو أول من أكثر من البديع من أهل الكوفة اتصل بالفضل بن سهل فولاه بريد جرجان فاستمر إلى أن مات فيها سنة ٢٠٨هـ — من آثاره ديوان شعر هو مولى سعد بن زرارة الخزرجي الشاعر المشهور كان فصيحاً بليغاً — أنظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ١٨٦ — الأعلام للزركلي ج ٧ ص ٢٢٣.

(٢) شرح ديوان صريع الغواني. مسلم بن الوليد الأنصاري، عني بتحقيقه والتعليق عليه د. سامي الدهان. دار المعارف بمصر، ص ١٢.

(٣) ديوان المتنبئ، ص ٢٧٩-٢٨٠. القشاعم: النسور الطويلات العمر، الملا: وجه الأرض، الأحداث: الشابة

ارتبطت بموقف الحرب وسرت مع الزمان وهذا دلالة على نفاذ البصيرة وصحة الخيال وصدق التصور.

ويرسم عنتر بن شداد صورة تسمعها وتراها متحركة. يقول مفتخراً بشجاعته:

جادت يداي له بعاجل طعنة *** بمثقف صدق الكعوب مقوم
برحبية الفرغين يهدى جرسها *** بالليل معتس الذئاب الضرم^(١)

فهو ينقل هذا المشهد الذي تسمع فيه صوت الضرب والطعن الذي يهدي الحيوان التائه في الصحراء بضربة واسعة في جسم ملاقيه.

وأمرؤ القيس حينما أراد أن يجسد صلابة فرسه وسرعة كره على العدو وإدباره عنه حيث لا مجال للكر لم يجد ما يشبه به سوى حجر أو قطعة من الصخر دحرجها سيل قوي من مكان مرتفع وذلك في قوله:

مكر مفر مقبل مدبر معاً *** كجلمود صخر حطه السيل من عل^(٢)

وفي قوله:

له أبطا ظبي وساقا نعامة *** وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٣)

فقد شبه خاصرتي فرسه في الضمور بخاصرتي ظبي وساقها بساقي نعامة في الصلابة والقوة وطول الفخذين، وهي صفات محمودة في الفرس وشبه عدوه بإرخاء الذئب وتقريب الثعلب، والمشبه به منتزع من حيوانات تعيش في الصحراء.

وأتى عمرو بن كلثوم بصورة بديعة فقد شبه تكسر الغدائر إثر هبوب الرياح عليها بغصون الدروع وهو منظر ألفه في بيئته يقول:

(١) ديوان عنتر بن شداد، ص ١٢٤ . صدق: قوي - معتدل، الرحبية: الواسعة، الفرغين: مثني فرغ فهو فم الدلو الواسع، جرسها: صوتها، المعتس: الذي يحوم ليلاً، الضرم: جمع ضرم وهو الجائع يقول خريز الدم من هذه الطعنة يدل السباع فيأتين ليأكلن.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٩.

كأن متونهن متون غُدرٍ *** تصفها الرياح إذا جرينا^(١)

ويأتي الأعشى بصورة جلية تهتز جنباتها حركة وبهاء يقول:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت *** كما استعان بريح عشرق زجل^(٢)

فهنا نظر الشاعر إلى محبوبته فوجد تحته هذا النبات الصحراوي وتمثل في مخيلته تلك الصورة فهو نبت له عناقيد يكون فيها الحب فإذا يبست وهبت عليه الريح سمع لها صوت .

وفي الصحراء كثير من الأحياء الكبيرة منها والصغيرة، ومن الصور المألوفة في الصحراء أثر الوباء وهو صغار الجراد في الأرض السهلة المنبسطة، فقد نقل أوس بن حجر هذه الصورة فكانت في مخيلته ثم نظر إلى سيفه ووجد الشطوب التي ترى على صفحته فتراءت له صورتين فأتي بهما في قوله:

وأخرج منه القيني أثراً *** مذبُّ دباً سودٍ سرى وهو مسهل^(٣)

فقد شبه صورة أثر السيف في الأرض بالأثر الذي يتركه الجراد على الأرض حين يدب إليها وهو منحدر من سفح التلة إلى السهل.

ومن الصور المألوفة في فضاء الصحراء مشاهدة نجوم المجرة في صفاء السماء فنقل زهير بن أبي سلمى هذه الصورة وشبه به الطريق الواضح في قوله:

على لاحب مثل المجرة خلته *** إذا ما علا نشزاً من الأرض مهرق^(٤)

وفي فصل الخريق حيث تنهمر الأمطار بغزارة ساقطة على الأرض فقد وظف علقمة بن عبده الفحل هذه الخاصية "سرعة انهيار المطر" فشبه بها صورة جري الفرس السريع وهو يعدو خلف قطيع من الشياه أو بقر الوحش فقال:

(١) شرح القصائد العشر ص ٣١٦.

(٢) ديوان الأعشى، ص ١٤٤.

(٣) ديوان أوس بن حجر، ص ٩٥. القيني: الحداد الذي يصنع السيوف، الأثر: فرند السيف، مزب: طريق زحفة، مسهل: صخور في السهل أو طريق السهل.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ١٨٩، لاحب: الطريق الواضح، نشزاً: مكاناً مرتفعاً، مهرق: صحيفة بيضاء .

فاتبع آثار الشياہ بصادق *** حثيث كغيث الراح المتحاب (١)

ومن المشاهد المألوفة في الصحراء قطعان الأغنام وهي ترعى ويكون خلفها راعياً يسوقها إلى المرعى دون أن تبدي مقاومة لذهابها للمرعى، فقد أخذ علقمة هذه الصفة من الصورة المذكورة وشبهه به قبيلة زيد بن تميم فيما يراه منهم من ضعف وخور. يقول في تصوير هذا المشهد:

كأن زيد مناةٍ بعدهم غنمٌ *** صاح الرعا بها أن تهبط القاعا (٢)

وقد تكون الصورة حسية محسوسة ومعنوية معروفة فمثلاً نجدهم يكنون عن الضعيف بشجر السدر. قال المفضل النكري:

وجدنا السدر خوَّاراً ضعيفاً *** وكان النبع منبته وثيق (٣)

وقاموا بتصوير السحاب فيذكرون اللون الأسود الملىء بالماء وفي إشارتهم للقط بالسحاب الأحمر ويجسد لبيد الصورة ويضفي عليها حركة ومعاني فشبه السحاب المتدلي بأعناق النعام وانكشف البرق عند سواد الغيم يمثلها بحبشان بأيديهم حراب يقول:

أرقت له وأنجد بعد هدء *** وأصحابي على شعب الرحال

يضئ ربابه في المزن حبشاً *** قياماً بالحراب وبالالال

كأن مصفحات في ذراه *** وأنواهاً عليهن المآلي (٤)

وهنا أتى بتشبيه صوت الرعد بصوت الإبل.

(١) ديوان علقمة الفحل، ص ١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤. القاعا: الأرض السهلة المنبسطة

(٣) الأصمعيات: أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر بدون، ص ٢٣٣.

(٤) ديوان لبيد، ص ١٠٩. أنجد: ارتفع وأخذ السحاب ناحية نجد، شعب الرحال: عيدانها، الرباب: السحاب الذي تراه كأنه متدلي، الالال: الحراب، المصفحات: الإبل التي صفحت وعزلت عن اولادها، المآلي: الخرق التي تكون مع المرأة، تحركها: تندب بها. الأنواح: النساء النائحات شبه بها صوت الرعد.

وغالبا ما يستعين الشاعر في الصحراء بالألفاظ والأساليب المصورة التي تجعل المنظر بارزا ناطقا فتؤاثر هذه الظاهرة ما يذكرونه من ألوان المجاز والتصوير والتعبير المنمقة كقول الفند الزماني في حرب البسوس:

شددنا شدة الليث *** غداً والليث غضبان
بضرب فيه تأييم *** وإيتام وإرنان
وطعنة كفم الزق *** وهي والزق ملآن
وفي الشر نجاة حين *** لا ينجيك إحسان^(١)

ففي هذه الصورة يتوعد الشاعر أعداءه ويفاخرهم ويذكر ما كان في حرب البسوس فلم يكتف بذلك عن نفسه بتشبيهها وقوسه بالليث بل أضاف إليه كلمة أبرزت الصورة ظاهرة "والليث غضبان"، والبيت الثاني يرسم صورة أعدائه وقد تهاكوا من كثرة ما أصابهم من الضرب، ولم يقف عند تصوير الطعنات فحسب بل وصف فتحاتها لفم الزق الملآن الذي يتدفق دماً، والاستعمال على هذا النحو لون من ألوان الإيجاز والدقة.

(١) الحماسة، تأليف أبي عبادة الوليد بن عبيد البحر، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ضبطه وفهرسه الأب لويس شيخو، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م، ص ٥٦.

الفصل الرابع

- المبحث الأول: التشبيه والاستعارة .
- المبحث الثاني: الوزن والموسيقى.

التشبيه والاستعارة :

التشبيه لغة هو التمثيل، يقال هذا شبه هذا ومثيله(١). (وهو تشبيهه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ألا ترى أن قولهم خذ كالورد إنما أرادوا حمرة الورد وطرأوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه). (٢)

فالصحراء مليئة بالمعاني والأفكار والألفاظ المتداولة، فقد تشرب البدوي في الصحراء هذه المعاني وتلك التراكيب والألفاظ واختمرت في مخيلته وكان التعامل معها وفق أسلوب حياته اليومية بل أنت معبرة عن شعره ومعانيه فكان تشبيهه من واقع البيئة المحيطة به من الصحراء الممتدة. يقول امرؤ القيس مشبهاً:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً * لدى وكرها العتاب والحشف البالي (٣)**

فشبه قلوب الطير رطباً بالعناب ويابساً بالحشف البالي. ونظر النابغة إلى الطبيعة فلم يجد اتساعاً يغطي الكل غير الليل فشبه به ممدوحه قائلاً:

فإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت أن المنتأى عنك واسع (٤)**

ثم حدّق أمامه للأرض وما آلت إليه من عوامل الطبيعة فشبه آثار الرياح في الرسم بحصير من جريد أو أدم ترملة الصوانع أي تعمله وتخززه وتحسنه يقول النابغة:

كأن مجر الرامسات ذيولها * عليه قضيم نمقته الصوانع (٥)**

ويقول في قصيدة يعتذر فيها للنعمان مرجحاً كفته على كل الملوك ويخلع عليه صفة الاتساع والرفعة وأنه يغطي على كل الناس بكل صفاته:

كأنك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منهن كوكب (٦)**

(١) لسان العرب لابن منظور، ج ١٤ ص ١٧ مادة (مثل) .

(٢) العمدة لابن رشيق ، الجزء الأول ٤٨٨ .

(٣) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢٩ . يعني كأن قلوب الطير رطباً بالعناب. يابساً : الحشف البالي.

(٤) ديوان النابغة الزبياني، ص ٥٢ .

(٥) المصدر السابق، ص ٤٣ .

(٦) المصدر السابق، ص ٧٨ .

وعنتره بن شداد يشبه كثرة الطعن والرماح مثبتة فيه وظل يجرها كأنه حامل
حطب وهذا تشبيه فيه مبالغة في التصوير . يقول:

وغادرن نضله في معرك * يجر الأسنة كالمحتطب^(١)**

وزهير يشبه نهيق الحمار في الصحراء بإنسان يدعو صاحبه لصوته العالي ورجوع
صدى الصوت يقول:

كأن سحيله في كل فجر * على أحساء يمؤود دعاء^(٢)**

ويقول طرفة مشبهاً وجه محبوبته بالضياء واللمعان بقوله:

ووجه كأن الشمس حلت رداءها * عليه نقي اللون لم يتحدد^(٣)**

ويقول ابن طباطبا (واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات
والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ومدت به تجاربها وهم أهل وبر)^(٤).

ويشبه الحارث بن حلزة وقع القتلى بوقع السحاب أي المطر بقوله:

وحسبت وقع سيوفنا برؤوسهم * وقع السحاب على الطراف المشرح^(٥)**

وسقط المطر ونزوله عندهم من بشارات الخير والسعادة ولذلك يشبه البدوي ما قد
يحدثه بالنسبة للحيوانات والجمادات في الصحراء. يقول امرؤ القيس في وصف
السيل وتساقط الأمطار على الجبل والسباع والطيور:

كأن أباناً في أفانين ودقه * كبير أناسٍ في بجاد مزمل**

(١) ديوان عنتره بن شداد، ص ١٦. غادرن : أي الخيل ، المحتطب : الذي يجمع الحطب، جعله والأسنة قد
كثبت رؤوسها في جسمه ويلقيها على الأرض تنجر خلفه كالمحتطب بعيدانه وراءه أطرافها تمس الأرض

(٢) ديوان زهير، ص ٧٩. سحيله:صوته وقوله فجر أي حين انشق عمود الصبح وقال أكثر ما يكون الحمار
نهيقاً في السحر . يمؤود: أرض، إحساء: جمع واحدها حسي وهي مواقع يكون فيها الماء .

(٣) ديوان طرفة، ص ٥٧.

(٤) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق د. طه الحاجري، د. حمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة،
١٩٥٦م، ص ١٠.

(٥) ديوان الحارث بن حلزة، ص ٤٣، الطراف، بيت من أدم أي جلد، المشرح: الشرح بفتحيتين عرى الخباء
ونحوه. شراجها وأشراجها: أدخل بعض عراها في بعض.

كأن نرى رأس المجير غدوة *** من السيل والإغناء فلكة مغزل
كأن سباعاً فيه غرقى عشية *** بأرجائه القصى أنابيش عنصل^(١)

لم ترد قصائد كثيرة منفردة لوصف البطولة لذاتها وإنما كانت تأتي في ثنايا قصائدهم فإذا بلغه الليل أو الهجير أو البرد أو المطر في رحلته تحدث عنه فيصف الأمطار وما تفعله في الأودية والغدران وما يقابله من قطيع من حيوان الصحراء كالثيران والظباء وحمر الوحش فتثار مشاعره، وكثيراً ما يبدأ بوصف وتشبيه ناقته القوية السريعة أو فرسه السريع فيقرن هذه الصفات ويشبهها بثور الوحش الذي استعصى على الصياد وكلابه إلى غير ذلك من الاستطرادات التي توحى بها الرحلة.

وقد يرد تشبيه الشاعر بالصفات والألوان فيشبه النابغة حبيبته نعمى بالشمس في البياض فيقول:

بياض كالشمس وافت يوم أسعدها *** لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار^(٢)

ويشبه امرؤ القيس ظلمة الليل وسواده بموج البحر يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله *** على بأنواع الهموم لبيتلى^(٣)

الطلل والحبيبة هما عمادا غزل الشاعر البدوي يقول امرؤ القيس مصوراً آثار سكن محبوبته وما تركته الطبيعة فيها:

ترى بعر الآرام في عرصاتها *** وقيعانها كأنه حب فلفل^(٤)

وقد استخدم عمرو بن كلثوم كثيراً من التشبيهات المستمدة من وحي حياته. يقول في افتتاحية معلقته:

(١) ديوان امرؤ القيس ، ص ١٢٢ . أنابيش عنصل : جذور بصل.

(٢) ديوان النابغة، ص ٢٣٤ .

(٣) ديوان امرؤ القيس، ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق، ص ١١١ .

مشعشة كأن الحص فيها *** إذا ما الماء خالطها سخينا^(١)

فشبه الخمرة الممزوجة بالماء كأنها من شدة حمرتها بلون نبات الحص الأحمر لشدة حمرتها. ويقول أيضاً:

وأعرضت اليمامة واشمخرت *** كأسياف بأيدي مصلتينا^(٢)

فهنا يشبه قرى اليمامة مثل السيوف المسلولة بأيدي فرسان. ويقول أيضاً عمرو بن كلثوم:

كأن جماجم الأبطال فيها *** وسوقاً بالأماعز يرتمينا^(٣)

وهنا شبه نصرهم على أعدائهم وتقتيلهم للأعداء بروؤس الأبطال منتشرة في الأرض الصلبة كأنها أحمال البعير المتساقطة.

ويصف الحرب ويصور مهارة أعدائه في استعمال السيوف فيشبه سيوفهم وسيوف أعدائهم في المبارزة أشبه بالمخاريق بأيدي الصبيان وهي لعبة يلعبها الصغار يقول:

كأن سيوفنا فينا وفيهم *** مخاريق بأيدي لاعبيننا

كأن ثيابنا منا ومنهم *** خضبن بأرجوان أو ظليننا^(٤)

وبعد وصفه لساحة المعركة وقتالهم لأعدائهم يصف تموجات الدروع فيشبهها بمتن الغدير إذا مرت به الرياح فتموجه وتكسره يقول:

كأن متونهن متون غدرٍ *** تصفها الرياح إذا جرينا^(٥)

وإذا أمعنا النظر لكل هذه التشبيهات نجدها مستمدة من الواقع الحياتي للأعراب فهي مفردات عالقة بأذهان الشعراء، فيشبه امتزاج الخمر بالماء في حمرتها بنبات

(١) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٢٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٥) المرجع السابق، ص ٣١٦.

الحص أحمر اللون ، وصورة القرى من بعيد بالسيوف في أيدي فرسان، ورؤوس الأبطال في الأرض بأحمال البعير المتساقطة . والسيوف في المعركة كالعبء المخاريق عند الصبيان، وغزارة الدم في الثياب مثل الأرجوان وهو نبت شديد الإحمرار، ويشبه مشية النساء لثقلهن بالسكرى، ويشبه تساقط رؤوس أعدائه وتدحرجها بالكرات التي يدحرجها الصبيان الشداد، فكل هذه المفردات والمعاني مجتمعة تحكي عن الصحراء في جمالها وبهائها وصفائها وعاداتها وألوان الحياة فيها.

وأوس بن حجر يشبه لنا يوم ممطر فيه رعد وبرق وسحاب وسيل فيستمد الصور وينتزعها من الواقع في تشبيهه له يقول:

كأن ريقه لما علا شطبا *** أقراب أبلق ينفي الخيل رماح^(١)

فهنا يشبه الشاعر انكشاف البرق كما يرمح الفرس فيبدو بياضه. ويشبه أعلى السحاب وأسفله عندما يلمع البرق بالملاءة من نسج واحد أو ضوء مصباح يقول:

كأنما بين أعلاه واسفله *** ريطٌ منشرةٌ أو ضوء مصباح^(٢)

ويشبه هطول الأمطار وشدتها على الأرض وصوتها من غزارتها كأنه إنسان يفحص الأرض ويقلب حجارتها، أو لعبة الصبية الذين يلعبون بالمدحاة وهي حجارة يرمي بها الصبي فتمر على الأرض لا تأتي على شيء إلا تقلبه. يقول:

(١) ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ١٥ . ريقه:

أوله، شطب: حبل، أقراب: قرب، أبلق: فرس فيه سواد وبياض، ينفي: يطرد، رماح: كثير الرفس.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦.

ينزع جلد الحصى أجش مبترك *** كأنه فاحصٌ أو لاعب داحي^(١)

وأما القوة والشدة والعزيمة والشكيمة من صفات إنسان الصحراء ومطلوباتها نجد الشنفرى كثيراً ما يشبه بعض الصور ببعضها وتحمل في طياتها معاني الشدة وهو لا يريد الخوف ولا يطيقه ورباطة الجأش هي ديدنه. يقول في لاميته:

ولا خرق هيفٍ كأن فؤاده *** يظلُّ به المكاء يعلو ويسفل^(٢)

ففي هذا البيت يشبه الفؤاد الذي يخاف في خفقاته كأنه يحمله طائر المكاء يعلو ويسفل به، والشاعر في تشبيهه يبرز الصورة وحماستها ويجسم الصورة ويجسدها وكله مستمد من الحياة من حوله.

ويجسد أحد شعراء هذيل صورة من واقع الصحراء عندما ورد ماء له فوجد بعض آثار الحيات في الأرض. يقول:

كأن مزاحف الحيات فيه *** قبيل الصبح آثارُ السياط^(٣)

وقد اتخذ عدد من الشعراء في الجاهلية تشبيهات أبدعوا في إخراجها ثم أخذه الشعراء الآخرون وقلدوه، فجاء اتحاد المعاني و الصور والتشبيهات والألفاظ أحياناً، ذلك لتطابق الرؤيا والفكر في البيئة فكان تصورهم للصحراء ومكوناتها بصورة مباشرة ليس فيها تكلف فتتبع الصورة من الصحراء المليئة بالأشياء استمدت من روحها ووحياها فأضافت للغة رصيذاً وذخيرة ضخمة استطاعت أن تتداول بين أفراد البدو في الصحراء وأصبحت مكوناً متميزاً للغة، فتأتي هذه المفردات معبرة عن تقارب أوصاف كل مفردة وأخرى فيأتي التشبيه حاملاً تلك الصفات مع الصياغة اللطيفة التي يصيغها البدوي في البيت، فتأتي معبرة ومحلقة في الخيال وفي

(١) ديوان أوس بن حجر ، ص ١٧. أجش: غليظ الصوت، مبترك: غزير، الفاحص: من الفحص، الداحي: الذي يلعب بالمرحاة وهي حجارة يلعب بها الصبية.

(٢) لامية العرب للشنفرى - ص ٩. الخرق: الدهش من الخوف، المكاء: طائر يطير صعوداً ونزولاً، الهيف: الظليم هو ذكر النعام.

(٣) ديوان الهذليين، الجزء الثاني، ص ٢٥.

التصوير والربط الفني الدقيق الذي يعبر عن مدى لباقة وقدرة وفكر البدوي في الصحراء.

الإستعارة:

أما الاستعارة فقد أتت في أشعارهم تحمل معاني البيئة في معانيها مصورة تلك المشاهد والمواقف التي حظيت بها البيئة الصحراوية. يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وقد هرتّ كلاب الحىّ منا *** وشذبنا قتادة من يلينا^(١)

فقد شبه أفرع الشجر بالرؤوس فحذف المشبه به وأتى بشئ من لوازمه وهو التشذيب على سبيل الاستعارة المكنية. ويقول:

متى ننقل إلى قوم رحانا *** يكونوا في اللقاء لها طحينا^(٢)

فقد شبه الحرب بالرحى في جامع الهلاك في كلٍ وهي تطحن الكل، فحذف المشبه وأثبت المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. ويقول في نفس المعلقة:

فإن قاتنا ياعمرو أعيت *** على الأعداء قبلك أن تلينا^(٣)

وهنا شبه العز والشرف بالقنا فحذف المشبه وأثبت المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. ويقول أبو ذؤيب الهذلي:

وإن المنية أنشبت أظفارها *** ألفت كل تميمة لا تنفع^(٤)

(١) شرح القصائد العشر، ص ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٤) ديوان أبو ذؤيب الهذلي، ص ٨٥٥.

فقد شبه المنيه بالحيوان في جامع الخشونة في كلٍ وأتى بشئٍ من لوازمه وهو إظفار
بحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية.

قال زهير :

فتعركم عرك الرحا بثقالها * وتلقح كشافاً ثم تنتج فتئم^(١)**

فقد شبه الحرب بالناقة أو حيوان فحذف المشبه به وأتى بشئٍ من لوازمه تنتج وتلقح
على سبيل الاستعارة المكنية.

وامرؤ القيس أتى في البيت الأول بتشبيهه والثاني إستعارة وهنا تتآزر الصور البيانية
مع بعضها البعض بتجميل الصورة كقوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله * على بأنواع الهموم ليبتلي**

فقلت له لما تمطى بجوزه * وأردف أعجازاً وناء بكلكل^(٢)**

إذ يبرز الليل في ظلمته وهو كموج البحر في صورة شخص أرخى سدوله أي
ستوره إذ يقال سدلت ثوبي إذا أرخيته ولم أضعه.

وفي البيت الثاني صورته عندما تمطى بصلبه أي وسطه وأردف إعجازاً لأواخره
ثم نهض بكلكل أي صورته كالليل المظلم، فشبه الليل بالحيوان فحذف المشبه به وأتى
بشئٍ من لوازمه أردف إعجازاً وناء بكلكل على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه * مقلدة أعتها صفونا^(٣)**

فشبه الخيل بالإنسان في العكوف فحذف المشبه به وهو الإنسان وجاء بشئٍ من
لوازمه وهو العكوف على سبيل الاستعارة المكنية، والمعنى أن أصحابه لم يغنوا
عنه شيئاً وهم حوله لا يردون عنه.

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٤٣.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٧.

(٣) شرح القصائد العشر، التبريزي، ص ٢٩٥.

يقول قيس بن الخطيم (٤):

فلما رأيت الحرب تجردت *** لبست مع البردين ثوب المحارب (١)

فهنا صور الحرب في صورة شخص متجرد أي مستعد وهذا تجسيم لها، فشبهه الحرب بإنسان فحذف المشبه به وهو الإنسان وأتى بشئ من لوازمه وهو التجرد على سبيل الاستعارة المكنية.

والاستعارة أتت في أشعارهم تحمل طابع وعبق الصحراء في معانيها وألفاظها وأخيلتها بل أنت في كثير من الأحيان تحمل مفرداتها البيئية.

(٤) قيس بن الخطيم هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي أبو يزيد شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلها وله في وقعة بعاث التي كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة ادرك الإسلام وترث في قبوله فقتل قبل أن يدخل فيه له ديوان شعر ، توفي نحو ٢ قبل الهجرة — أنظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص عبدالرحيم بن أحمد العباسي ج ١ ص ١٩١.

(١) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، الجزء الثاني، ص ٥٠٨.

الوزن والموسيقى:

كان للموسيقى أثر كبير في متعة الشعر وحفظه وروايته في صدور الرواة، وما كانت تلك المعلقات الطوال والقصائد الطويلة التي وصلت إلينا أن تصل لولا الموسيقى التي تذوقوها فأفلحوا في حفظها أيضاً كانت عاملاً في ذبوع صيته في أرجاء الصحراء وتوحيد لغة وفهم الشعر، فاستقى الشاعر الجاهلي الموسيقى من مفردات الصحراء في حله وترحاله فوظفها في شعره.

"ونجد أن أساس الموسيقى في القصيدة القديمة يكمن في اللغة والأسلوب والصورة الشعرية بحيث يستحيل على المرء أن يكشف عن أسرار هذا الجانب الصوتي ويتذوقه من غير ملاحظة لهذا التآلف الصوتي"^(١).

وكان سحر الصحراء وطبيعتها وحركتها الإيقاعية في الحياة أثر في تآلف هذه المعطيات، وارتبط الشعر في نشأته الأولى بالغناء ارتباطاً وثيقاً ولا غرابة في ذلك لأنهما يصدران عن العاطفة ويعبران عنها، فالموسيقى في الغناء تأتي في النغمات والألحان، وفي الشعر موسيقى تكمن في الأوزان والألفاظ.

وأنت الموسيقى كثيراً في مطالع القصائد كنتطيع صوتي لأبيات القصيدة كقول امرئ القيس يصف فرسه:

مكر مقر مقبل مدبر معاً *** كجلمود صخر حطه السيل من عل^(٢)

والموسيقى في القصيدة القديمة تتبع الموضوع وفق الحالة النفسية لقائلها والموقف والموضوع، وينقل الدكتور سعد إسماعيل شلبي في كتابه الأصول الفنية للشعر الجاهلي قول سبنسر: "إن خير الموسيقى ما تتمشى مع الأفكار وتتساق مع المعاني وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس، فالشاعر في اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالي النغمة، وفي حزنه يكون منخفضاً، وفي تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون مسافاته الصوتية قصيرة، وأما في بثه وألمه فتكون مسافاته

(١) عناصر الإبداع الفني في شعر عنتره، د. ناهد أحمد السيد، ص ٢٠٧.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١١٩.

الصوتية طويلة وهكذا لتساير، النغمات، حالات النفس، كما تساير موضوع القصيدة وفكرتها" (١). ولذلك تأتي الموسيقى معبرة حسب الموضوع المطروق.

أما البحور الشعرية وهي أساس الموسيقى التي اخترعها الخليل بن أحمد (٢) الذي قام بتقسيم البحور الشعرية وتنظيمها حسب تفعيلاتها فقسمت أبيات القصيدة إلى مقاطع متوالية ومتناسقة وقوافيه مستقره في مكانها محاطة بسياج من الشروط التي تعارف عليها الشعراء والعروضيون، والروي ينبغي ألا يتبدل مهما طالت القصيدة والوزن والقافية، فالأذن ميزان فإذا ذل الشاعر لا يغفر له والوزن لا بد من أن يأتلف مع اللفظ، فالموسيقى في الشعر القديم في الصحراء لها عذوبة وإعجاباً لدى السامعين فتنغام في كل الأغراض ولها تأثيرها الخاص الذي يجلب الماشي ويوقف الحادي ويسكت المتحدث كقول المرقش الأكبر:

سرى ليل خيال من سُليمي *** فأرقني وأصحابي هجود
 فبت أدير أمري كل حال *** وأرقب أهلها وهم بعيد
 على أن قد سما طرفي نارٍ *** يشبُّ لها بذى الأرقى وقود
 نواعم لا تعالج بوُس عيشٍ *** أوانس لا تروج ولا نرود^(٣)

وقد بدأت موسيقى العرب مع حذاء الإبل في مشيها وسيرها وسرعتها، وعلى هذه الطريقة كان غنائهم وأخذوا يترنمون بالشعر على الأوزان التي سرت على ألسنتهم واتخذوها قواعد للشعر فأنت موسيقاهم متناغمة مع الألفاظ حسب الموضوع ونفسية الشاعر، فإذا حزن تنافلت عليه الهموم فتأتي الموسيقى معبرة عن هذا الموقف، وغالباً ما يأتي بحر الطويل الذي تتابع ألفاظه كوصف الليل عند امرئ القيس مثلاً:

(١) الأصول الفنية للشعر الجاهلي، د.سعد إسماعيل شلبي، ص ١١٨.

(٢) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي أبو عبد الرحمن من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض وهو أستاذ سيبويه النحوي ولد ومات في البصرة (١٠٠-١٧٠هـ) له كتاب العين ومعاني الحروف وكتاب العروض والنقط والشكل - أنظر الأعلام للزكي ج ٢ ص ٣١٤.

(٣) ديوان المرقش الأكبر، عوف بن سعد بن مالك المتوفي نحو ٧٠ قبل الهجرة تحقيق نوري حمودي القيسي الرياض ١٣٩٠هـ ص ٩٦.

وليل كموج البحر أرخى سدوله *** على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه *** وأردف إعجازاً وناء بكاكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي *** بصبح وما الإصباح فيك بأمثل^(١)

وإذا ركب فرسه وأخذته نشوة السرعة تأتي الموسيقى سريعة متواتبة كقوله في وصف فرسه:

مكر مفر مقبل مدبر معاً *** كجلود صخر حطه السيل من عل^(٢)

وكقوله أيضاً إذا ركب راحلته وامتطى صهوتها في الفلاة مسرعاً يأتي قوله كسرعة راحلته:

واليد سابحة والرجل ضارحة *** والعين قاذحة والمتن سلحوب^(٣)

وأما معلقة عمرو بن كلثوم جاءت تحمل ثورة وشعلة وأنفة وفخراً وزهواً وعاطفةً متأججة وألفاظها تندفع كالسيل الجارف مثيرة في معانيها المستمدة من قوة وسرعة الحياة في الصحراء فأتت موسيقاها تحمل ذات الطبع القوي السلس الذي اتسم بالرنه الموسيقية الجميلة فكان تشطير بحر الوافر الذي أعطى المعنى رونقاً، وللموسيقى إيقاعاً يقول:

أبا هند فلا تعجل علينا *** وانظرنا نخبرك اليقينا
بأننا نورد الرايات بيضاً *** ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال *** عصينا الملك فيها أن ندينا^(٤)

(١) ديوان امرئ القيس ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق، ص ١١٩ .

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧ . اليد: أي جرى ومد يديه فكأنه سابح في الماء، الضارحة: أي ضاربة الأرض وحافرة فيها، قادمة: غائره ، سلحوب: الظهر أملس .

(٤) شرح القصائد العشر، ص ٢٩٣ . أبا هند: عمرو بن هند، الرايات: الأعلام، أيام لنا: أيام العرب .

وبعضهم يلح على تكرار الألفاظ التي يحاول فيها تقوية المعنى والتشديد على رنينها ليؤكد رسم الصورة، فعندما أراد امرؤ القيس أن يصف ديار سلمى وقد تعفت ودرست لإلحاح المطر عليها، ردد اسم سلمى ليكون الشوق أشد إحساساً بالمعنى المطلوب. يقول:

ديار لسلمي عافيات بذي الخال *** ألح عليها كل أسحم هطال
وتحسب سلمى لا تزال ترى طلاً *** من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا *** بوادي الخزامي أو على رأس أوعال
ليالي سليمى إذ تريك منصباً *** وجيداً كجيد الرئم ليس بمعطال^(١)

ولذا نقول أن أغلب البحور التي استعملها الشعراء القدامى هي البحور الطويلة وذلك لطول الصحراء وامتدادها وطول الرحلة واتساع فكرهم في حشد العديد من المعاني في القصيدة بل في البيت الواحد، (وفضلوا البحور الطويلة على غيرها من البحور لاستيعابها للمعاني واتساعها للتشبيهات والاستعارات والمجازات والكنائيات لأن الصورة التي يريدون استعمالها لا تكمل في البحور القصيرة^(٢)).

وبحر الطويل يقع موسيقياً على الأذن وقعاً بطيئاً متأنياً لنشوء نغمة الموسيقى من تفعيلات، فعولن، مفاعلن، فعولن، مفاعيلن، مرتين في البيت الواحد. ونجد أن عقلية الشاعر البدوي قد استوعبت هذه المعاني فهي عقلية وجدانية امتازات برهافة الحس ودقة الشعور ولطف الوجدان، فكان استجابة لتذوق معطيات الطبيعة الصحراوية والاستمتاع بجمال الفن وجمال الطبيعة والصورة. والشعر والغناء توأمان لأم واحدة كليهما يصدر عن الوجدان ويعتمد على الموسيقى، الأول موسيقى الأوزان والآخر موسيقى الطرب والألحان. والموسيقى الشعرية تخضع لذوق الأمم والأجيال وتتأثر بالمؤثرات التي تشكل فنون البيئات والمجتمعات، وقد تحققت موسيقى الشعر عند القدماء^(٣).

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢٣.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي د.القيسي، ص ٣٨٠.

(٣) قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، د.عبدالله عبدالجبار، ص ٥٨.

ومنذ ذلك الوقت الذي جمع فيه الخليل بن أحمد البحور الشعرية كلها لم تزد إلا بحراً واحداً أضافه الأخفش^(١) لم يستطع بعدهم أحد أن يزيد بحراً أو تأتي أشعار موسيقية تحمل سمات القديم وتكمله، وهذا يدل على جودة قريحة البدوي في الصحراء في الشعر الجاهلي، ويدل الشعر دلالة واضحة على اشتمال القصيدة على كل محيط الأوزان العربية والذوق الموسيقي الكامل.

"فقد نشأت الموسيقى الشعرية والوزن والقافية نشأة عربية خالصة خالية من تأثير أمة أخرى لأن الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم القديمة، ولأن السريان القدماء كانوا ينظمون بغير أن يلتزموا قافية واحدة، والعبرانيين لم يلتزموا الوزن والقافية وقد يشترطون القافية دون الوزن"^(٢).

وأن الوزن والقافية من عناصر الشعر، ويسمى في النقد الحديث موسيقى الشعر، وقد تحدث الأقدمون عن ذلك كثيراً وقلوبه على جوانب عدة وهما أهم ركنين في بناء القصيدة الشعرية وما كان هناك حديث عن الشعر إلا وتضمن عن الوزن والقافية.

يقول ابن رشيق عن نشأة الوزن العربي: "إن العرب احتاجوا إلى الغناء للتغني بمكارم أخلاقهم وطيب أعراضهم وذكر أيامهم الصالحة وأوطانهم النازحة وفرسانهم الأنجاد وسمائهم الأجواد فتوهموا أعاريض يعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به أي فطنوا"^(٣).

وأما التصوير وهو لون من ألوان الموسيقى ومن آثار الصحراء في صوت الحداء أو السفر على الإبل فيأتي الشاعر فيتغنى بقصيدته فيقطعها أو يصرعها لتأتي بنغمة توقيعية يألّفها الشاعر ويميل إليها ويأنسها السامع، ففي مطلع معلقة امرئ القيس صرع البيت لثلاث مرات في قوله :

(١) الأخفش: هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط عالم باللغة والأدب من أهل بلخ سكن البصرة وأخذ العربية عن سيبويه وصنف كتباً منها تفسير معاني القرآن الاشتقاق معاني الشعر - أنظر الأعلام للزركلي ج ٣ - ص ١٠١.

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، ص ١٨٠.

(٣) العمدة، ابن رشيق، الجزء الأول، ص ٥.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *** بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(١)
وكقوله :

أفطم مهلاً بعض هذا التدل *** وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجمل^(٢)

وقوله:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي *** بصبح وما الإصباح منك بأمثل^(٣)

وفي مطلع معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصحنك فأصبحينا *** ولا تبقى خمور الأندرينا^(٤)

وفي قوله أيضاً:

قفي قبل التفرق يا ظعينا *** نخبرك اليقينا وتخبرينا^(٥)

ويقول عنتره بن شداد:

هل غادر الشعراء من متردم *** أم هل عرفت الدار بعد توهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي *** وعمي صباحاً دار عبلة وأسلمي^(٦)

تلك أمثلة ولو حصرناها في الشعر العربي لوجدنا التصريح كثيراً فيه، وللموسيقى في الشعر العربي تقسيمات عديدة منتقاة من معنى واحد.

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٤) شرح القصائد العشر التبريزي، ص ٥٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٨٤.

(٦) ديوان عنتره بن شداد، ص ١١٧.

يقول شوقي ضيف: "أن التصريح كأنه يأتي به الشاعر حين ينتهي من غناء قطعة من قصيدته أو انتشارها، وينتقل إلى أخرى، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلتهم يفرعون إليه حتى ينتقلون من موضوع في النموذج الفني"^(١).
وأما لبيد لم يخل شعره من هذا الضرب كما في معلقته:

عفت الديار محلها فمقامها *** بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها *** خلقاً كما ضمن الوحي سلامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها *** زبرُ تجدُّ متونها أقلامها^(٢)

فالتصريح يأتي بنوع من التقطيع الموسيقي الشجي الذي يسكن النفوس ويترب القلوب، ويأتي بمقطعين أو أكثر وبذلك يخرج تقطيعاً صوتياً منظماً، يستقي روحه ووحيه ونظمه من نفس الصحراء.

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د.شوقي ضيف، ص ٢٤٨.

(٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص ١٦٣.

الخاتمة والنتائج

أثرت الصحراء في حياة البدوي تأثيراً واضحاً، فأصبحت جزءاً من حياته إذ ارتبطت بوجوده فصارت غناءه وأشواقه وفكره ومعاشه وحياته كلها، ولذلك عظمها وشكلت مسار حياته فتغنى بها.

يقول الشنفرى في لاميته ويدي مدى تعلقه بالصحراء يقول:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى *** وفيها لمن خاف القلى متعزل^(١)

فهي مأمّن له في كلا الحالين في بعد الكريم عن الأذى وبعده عن اعتزالهم. ويقول أيضاً:

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ *** سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل^(٢)

فالأرض فسيحة مبسوطة للراغب والراهب لمن يعقل. ويقول:

وآلف وجه الأرض عند افتراشها *** بأهدأ تنبيهه سناسن قحل^(٣)

فهو يحب الأرض في حله وترحاله فهي الحبيب الذي لا يرام، فقد أحبها وجمال في وهادها طلباً للرزق والراحة. وأبرز صور وجمال ومحاسن الصحراء وجسد الصورة البهية لها وما يقابلها من تشبيهات من حوله، فصارت لوحة مصوره تصويراً صادقاً عكست مظاهرها ومفرداتها وطبيعتها التي تدل على دراية وخبرة لأنهم يذكرون كل مظهر من مظاهرها في الموضع اللائق به.

والصحراء زمان ومكان ومؤثر فقد أوحى للشاعر البدوي بكل مكنوناته فناجى الليل والحببية والناقة، وصوّر السراب والوادي والبرق والمطر والجبل، ووصف الثور الوحشي والكلاب والطيور، فصارع الحياة بكل جوانبها فبرزت صفات الكرم والشهامة والنخوة والمروءة، فظهر الحب الدفاق والوئام المكاني مع مظاهر الصحراء بجانب الحرب والنار والإغارة وأيام العرب وتنظيم القبيلة، فانقلبت هذه المتلاقيات في ذهن البدوي وعبر عنها الشاعر من خلال رحيله

(١) لامية العرب للشنفرى، ص ٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠.

ووصفه للظعن والترحال وجمال الطبيعة الصامتة منها والمتحركة، فأصبغ على هذه الصورة الواقعية لمسة فنية وصبها في قوالب أدبية بهية كانت أساساً للشعر العربي، فالبيئة أثر لا ينكر في توجيه النشاط الإنساني ومجموع العادات والتقاليد الاجتماعية والسلوكية في الأدب عموماً وفي إطار تلك البيئة الصحراوية.

كان هذا البحث الذي يدرس الصحراء في الشعر الجاهلي وتضمن مقدمة ثم تمهيد وفصول تتالت، ووجد أن أثر الصحراء في اللغة بين وواضح فقد أمدت قاموس اللغة العربية بفيض زاخر من الأسماء والصفات التي اكتسبت صفة الاسمية مع كثرة الاستعمال ومرور الزمن واحصيت نحواً من تسع وثلاثين اسماً وصفة دللت على معظمها بشواهد شعرية ثم بان أثر الصحراء في موضوعات الشعر وبرزت صورة الناقة واضحة في معظم دواوين شعراء البادية ، كذلك برز أثرها في الصورة الفنية وبناءً على ما تقدم يمكن أن نطلق على الأدب في العصر الجاهلي ادب الصحراء لأنه نبت وترعرع في الصحراء واستقى كل معانيه منها ويمتاز هذا الأدب في معظمه بالقوة والجزالة وفصاحة اللغة والأسلوب .

وهنا نورد بعض النتائج:

- (١) أتت الصحراء بكل مظاهرها وأشكالها في قصيدة الشاعر البدوي الذي عبر من خلالها عن مشكلاته وهمومه وعواطفه الذاتية في حله وترحاله فيها.
- (٢) تنوع مقدمات القصائد الشعرية في الصحراء بتنوع المكان والموقف النفسي للشاعر من غزلية، طليية، خمرية... الخ، مع تمثيل هذه المقدمات للحياة البدوية في تلك البيئة.
- (٣) أتت الصحراء بكل مكوناتها ومفرداتها في القصائد الشعرية القديمة لتثبت أماكن وتاريخ وجغرافية المنطقة.
- (٤) تقديس العربي في البادية لراحته من أثر الطبيعة الصحراوية وذلك للنقلة والهجرة سعياً وراء الماء وموطن الاستقرار والكأ والظل، ولذلك نشأت أهمية الحيوان وكان أشهرها الناقة ثم الحصان الذي كان اقتناؤه مظهراً من مظاهر الغني.

- (٥) أثرت الصحراء في شكل وموطن البدوي وحياة التنقل لعدم انتظام الأمطار وتفرقتها في بقاع متفرقة منها ولذلك، أنت أشعارهم معبرة عن الأمطار وفصولها وأنواعها.
- (٦) قساوة الطبيعة الصحراوية وشعور البدوي بالضعف أمام هذه المعاناة فرض عليه تقديس القوة والشجاعة والبراعة والشدة حتى أصبحت هذه الصفات مبادئ من مبادئ السيادة فكان شعورهم وحاجتهم للكرم والنجدة والمروءة وحملت أشعارهم هذه المعاني.
- (٧) اشتملت القصيدة الشعرية على مظاهر البيئة والقيم الاجتماعية والخلقية والنفسية المستمدة من الصحراء بوصفها نموذجاً علياً يحتذى به ويسعى إلى تحقيقه.
- (٨) البيئة الصحراوية خلقت شكل الحياة القبلية وعيشها في شكل مجموعات خوفاً من الموت وحفاظاً على الإنسان من الحروب وبحثاً عن الطمأنينة والحماية والتكافل الاجتماعي بشتى صورته.
- (٩) نجد كل النظم والأصول والسلوك العربي في الصحراء كانت نتاجاً لتلك الخصائص المناخية وغريزة التغلب على الحياة والمحرك الأساس لذهن العربي وتصرفاته.
- (١٠) استوعب الشعر الجاهلي في الصحراء كل متطلبات الحياة منذ ذاك الزمان وحتى اليوم في المعاني الدائرة. قال ابن الأعرابي: (لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى داود ولا وصف الخمر إلا أوس بن حجر ولا وصف نعامة إلا احتاج إلى علقمة بن عبده ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبياني^(١)). وهذا بالطبع يدل على الذهن المتفتح والعبقريّة الفزة والفكر الثاقب والتعمق في مجاهل الحياة بكل مفرداتها واستبطانها.
- (١١) الطابع العام للشعر الجاهلي الذي نشأ في الصحراء اتسم بالجزالة والفصاحة ويمتلك الشعراء مواهب فريدة وجليّة وملكات قوية أنت بتركيب متين للقصيدة وأداء رائع وبعد عن التكلف فأتى شعراً معبراً عن بيئة الصحراء.

(١) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، الجزء الخامس عشر، ص ٩٣.

- (١٢) ملكت الصحراء اللغة العربية ذخيرة ضخمة من الألفاظ والمفردات والمعاني والأسماء والصفات وأصبحت ركيزة لتلك اللغة فيما بعد.
- (١٣) كانت للحروب وأيام العرب في الحياة الاجتماعية دور أدى لضعف في الحياة العامة ولكنه أبرز دوراً فاعلاً في الجانب الأدبي إذ أفرز قصائد ومطولات ومعلقات صارت نبراساً ومعبرة عن ذلك الجانب بكل تفاصيله.
- (١٤) أسواق العرب المتفرقة في الصحراء كسوق عكاظ أدى دوره الاجتماعي والاقتصادي بجانب الدور الأدبي الذي أضاء ساحتها وأبرز مكانتها.
- (١٥) خلقت الصحراء موسيقى وإيقاع شعري مؤثر مستمد من سير حياتها من حيوان ونبات ورياح وجماد.
- (١٦) نقلت القصيدة الشعرية الجانب الحربي والثأري من جوانب الحياة الاجتماعية في الصحراء بكل تفاعلاتها وأدواتها في قالب فني يطغى عليه طابع الحماس والفخر والبسالة.
- (١٧) حملت القصيدة العربية القديمة في الصحراء الإصرار والعزيمة التي اتسم بها البدوي وهي صفة مكتسبة من البيئة المحيطة لخلق نوع من التوازن الروحي والمعنوي مع متطلبات الحياة وإيجاد جو نفسي يتفاعل مع الروح الوثابة للبدوي.
- (١٨) وضوح وبيان فكرة القصيدة الجاهلية وحملها لصور بيانية محسوسة يعكس لنا وضوح الرؤيا وصفاء البيئة الصحراوية.
- (١٩) الصحراء باعث من بواعث تشكيل نفسية البدوي وإظهار القوة والصراع النفسي من أجل البقاء، وباعث لكل الصور والأغراض الشعرية وأساس لتشكل حياته وخلق نوع من المواءمة مع البيئة.
- (٢٠) مكونات اللغة الفصيحة ومفرداتها حافظت على جزالتها وقوتها وثباتها حتى اليوم.
- (٢١) كان للصحراء أثر واضح في القصيدة الشعرية من حيث شكلها وبنائها الفني برز في مقدمتها وحسن التخلص والخاتمة وحملها لكل هذه المراحل المعبرة عن فكر ووجدان وحياة البدوي.

(٢٢) أتت لمسة حزينة في غالب الأشعار تحمل فكرة الموت والفناء في طياتها نتيجة للمؤثرات الاجتماعية.

(٢٣) أتت الطبيعة الصامتة والمتحركة من حيوان وشجر ورعد وبرق تتحدث بلسان الشاعر عن الأثر المباشر والتناغم الحركي تحت قبة الصحراء.

(٢٤) تعددت المواضيع التي حوتها القصيدة بداخلها فشملت على أغراض متنوعة منها الوصف والوقف عند الطلل وتصوير الناقة وذكر الحبيبة والصيد والثور الوحشي، ونجد فيها مدح وهجاء وغير ذلك من تصورات الشاعر وما كابده في رحلته ويذكرها بتفصيلها، والمعلقات تحمل هذا وأنموذج لما ذكرت.

(٢٥) أتت الصورة متكاملة فنتكامل التشبيهات مع الاستعارات في البيت الواحد فترسم لوحة متشكلة زاهية عبرت عن المقصود تعبيراً خلاصاً مثلاً يقول امرؤ القيس مصوراً يوماً ممطراً بقوله:

وأضحى يسح الماء من كل فيقة *** يكبُ على الأذقان دوح الكنهيل
كأن أباناً في أفانين ودقة *** كبير أناس في بجاد مزمل
كأن نرى رأس المجير غدوة *** من السيل والإغناء فلكة مغزل^(١)

فهنا يرسم الشاعر صورة يوم ممطر وكيف أن الماء تخلل كل هذه البقاع الجبال والمنخفضات وتلك الصورة لرأس المجير الذي أصبح صغيراً من استدارة الماء حوله .

ولذلك نجد الصورة محدودة بحدود البيئة الصحراوية ومنتزعة من بيئة قريبة للتناول، ونجد الحكمة التصويرية والمقدرة على تناول الكلمات والخيال القريب الذي يجعل كل هذه المفردات تدور في حيز واحد ويظفي عليها من اللمسات الفنية في ترتيب الأدوار .

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١٢٢، الفيقة: فترة تقطع المطر فيسح مرة ويسكن مرة، يكب على الأذقان دوح الكنهيل : يقتلع شجر الكنهيل من أصوله ويلقيه على أم رأسه. أبان: جبل ، أفانين ، ودقة: ضروب مطر، البجاد: الكساء المخطط، مزمل: ملثف، المجير: جبل فلكة مغزل: لأن الماء استدار حوله .

(٢٦) الشده والقوة والخشونة هي مميزات الصحراء فأنت القصيدة تحمل في طياتها هذه الصفات والمعاني فهي صورة لامعة تقفز بالحس والمشاعر فوق قوة الإحساس العادي .

(٢٧) تنوع بيئات الصحراء وتعدد مواقعها حتمت على الشاعر عكس هذه الصور من خلال قصيدته فنقل كل هذه الأحاسيس نقلاً صادقاً دون اللجوء لللمسات البديعية كثيراً وأنت أمامه صوراً محسوسةً عبر عنها بكل تجرد فأنت أبلغ وأعمق لتأثيرها الواضح .

التوصيات :

١. كشف اللثام عن ذاك الغموض الذي اكتنف الحياة البدوية الصحراوية في تلك التلال والبوادي وسر تلك البيئة التي أهلت اللغة العربية لتكون بهذا الكمال والجلال وذاك الفكر الفذ الذي نبع منها .
٢. تناول الأثر الاجتماعي والنفسي في الصحراء على الشعر العربي فهو ميدان لدراسات مجددة ومبدعة وتناول أثرها الكبير من زوايا متعددة وأطروحات مختلفة .
٣. تحليل واستنباط من مؤلفات العلماء القدامى وما بها من ذخائر قيمة متضمنة تلك الحياة على ضوء الواقع وفي قوالب حديثة .

الفهارس

أولاً : فهرس الآيات القرآنية :-

رقم الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية	م
	(١٨٨)	آل عمران	{ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }	.١
	(١٠٣)	المائدة	{ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ }	.٢
	(٩٦)	الأنعام	{ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }	.٣
	(٥٧)	الأعراف	{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا تَقَالًا سُفْنَاهُ لِيَلِدَ مِمَّيْتٍ فَأُنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }	.٤
	(٨٧)	يونس	{ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }	.٥
	(٣)	الرعد	{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا ثَمِينًا يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }	.٦
	(٧)	إبراهيم	{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَرْزُقَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }	.٧
	(٣٧)	إبراهيم	{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }	.٨
	(٩٦)	المؤمنون	{ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ }	.٩
	(٢٧)	السجدة	{ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا	.١٠

			{ يُبْصِرُونَ }	
	(٤١)	سبأ	{ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ }	.١١
	(٢٤)	ص	قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)	.١٢
	(٣)	الزمر	{ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ }	.١٣
	(٨) - (٩)	التكوير	{ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ }	.١٤
	(١) - (٢)	العاديات	{ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا }	.١٥
	(١٩) - (٢٠)	الحجر	{ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ }	.١٦
	(٢٢)	الحجر	{ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ }	.١٧
	(٦) - (٧)	النحل	{ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ }	.١٨
	(١٢)	النحل	{ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }	.١٩
	(١٦)	النحل	{ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }	.٢٠
	(١٠٣)	النحل	{ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ }	.٢١
	(٢٣)	الإسراء	{ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا }	.٢٢

	(٦٦)	طه	{قَالَ بَلْ أَلْفُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى }	.٢٣
	(٢٦)	الحج	{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }	.٢٤

*رتب هذه الآيات حسب ترتيب المصحف

ثانياً : فهرس الشواهد الشعرية :-

الرقم	النص	القائل	رقم الصفحة
١.	بعد عهد لنا ببرقة شيماء ديارها الخلاء	الحارث بن حلزة	٥٠
٢.	فلما أن تحمل أهل ليلى وبينهم الأطباء	زهير	٦٣
٣.	وأذكروا حلف ذي المحجاز العهود والكفلاء	الحارث بن حلزة	٧٩-٦٩
٤.	أذنتنا ببيئها أسماء يمل منه الثواء	الحارث بن حلزة	٧٦
٥.	بزفر ف كأنها هقلة دويه سقاء	الحارث بن حلزة	١٥٢
٦.	ودويه لا يهتدى لفلاتها ... ولا ضوء ولا كوكب	أمرؤ القيس	٢٤
٧.	أبني زياد أنتم في قومكم أصل طيب	عمرو بن معد يكرب	٤٥
٨.	إذا ما إقتنصنا لم نخاتل بجنة إلا أراكب	علقمة الفحل	٤٦
٩.	وبلدة لاترام خايفة جوانبها	زهير بن أبي سلمى	٦١
١٠.	ويوم هو ادي أمره لشماله المطنب	ليبيد بن ربيعة	٦٧
١١.	ونحن أناس لاحجاز ومن هو غالب	الاخنث التغلبي	٦٧
١٢.	وانقص كالدرا يتبعه تخاله طنباً	النابعه الذبياني	١٤٩
١٣.	إذا ما عزا الجيش حلق فوقهم بعصائب	النابعه الذبياني	١٩٥
١٤.	ينادونني في السلم يا ابن زبيبة ابن الاكايب	عنتره بن شداد	١٦٠
١٥.	فانك شمس والملوك كواكب منهن كوكب	النابعه	١٧٥
١٦.	كأن مثار النقع فوق رؤوسنا كواكبه	بشار بن برد	١٧١
١٧.	كأن عيون الوحوش حول خبائنا يثقب	أمرؤ القيس	١٦٦
١٨.	نالت بعاقبه وكان نوالها المباعد منصب	زهير	١٥٠
١٩.	وليت خيالاً منك يا عبلة طارقاً السواكب	عنتره	٢٠١
٢٠.	وغادرنا نصله في معركٍ كالمحتطب	عنتره	٢٦٧
٢١.	وحسام كلون الملح صافي حديده المنعت	الشنفرى	١٧٩
٢٢.	ومن يك مثلى ذا عيال ومقترراً كل مطرح	عروة بن الورد	١١٤
٢٣.	ولا يفارقني ما عشت ذو حقب غير ملواح	عبيد الابرص	١٤٦
٢٤.	كل خليل كنت خالته له واضحه	طرفه بن	١٥٣
٢٥.	قد نمت عني وبات البرق بمصباح	أوس بن حجر	١٧٧
٢٦.	أمك أبيت الليل أرقمه الشام مصباح	ابو ذؤيب	١١٨

٢٠٧	أوس بن حجر	كأنما بين أعلاه وأسفله	٢٧.
٢٢	ذو الرمة	وتيهاء مقفار يكاد	٢٨.
٢٥	ذو الرمة	فجاءت كذود الخارجين	٢٩.
٢٧	النابغة	فيحملها على المكروه همي	٣٠.
٢٢١	أبو ذؤيب الهزلي	بذلت لهن القول أنك واجد	٣١.
٢٦٧	الحارث بن حلزة	وحسبت وقع سيوفنا	٣٢.
٤٥	الحارث بن حلزة	ومدامة قرعتها وظبا	٣٣.
٦٢، ١١	طرفه بن العبد	أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه	٣٤.
١٨	النابغة الذبياني	أضحت قفاراً وأضحى أهلها	٣٥.
١٩	المتنبي	أما الأحبة فالبيداء دونهم	٣٦.
٢١	عبيد الأبرص	إني اهتديت لركب طال سيرهم	٣٧.
٢٣	النابغة الذبياني	سقى دار سعدى حيث حلت بها	٣٨.
٣٠	الأعشى	يقول الدليل بها	٣٩.
٣٥	طرفه بن العبد	أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى	٤٠.
٤٣، ٣٨	النابغة الذبياني	أفد الترحل غير أن ركبانا	٤١.
٥٦	عنتره بن شداد	إذا الريح جاءت بالجهم تشله	٤٢.
١٦٤	طرفه بن العبد	لخولة أطلال ببرقة ثمهد	٤٣.
١٠٥، ١٠٦	طرفه	وما زال تشرابي الخمر ولذتي	٤٤.
١٢٠	عامر بن الطفيل	يا اسم أخت بني فزارة أنني	٤٥.
١٣٧	طرفه	وأني لأمضى الهم عند إحتضاره	٤٦.
٢٢٧	النابغة الذبياني	يا درامية بالعلياء فالسند	٤٧.
١٥٨	النابغة	من وحش وجرة موشى أكارعه	٤٨.
٢١٠	عنتره	إذا رشقت قلبي سهام من الصد	٤٩.
٢٠٠	المرقش الأكبر	سري ليل خيال من سليمي	٥٠.
١٥٥	النابغة	واحكم كحكم فتاة الحي	٥١.
٢٣	عنتره	كم مهمة فقر بنفسه خضته	٥٢.
٤٢	هرم بن سنان	أبلغ بني نوفل عني فقد بلغت	٥٣.

٥٩	عروة بن الورد	قعيدك عمر الله هل تعلميننى أزاها	٥٤.
٨٥	عنتره	وأخذ مال عبلة بالمواضي قدرى	٥٥.
٩٠	ليبيد	ولم تحم أولاد الضباب كأنما ابكر	٥٦.
٩١	المهلهل	أتغدو يا كليب معي إذا ما أنجاه الفرار	٥٧.
١١٣	عروة بن الورد	لحى الله صلوكا إذا جن ليله مجزر	٥٨.
١١٩	النابغة	وقد أراني ونعماً لا هيين بها بإمرار	٥٩.
١٦٥	جرير	قوم إذا إستنتج الأضياف النار	٦٠.
١٩٩	الخنساء	وإن صخراً لتأتم الهداة به رأسه نار	٦١.
٧٢	عنتره	ولولا سنان والحسام وهمتي ولا نالها فخر	٦٢.
١٧١	النابغة	نبئت زرعة أوابد الأشعار	٦٣.
١٦١	أمرؤ القيس	فشبهتم في الآل لما سفينا مقيراً	٦٤.
١٦٥	الأعشى	وقتلي كمثل جزوع النخيل منهمر	٦٥.
١٦٦	أمرؤ القيس	كأن المدام وصوب الغمام ونشر القطر	٦٦.
١٦٧	الأعشى	بيضاء صحتها كالعرارة	٦٧.
١٧٠	المهلهل	فان يك بالذنائب طال ليلي القصير	٦٨.
١٠٤	المنخل اليشكرى	وفوارس كأوار حرم الذكور	٦٩.
٢٦٥	المهلهل	دعوتك يا كليب فلم تجبنى القفار	٧٠.
٢٦٠	عنتره	وإذا غزوت تحوم عقبان الفلا كل غضنفر	٧١.
٦١	الأعشى	قطعت إلى معروفها منكراتها دامس	٧٢.
١٤٧	عنتره	وقلت لمهرى والقنا يقرع القنا ناعس	٧٣.
٢١٥	أبو نواس	قل لمن يبكي على رسم درس لو كان جلس	٧٤.
١٥٥	المرقش	وتسمع تزقاء من البوم حولنا النواقس	٧٥.
٢٠	أمرؤ القيس	تبوص وكم دونها من مهمة ولصوص	٧٦.
٢٦٠	دو الرمة	ودو ككف المشتري غير أنه ... المراسيل واسع	٧٧.
١٢٧	أبو ذؤيب الهزلى	والنفس راغبة إذا رغبتها تقنع	٧٨.
١٩٥	أبو ذؤيب الهزلى	ولئن فجع الزمان وربيه لمفجع	٧٩.
٢٣٨	أبو ذؤيب الهزلى	أمن المنون وربيها تتوجع من يجزع	٨٠.

٢٥٢	النابغة	فبت وكأني ساورتي ضئيلة السم نافع	٨١.
٢٥٠	سويد	يسطت رابعة الحبل لنا ما اتسع	٨٢.
١٧١	النابغة	فإنك كاليل الذي هو مدركي واسع	٨٣.
٨	الأعشى	وبلدة يهرب الجواب دلجتها بيتغى الشيعا	٨٤.
٣١	بشر بن حازم	فكأن أطلال وباقي دمنة عليها الزخرف	٨٥.
٥٦	طرفة	أنا إذا ما الغيم أمسى حرجف طرفة	٨٦.
١٩	زهير	وبيداء تيه تخرج العن صرماء سملق	٨٧.
٢٢	الأعشى	وكم دون ليلي من عدو وبلدة الأل يبرق	٨٨.
٤٤	الأعشى	وخرق مخوف قد قطعت فوقه يترقرق	٨٩.
٤٥	أمرؤ القيس	بعثنا ربيئاً قبل ذلك مخملاً ويتقى	٩٠.
٦٢	أمرؤ القيس	فأتبعهم طرفي وقد حال دونهم شبوق	٩١.
١٩٠	زهير	قد جعل المبتغون الخير في أبوابه طرقات	٩٢.
٤٣	زهير	على لا حب مثل المجرة الأرض مهرق	٩٣.
٢٦٠	المفضل النكري	وجدنا السدر خواراً ضعيفاً منيته وثيق	٩٤.
٢٢	تأبط شراً	يظل بمومة ويسمى بغيرها ظهور المهالك	٩٥.
٢١	الأعشى	فوق ذي مومة تقول الاجال	٩٦.
٢١	أمرؤ القيس	ترى بعرا الأرام في عرصاتها فلفل	٩٧.
٢٣	ذو الرمة	طواها إلى حيز ومها وأن حزنها ورمالها	٩٨.
٢٣	أمرؤ القيس	فكم كم ثم كم وكم وكم لم امل	٩٩.
٢٣	أمرؤ القيس	وتنوقه جذباء مهلكة قتل	١٠٠.
٢٥	الأعشى	يهماء موشحة رفعت لعرضها أميالها	١٠١.
٣١	زهير	أمن آل ليلي عرفت الطلولا مثولا	١٠٢.
٣٣	أمرؤ القيس	قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل فحومل	١٠٣.
٣٦	الشقري	كأن وغاها حجرتيه وحوله القبائل نزل	١٠٤.
٣٨	لبيد	فعن لنا سرب كأن نعاجه ملاء مزيل	١٠٥.
٣٨	القيس	وقد اغتدى والطير في وكناتها الأوابد هيكل	١٠٦.
٤٠	لبيد	فكلفتها وهماً كأن نحيزه بشيب مرجل	١٠٧.

٤٦	أمرؤ القيس	كان دم الهاديات بنجره بشيب مرجل	١٠٨.
٥١	أمرؤ القيس	وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا رس أو عال	١٠٩.
٨٣	معاوية بن	أراد طفيل منع الماء زله لو عقل	١١٠.
١١٥	تأبط شراً	يركب الهول وحيداً للأقل	١١١.
٢١٠	الأعشى	كأن مشيتها من بيت لا ريث ولا عجل	١١٢.
٢٤٨	عنتره	يا عبل كم من غمرة باشرتها ... لعمر ك تنجلي	١١٣.
٢٦٨	الشقري	إذا زل عنها السهم حنت كأنها وقول	١١٤.
١٤٣	أمرؤ القيس	قد أقطع الأرض هي قفر شمالا	١١٥.
٣٩	أمرؤ القيس	مكر مفر مقبل مدبر معاً من عل	١١٦.
١٥٩	الأعشى	روافده تثني الرداء تساندت الرمله المتهيل	١١٧.
١٨٧	أمرؤ القيس	سموت إليها بعد ما نام أهلها حالاً على حال	١١٨.
٢٥٨	عمرو بن قمينه	تأتك أمامه إلا سؤلاً منها الوصالا	١١٩.
٢٦٠	مسلم بن الوليد	قد عود الطير عادات وثقت بها كل مرتحل	١٢٠.
٢٤٨	أمرؤ القيس	كأن ثبيراً في عرانيين مزمل	١٢١.
١٢٢	الشنفري	لعمر ك ما في الأرض ضيق على يعقل	١٢٢.
٢	عنتره	هل غادر الشعراء من متردم بعدتوهم	١٢٣.
١١	ليبيد	وجارته إذا حلت إليه في السنام	١٢٤.
١٢	عنتره	يا شاة ما قنص لمن حلت له لم تحرم	١٢٥.
٣١	ليبيد	فمدافع الريان عرى رسمها الوحي سلامها	١٢٦.
٣٤	ليبيد	شافتك ظعن الحى تصر خيامها	١٢٧.
٣٧	النابغة	باننت سعاد وأمسى حبلها من أضما	١٢٨.
٤٢	هرم بن سنان	فمن مبلغ الأحلاف عنى رسالة كل مقسم	١٢٩.
٤٥	الأعشى	فدع ذا ولكن رب أرض متيهة الليل أظلما	١٣٠.
٤٧	ليبيد	حتى إذا يئس الرماة وأرسلو أعصامها	١٣١.
٤٨	ليبيد	غلب تشذر بالذخول كأنها أقدامها	١٣٢.

٤٩	عنتره	كيف المزار وقد تربح أهلها وأهلها بالعلم	١٣٣
٥٤	علقة الفحل	وقد علوت قنود الرحل يسفنى مسموم	١٣٤
٨٨	زهير	وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم المرجم	١٣٥
٦٨	ليبيد	إنا إذا التقت المجامع لم يزل جسامها	١٣٦
١١١	تأبط شراً	جزى الله فتياناً على العوض أمطرت بالدم	١٣٧
١٩٠	عنتره	ولقد ذكرك والرماح نواهل من دمي	١٣٨
١٣١	علقة الفحل	بل كلل ثاقبة للمال مهلكة ومذموم	١٣٩
١٣٠	زهير	ومن يكن ذا فضل فيبخل بفضله ويذمم	١٤٠
٤٩	ليبيد	عفت الديار محلها فمقامها فرجامها	١٤١
١٣١	زهير	رأيت المنايا خبط عشواء من فيهرب	١٤٢
١٧١	عنتره	أو روضة أنفاً تضمن نبتها ليس بمعلم	١٤٣
٢٨١	زهير	القائد الخيول منكوبا الزاهق الذهم	١٤٤
٤٩	زهير	أمن أم أوفى دمنة لم تكلم فالمثلثم	١٤٥
١٣٩	عنتره	جادت عليها كل عين ثرة كالدرهم	١٤٦
٢٢٥	عنتره	يا دار عبلة بالجواء دار عبلة واسلمى	١٤٧
١٢٩	زهير	فلا تكتمن الله ما في نفوسكم الله يعلم	١٤٨
١٣٩	ليبيد	ولقد قطعت وصيلة مجرودة اليوم	١٤٩
١٨	الاعشى	وبيداء قفر دائرات أجن	١٥٠
١٩	هرم بن سنان	يقطعن أميال اللج بالسفن	١٥١
٢٤	أمرؤ القيس	وخرق كجوف العير الوجه حسان	١٥٢
٢٤	أمرؤ القيس	وخرق بعيد قد المشى مزعان	١٥٣
٣٥	عمرو بن كلثوم	قفى قبل التفرق وتخبرينا	١٥٤
٨١	عمرو بن كلثوم	متى ننقل لها طحين	١٥٥
٨٣	عنتره	اسمعاني نعمة تطرباني	١٥٦

٧١	القطامي	ولكن إذا اغرنا حيث كانا	.١٥٧
٢٦٤	الفند الزماني	شددنا شدة والليث غضبان	.١٥٨
٨٢	عمرو بن كلثوم	نسمى ظالمين ظالمينا	.١٥٩

ثالثا : فهرس الأعلام :-

الرقم	العلم	رقم الصفحة
١.	ابن الأثير	٢٠١
٢.	ابن رشيقي	٢٢٦
٣.	ابن زيدون	٢٢٥
٤.	ابن سنان	٢١٣
٥.	ابن طباطبا العلوي	١٢٠
٦.	ابن قتيبة	٢٢٦
٧.	ابن منظور	٣٠
٨.	أبو الحصين	٣١
٩.	أبو ذؤيب	٢٧٣
١٠.	أبو زيد	٢٥
١١.	أبو عبيدة	٨٩
١٢.	أبو نواس	٢٠٩
١٣.	أبو هلال العسكري	٢٩
١٤.	الأخطل	١٢٥
١٥.	الأخفش	٢٨٠
١٦.	أسماء	١٠١
١٧.	الأسود بن المنذر	١٤٢
١٨.	الأسود بن يعفر	٢٤٩
١٩.	الأعشى	٢٥٤
٢٠.	أمرؤ القيس	٩٦
٢١.	أوس بن حجر	٢٧٠
٢٢.	بسطام بن قيس	٨٧
٢٣.	البسوس	٨٩
٢٤.	الجاحظ	٤٥
٢٥.	جرير	٢٤
٢٦.	جساس	٩٠
٢٧.	حاتم الطائي	١٢٠
٢٨.	الحارث بن أبي بشر الغساني	٧٧
٢٩.	الحارث بن حلزة	٤٥
٣٠.	الحارث بن وعة	٩١
٣١.	حبيب بن نصر	٩٩
٣٢.	الحجاج بن يوسف	٥٥
٣٣.	حسان بن ثابت	٤٦

٨٤	الحصن بن الحمام	.٣٤
٢٧٧	الخليل بن أحمد	.٣٥
٩٩	الخنساء	.٣٦
٨٦	دريد بن الصمة	.٣٧
٢٣٧	دوهمان	.٣٨
٢٠	ذو الرمة	.٣٩
٨٢	زكي المحاسني	.٤٠
٨٤	زهير	.٤١
٩٣	زيد الخيل	.٤٢
٧٧	ساس	.٤٣
٧٣	سعاد	.٤٤
١١١	سلمى	.٤٥
٢٠١	سليمي	.٤٦
٤٥	سويد	.٤٧
٣٦	الشنفري	.٤٨
١١٠	صخر	.٤٩
١٠٤	طرفة	.٥٠
١٨١	طفيل الغنوي	.٥١
٨٧	عامر بن الطفيل	.٥٢
٣٣	عبد القاهر الحرجاني	.٥٣
١٩	عبلة	.٥٤
١٧٩	عبد بن قيس	.٥٥
١٠٥	عبيد الأبرص	.٥٦
٩٥	عروة بن الورد	.٥٧
٧٧	علقمة الفحل	.٥٨
٥	العماد الأصفهاني	.٥٩
٧٤	عمرو بن العلا	.٦٠
٨٨	عمرو بن كلثوم	.٦١
٧٨	عمرو بن معد يكرب	.٦٢
٤٢	عمرو بن هند	.٦٣
٨٥	عنبرة	.٦٤
٨٣	القطامي	.٦٥
٢٠٣	قيس بن معد يكرب	.٦٦
٧٣	كسري	.٦٧
٨٩	كليب	.٦٨
٩٠	ليبيد	.٦٩

٣٩	المبرد	.٧٠
٤٠	المتنبي	.٧١
٩٩	مجنون ليلي	.٧٢
٩٨	المحلق	.٧٣
٢٠٠	المرقش الأكبر	.٧٤
٢٦٠	مسلم بن وليد	.٧٥
٨٣	معاوية بن دومان	.٧٦
١٢٥	المنخل اليشكري	.٧٧
٧٧	المنذر الاكبر	.٧٨
٥٥	المنذر بن ماء السماء	.٧٩
١٩	المتنبي	.٨٠
٢١٣	المهلهل بن ربعه	.٨١
١٦	النابعه	.٨٢
٨٦	نعم	.٨٣
٧٣	النعمان بن الحارث	.٨٤
٥٠	النعمان بن المنذر	.٨٥
٤٢	هرم بن سنان	.٨٦
١٦٨	هريره	.٨٧

*رتب هذا الفهرس هجائياً بعد حذف ابن - أبو- ال

رابعاً : فهرس البلدان :-

الرقم	البلد	رقم الصفحة
. ١	أعناق	٥٠
. ٢	أفريقيا	٧
. ٣	الاندريا	٣٠
. ٤	البحر الهندي	٦
. ٥	بحر فارس	٦
. ٦	البحرين	٧
. ٧	البيدي	٤٨
. ٨	برقة ثمهد	٥٠
. ٩	بيشة	٤٩
. ١٠	تهامة	٧
. ١١	الثبوت	٤٨
. ١٢	جبال الحجاز	٥١
. ١٣	جبال السراة	١
. ١٤	جزيرة العرب	١٦
. ١٥	الجواء	٤٨
. ١٦	الحجاز	٥١
. ١٧	حومانة الدراج	٩
. ١٨	حومل	٨٠،٣
. ١٩	خليج السويس	٧
. ٢٠	دار جلجل	٤٨
. ٢١	دجلة	٦
. ٢٢	الدحر ضان	٥٠
. ٢٣	الدخول	٣٠
. ٢٤	دمشق	٦
. ٢٥	ذات الحرمل	٥١
. ٢٦	رحام	٥٠
. ٢٧	الريان	٤٩
. ٢٨	شهلان	٥١
. ٢٩	الشام	٥٠
. ٣٠	شخصان	٥١
. ٣١	الصفاح	٥٠

٥١	الصمان	٣٢
٥٠	صنعاء	٣٣
٣٨	ضارج	٣٤
٥٠	عاذب	٣٥
١٥٠	عالج	٣٦
٦	عدن	٣٧
٩	العذيب	٣٨
٧	العراق	٣٩
٥١	العقيق	٤٠
٧	عمان	٤١
٤٩	عنيزتان	٤٢
٤٩	الغبيط	٤٣
٤٩	غول	٤٤
٤٩	الغيلم	٤٥
٤٨	فتاق	٤٦
٦	الفرات	٤٧
٥١	القفال	٤٨
٥٠	الكيلك	٤٩
٤٩	المتلم	٥٠
٥٠	المحياة	٥١
٥١	مدافع الريان	٥٢
٤٩	المذاب	٥٣
٥٠	المقراة	٥٤
٤٩	مني	٥٥
٤٩	نجد	٥٦
٦	نهر النيل	٥٧
٥١	وادي الخزامي	٥٨
٥٠	الوفاء	٥٩
٧	اليمن	٦٠

*رتب هذا الفهرس هجائياً بعد حذف ابن - أبو- ال

فهرس المصادر والمراجع

القران الكريم

- ١ الإحساس بالزمان في الشعر العربي : على الفيضاوى ، منشورات كلية الآداب بمتوبة تونس ، ٢٠٠١ م .
- ٢ الأدب الجاهلي قضاياها أعلامه فنونه ، د . غازي طليمات ، عرمان الأشقر دار الفكر المعاصر ، دمشق سوريا ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .
- ٣ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام حياتهم وآثارهم ، بطرس البستاني طبعة منقحة ، ، دار نظير عبود ، طبعة ١٩٨٦ م
- ٤ أساس البلاغة إبن عمر الزمخشري ، دار صادر بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م
- ٥ الأصمعيات أبى سعيد عبد الملك بن قريب عبدالملك الأعصمى ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ، بدون
- ٦ الاصول الفنية للشعر الجاهلى ، د . سعد اسماعيل شلبى ، القاهرة ، مكتبة غريب ، طبعة ١٩٧٧ م
- ٧ الاطلاع فى الشعر العربى دراسة جمالية : محمد عبد الواحد حجازى ، الطبعة الاولى ٢٠٠٢ م الناشر دار الوفاء للطباعة والنشر .
- ٨ الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، خير الدين الزركلى الطبعة العاشرة ، بيروت دار العلم للملايين ١٩٩٢ م
- ٩ الاغانى : أبو الفرج الأصفهانى ، طبعة جديدة منقحة ، شرح وكتب هوامشه الاستاذ سمير جابر ، دار الكتب العالمية بيروت ١٩٩٢ م .
- ١٠ الامالى : تأليف أبى على اسماعيل القاسم القالى البغدادي ، منشورات محمد على بيوضون ، دار الكتب العالمية بيروت لبنان ٢٠٠٢ م
- ١١ أنباء الرواة على أنباء النحاة ، الوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى ، القاهرة مطبعة دار الكتب العلمية المصرية ١٩٥٢ م

• رتب هذا الفهرس هجائيا بعد حذف كلمة أبو — ال

- ١٢ أيام العرب فى الجاهلية : تأليف محمد أحمد جاد المولى وعلى حمد البجاوى
ومحمد احمد ابو الفضل ابراهيم ، بدون
- ١٣ بحوث فى الأدب الجاهلي : الأستاذ إبراهيم أبو الخشب ، د . أحمد عبد المنعم
البهيسى ، الطبعة الأولى ١٩٦١ م مطبعة لجنة البيان العربى .
- ١٤ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابى
بكر السيوطى المتوفى ٩١١ هـ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم بيروت
المكتبة العصرية . بدون .
- ١٥ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تأليف السيد محمد شكرى الألوسى
عنى بشرحه وتصحيحه وطبعه محمد بهجة الأثرى ، دار الفكر العالمية
بدون .
- ١٦ البيان والتبيين ، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق عبد السلام محمد
هارون ، مطبعة المدنى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٥ م
- ١٧ تاج العروس للإمام اللغوى السيد محمد مرتضى الذبيدى ، دار صادر بيروت
بدون .
- ١٨ تاريخ الادب العربى : د . أحمد الحسن ألفه بالامانية ، كارل بروكلمان ،
أشرف على الترجمة محمود فهمى حجازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
١٩٩٣ م
- ١٩ تاريخ الادب العربى ، د . أحمد حسن الزيات ، مكتبة النهضة العربية ١٩٧٠م
- ٢٠ تاريخ الادب العربى العصر الجاهلى ، د . ريجيس بلاشير ، ترجمه
د.إبراهيم الكيلانى دار الفكر دمشق بدون .
- ٢١ تاريخ الأدب العربى حنا الفاخورى بيروت ، لبنان ، بدون .
- ٢٢ تاريخ الأدب العربى قبل الإسلام ، د . نورى حمودى القيسى مصطفى عبد
اللطيف ١٩٧٩ م ، دار الحرية بغداد .
- ٢٣ تاريخ العرب قبل الإسلام ، د . السيد عبد العزيز سالم ، الناشر مؤسسة
شباب الجامعة ، الإسكندرية بدون .
- ٢٤ التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ، الطبعة السابعة بيروت دار الشروق
١٤٠٣ هـ — ١٩٨٢ م

- ٢٥ التفسير النفسى للأدب ، تأليف د . عز الدين اسماعيل ، الناشر مكتبة غريب العامة الطبعة الرابعة ١٩٦٣ م .
- ٢٦ التقليد والتجديد فى الشعر العباسى ، د . سلام مصيلحى عبدالله ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩١ م
- ٢٧ تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، ابى القاسم على بن الحسن بن هبة الله شافعى المعروف بابن عساكر هذبه الشيخ عبدالقادر بدران المتوفى ٣٤٦ هـ الطبعة الثالثة ، بيروت دار احياء التراث العربى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٢٨ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ، للامام العلامة عبد الرحمن بن ناصر ، دار الحديث القاهرة ، طبعة ٢٠٠٥ م
- ٢٩ جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام ابى زيد القرشى ، حققه وضبطه وزاد فى شرحه على محمد البجاوى ، بدون
- ٣٠ جمهرة خطب العرب فى العصور العربية الزاهرة العصر الأموى ، تأليف أحمد زكى صفوت ، الطبعة الاولى ، ١٩٣٣ م شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر .
- ٣١ الحماسة تأليف ابى عباد بن عبيد البحتري ، الناشر دار الكتاب العربى بيروت ، ضبطه وفهرسه الأب لويس شيخو الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ م
- ٣٢ الحياة الادبية فى العصر الجاهلى د . أحمد محمد الحوفى ، الطبعة الرابعة مكتبة نهضة مصر ، بيروت بدون .
- ٣٣ الحياة العربية فى العصر الجاهلى د . أحمد محمد الحوفى ، الطبعة الاولى ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .
- ٣٤ الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، د أحمد محمد الحوفى ، دار النهضة للطباعة والنشر الفجالة القاهرة الطبعة الخامسة، بدون .
- ٣٥ الحيوان ، عمرو بن بحر (الجاحظ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة البابى الحلبي القاهرة ، بدون .
- ٣٦ الخطاب البداعى الجاهلى والصورة الفنية ، تأليف عبد الإله الصائغ ، الطبعة الاولى ١٩٩٧ م ، المركز الثقافى العربى .
- ٣٧ دائرة المعارف ، قاموس عام لكل فن ومطلب فؤاد احزام البستاني ، بيروت لبنان ١٩٦٢ م .

- ٣٨ دراسات فى الشعر الجاهلى ، د . يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر
القاهرة، بدون .
- ٣٩ دلائل الاعجاز : تأليف الشيخ الامام ابى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن
محمد الرجاني اللغوى قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، الناشر مطبعة
المدنى بجدة ، الطبعة الثالثة ١٩٩٢ م
- ٤٠ ديوان ابن زيدون ، حققه وبوبه وشرحه وضبط بالشكل أبياته حنا الفاخورى
دار الجيل بيروت ، بدون
- ٤١ ديوان أبى الطيب المتنبي ، بشرح أبى البقاء العكبرى المسمى بالتبيان فى
شرح الديوان ، ضبطه وصححه مصطفى السقا إبراهيم الإبيارى ، الناشر دار
المعرفة بيروت لبنان ١٩٧٨ م .
- ٤٢ ديوان ابى نواس ، دار صادر بيروت ، بدون
- ٤٣ ديوان الأخطل ، تقديم وشرح كارين صادر ، دار صادر بيروت ، الطبعة
الاولى ١٩٩٩ م .
- ٤٤ ديوان الاعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد
حسين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٢ .
- ٤٥ ديوان جرير ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ، بدون .
- ٤٦ ديوان الحارث بن حلزة ، جمعه وشرحه وحققه د . أمين بديع يعقوب ،
الناشر دار الكتاب العربى الطبعة الاولى ١٩٩١ م
- ٤٧ ديوان الحماسة لأبى تمام ، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد صالح ، دار
الجيل بيروت الطبعة الاولى ٢٠٠٢ م
- ٤٨ دوريات : مجلة كلية الاداب ، جامعة المك سعود ، د . عدنان حسين قاسم
المجلد الثالث عشر ، العدد الاول ١٩٨٦ م .
- ٤٩ ديوان الحماسة لأبى تمام حبيب الطائى ، شرح العلامة التبريزى علق عليه
وراجعه محمد عبد المنعم خفاجى ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٥ م طبعه محمد
على صبيح .
- ٥٠ ديوان الخنساء ، تقديم وشرح وتعليق د . محمد محمود دار الفكر اللبنانى
بيروت الطبعة الاولى ١٩٩٨ م
- ٥١ ديوان الخنساء، دراسة وتحقيق ابراهيم عوضين ، الطبعة الاولى ١٩٨٥ م

- ٥٢ ديوان الراعى النميرى ، شرح د. واضح الصمد ، دار الجيل بيروت ،
الطبعة الاولى الاولى ١٩٩٥ م
- ٥٣ ديوان السليك بن السلكة ، اعداد وتقديم طلال حرب ، دار صادر للطباعة
والنشر بيروت الطبعة الاولى ١٩٩٦ م
- ٥٤ ديوان الشنفرى ، اعداد وتقديم طلال حرب ، دار صادر بيروت ، الطبعة
الاولى ١٩٩٦ م
- ٥٥ ديوان المرقش الاكبر : عوف بن سعد بن مالك المتوفى نحو ٧٠ قبل الهجرة
تحقيق نورى حمودى القيسى ، الرياض ١٣٩٠ هـ
- ٥٦ ديوان النابغة الذبياني ، صنعه بن السكيت ، تحقيق الدكتور شكرى فيصل دار
الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٩٠ م
- ٥٧ ديوان الهذليين ، ابي ذؤيب الهذلى ، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٥٢ م
- ٥٨ ديوان امرئ القيس ، ضبطه وصححه وحققه الأستاذ مصطفى عبدالشافى
منشورات محمد على دار الكتاب العالمية بيروت لبنان الطبعة الخامسة
٢٠٠٤ م
- ٥٩ ديوان أوس بن حجر ، تحقيق وشرح د . محمد يوسف نجم دار صادر
بيروت ١٩٦٠ م
- ٦٠ ديوان بشار بن برد ، شرح حسين حمودى ، دار الجيل بيروت ، الطبعة
الاولى ١٩٩٦ م
- ٦١ ديوان حاتم الطائى ، منشورات دار مكتبة الهلال بيروت الطبعة الثانية
١٩٨٦ م
- ٦٢ ديوان حسان بن ثابت ، دار صادر بيروت ، بدون •
- ٦٣ ديوان زهير بن أبى سلمى ، صنعه أبى العباس ثعلب ، قدم له ووضح
هوامشه وفهارسه د. حنا نصر الحتى ، دار الكتاب العربى ٢٠٠٤ م .
- ٦٤ ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة الغنوى ، عنى بتصحيحه كارليل هنرى
هيس ، عالم الكتب، بدون •
- ٦٥ ديوان طرفه بن العبد البكرى ، شرح يوسف الاعلم ، بيروت دار صادر
١٩٠٠ م.

- ٦٦ ديوان عامر بن الطفيل ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الانباري عن أبي العباس احمد بن يحيى ثعلب ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٩م
- ٦٧ ديوان عبيد الابرص ، دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٥٨م
- ٦٨ ديوان عروة بن الورد ، جمع وشرح كرم البستاني ، دار صادر بيروت ، بدون
- ٦٩ ديوان عروة بن حزام ، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، مطبعة بغداد ، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠
- ٧٠ ديوان علقمة الفحل ، تحقيق مفتى صقال ، ودرية الخطاب الطبعة الاولى دار الكتاب العربي حلب ، ١٩٦٩م .
- ٧١ ديوان عمرو بن براق ، إعداد وتقديم طلال حرب دار صادر للطباعة والنشر بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م
- ٧٢ ديوان عمرو بن قميئة : شرح حسنى كامل الصيرفى ، مطابع دار الكتاب العربي ، بدون
- ٧٣ ديوان عنتر بن شداد ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ م .
- ٧٤ ديوان ليبيد بن أبي ربيعة ، دار صادر بيروت ١٩٩٦ م
- ٧٥ ديوان مجنون ليلي ، تقديم وشرح وتعليق د . محمد محمود ، دار الفكر اللبناني الطبعة الأولى ١٩٩٩ م .
- ٧٦ الرحلة فى القصيدة الجاهلية ، د وهب رومية مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٩٨٢ م
- ٧٧ الرحيق المختوم ، تأليف صفى الرحمن المباركفورى ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة ، الطبعة السابعة عشر ٢٠٠٥ م
- ٧٨ السيرة النبوية لابن هشام ، قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الروؤف سعد دار الجيل بيروت ١٩٧٥م
- ٧٩ شاعرات العرب ، جمع وتحقيق عبد البديع صقر منشورات المكتب الاسلامى الطبعة الاولى ١٩٦٧م .
- ٨٠ شرح اشعار الهذليين ، صنعه ابى سعيد حسن بن الحسن السكرى حقه عبد الستار احمد فراج ، راجعه محمود محمد شاكر ، بدون.

- ٨١ شرح القصائد العشر : تأليف ابي زكريا بن على بن اسماعيل بن الحسن محمد بن موسى الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي ، حقق أصوله غرائبه وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر مكتبة محمد على صبيح واولاده ، ميدان الازهر مصر ، الطبعة الاولى ١٩٦٢ م
- ٨٢ شرح ديوان صريع الغواني ، مسلم بن الوليد الانصارى عنى بتحقيقه والتعليق عليه د. سامى الدهان ، دار المعارف بمصر
- ٨٣ شعر الحرب : على الجندي المكتبة الأنجلومصرية ، ١٩٦٣ م
- ٨٤ شعر الحرب فى ادب العرب ، زكى المحاسنى ، دار المعارف بمصر ، بدون .
- ٨٥ الشعر العربى المعاصر : قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ، د. عز الدين اسماعيل الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م
- ٨٦ شعر اللهو والخمر تاريخه ، اعلامه ، جورج غريب ، دار النعامة بيروت لبنان بدون .
- ٨٧ شعر الهذليين فى العصرين الجاهلى والاسلامى ، تأليف د . أحمد كمال زكى دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٩
- ٨٨ الشعر والشعراء ، محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، طبعه وحققه وفهرسه قسم وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٦٤ م
- ٨٩ الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، د يوسف خليف دار المعارف بمصر ، بدون
- ٩٠ شعراء النصرانية قبل الاسلام ، جمعه ونسقه الاب لويس شيخو اليسوعى الطبعة الثانية ، دار النشر بيروت ، بدون .
- ٩١ الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى عند العرب ، د جابر المنصورى طبعة ١٩٨٣ م
- ٩٢ الطبيعة فى الشعر الجاهلى ، د . نوري حمودى القيسى ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م .
- ٩٣ العصر الجاهلى ، د . شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ م .
- ٩٤ العقد الفريد، تأليف الفقيه احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى ، تحقيق الدكتور محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الاولى ١٩٨٢ م.

- ٩٥ عقلمة بن عبده الفحل ، تاليف عبد الرازق حسن ، المكتب الاسلامى بيروت
الطبعة الاولى ، ١٩٨٦ م
- ٩٦ العمدة فى محاسن الشعر وادابه ، تصنيف ابى على الحسن بن رشيق
القيروانى مطبعة حجازى القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ م .
- ٩٧ عناصر الابداع الفنى فى شعر عنتره ، د. ناهد احمد السيد الشعراوى ، دار
المعرفة الجامعية ١٩٩٦ م .
- ٩٨ عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوى ، تحقيق د. طه الحاجرى ، د . محمد
زغلول سلام ، المكتبة التجارية القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- ٩٩ الغزل فى العصر الجاهلى ، د. احمد الحوفى ، مكتبة نهضة مصر القاهرة
١٩٥٨ م.
- ١٠٠ فن الوصف فى الشعر الجاهلى ، د . على احمد الخطيب ، الدار المصرية
اللبنانية بدون .
- ١٠١ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د. شوقى ضيف ، دار المعارف مصر
١٩٥٦ م .
- ١٠٢ فى الادب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ، د. محمد صالح
الشنقيطى ، دار الاندلس للنشر والتوزيع ، حائل الطبعة الثالثة ١٤٢٤ هـ .
- ١٠٣ فى صحبة الادب القديم ، د . احمد محمد الحوفى ، شركة نهضة مصر
للطباعة والنشر ، بدون .
- ١٠٤ فى ظلال القران ، سيد قطب ، طبعة ١٩٩٦ م ، دار الشروق القاهرة .
- ١٠٥ فى مرآة الشعر الجاهلى ، د . فتحى احمد عامر مطبعة دار الشروق ،
بيروت لبنان ١٩٧٧ م
- ١٠٦ القاموس المحيط ، محى الدين بن يعقوب الفيروز ابادى ، دار الجيل بيروت
.
- ١٠٧ قراءة فى الادب القديم ، د. محمد ابو موسى ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨ م ، دار
الفكر العربى .
- ١٠٨ قصة الادب فى الحجاز فى العصر الجاهلى ، تاليف عبدالله عبد الجبار محمد
عبد المنعم خفاجى ، الناشر مكتبة الكليات الازهرية ، ١٩٨٠ .

- ١٠٩ قصيدة المديح فى الاندلس قضاياها الموضوعية والفنية ، عصر الطوائف ، د. اشرف محمود نجا ، دار المعرفة الجامعية ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ م
- ١١٠ القيان والغناء فى العصر الجاهلى ، د. ناصر الدين الاسد ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ م
- ١١١ كتاب الاصنام : عن بن المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى تحقيق الاستاذ احمد زكى ، نسخة مصورة من نسخة دار الكتب . ١٩٥٤ م
- ١١٢ كتاب الصناعتين للكتابة والشعر ، تصنيف ابى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى حققه وضبطه الدكتور مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م
- ١١٣ كتاب الوافى بالوفيات ، صلاح الدين بن ابيك الصفدى المتوفى ٧٦٤هـ — تحقيق احمد الارناؤوط وتركى مصطفى ، الطبعة الاولى ، بيروت دار احياء التراث العربى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- ١١٤ كتاب صورة الارض ، لابن حوقل ابى القاسم بن حوقل النصيبى ، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان ١٩٩٢ م .
- ١١٥ لامية العرب للشنفرى دراسة نقدية ابداعية ، د. محمد على ابو حمودة ، دار عمار للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ٢٠٠١ م .
- ١١٦ لسان العرب للامام العلامة ابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقى المصرى ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .
- ١١٧ المؤلف والمختلف ، ابا القاسم الحسن بن بشر بن يحيى المتوفى ٣٧٠ هـ — تحقيق عبد الستار احمد فرج ، القاهرة دار احياء التراث العربى ، طبعة ١٣٨١ هـ .
- ١١٨ المثل السائر : تأليف بن الاثير قدمه وحققه وعلق عليه الدكتور احمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، الناشر دار النهضة بمصر الفجالة ١٩٦٠
- ١١٩ مجموع أشعار العرب ، د. عبد الملك بن قريب الاصمعى ، تحقيق وليم بن الورد ، بيروت دار الأوقاف ١٩٨١ م .
- ١٢٠ المخصص ، تأليف أبى الحسن على بن اسماعيل النحوى اللغوى الاندلسى المعروف بابن سيدة ، المكتب التجارى دار صادر بيروت .

- ١٢١ مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، لليافعى أبو محمد عبد الله بن أسعد بن سليمان ، الطبعة الثانية ، بيروت مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م
- ١٢٢ المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعاتها ، د . عبد الله الطيب ، مطبعة جامعة الخرطوم للنشر ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩١ م .
- ١٢٣ مروج الذهب لآبى الحسن على بن الحسين المسعودى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٢ م .
- ١٢٤ مشكلة السرقات فى النقد الأدبى : تأليف الدكتور محمد مصطفى هداره الطبعة الثالثة ١٩٨١ م ، المكتب الإسلامى بيروت.
- ١٢٥ مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، د . ناصر الدين الأسد ، طبعة ١٩٥٦ م ، دار المعارف مصر .
- ١٢٦ المطر فى الشعر الجاهلى ، د . أنور أبو سويلم ، دار عمار عمان ، الطبعة الاولى ١٩٨٧ م
- ١٢٧ المعانى الكبير فى ابيات المعانى ، لأبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الاولى ١٩٨٤ م
- ١٢٨ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للشيخ عبد الرحيم بن العباس المتوفى ٩٦٣ هـ - ١٩٤٧ م .
- ١٢٩ معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية ، عمر رضا كحالة ، الطبعة الاولى ، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٩٣ م .
- ١٣٠ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، تأليف عمر رضا كحالة ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .
- ١٣١ معجم مقاييس اللغة ، أبى الحسن أحمد بن فارس زكريا ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل بيروت ، الطبعة الاولى .
- ١٣٢ المفضل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، د . جواد على ، دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠ م .
- ١٣٣ المفضليات : المفضل الضبى كلية إكسفورد بيروت ١٩٢٠ م
- ١٣٤ مقدمة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن خلدون منشورات محمد على بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

- ١٣٥ الملامح العامة لنظرية الادب الاسلامى ، د . الطاهر محمد على ، دار جامعة
أدرمان الإسلامية للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ١٩٨٤ م
- ١٣٦ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبى المحاسن يوسف
بن تغريد ، بدون .
- ١٣٧ النقد الادبى : تأليف أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الخامسة
١٩٨٣ م .
- ١٣٨ النقد الادبى الحديث : محمد غنيمى هلال ، الناشر دار النهضة العربية
القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٩ م
- ١٣٩ النقد الأدبى الحديث ، د . على جابر المنصورى ، دار عمار الطبعة الاولى
بدون .
- ١٤٠ هدية العارفين اسماء المؤلفين واثار المصنفين ، لإسماعيل باما البغدادى ،
طبعة إستانبول ١٩٥٥ م ، منشورات مكتبة المنتى بغداد .
- ١٤١ الهمدانىون شعر همدان واخبارهم جمع وتحقيق حسن ابو يسن طبع دار العلوم
، الرياض ١٩٨٣ م
- ١٤٢ وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان ، ابى العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم
بن ابى بكر بن خلكان ، تحقيق د . يوسف على طويل د . مريم قاسم طويل
الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م .
- ١٤٣ دوريات : مجلد كلية الاداب جامعة الملك سعود ، د . عدنان حسين قاسم .
المجلد الثالث عشر . العدد الاول ١٩٨٦ م .

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع	م
أ	البسمة	١
ب	استهلال	٢
ج	إهداء	٣
د	شكر و عرفان	٤
١	المقدمة	٥
٦	التمهيد	٦
	الباب الأول (بيئة ومدلول الصحراء)	٧
		١٤
١٥	الفصل الأول: اسم ومدلول الصحراء في اللغة والشعر	٨
٢٨	الفصل الثاني: أهمية المكان عند البدوي في الصحراء	٩
٥٣	الفصل الثالث: المناخ	١٠
	الباب الثاني (الحياة الاجتماعية في الصحراء)	١١
		٦٤
٦٥	الفصل الأول: القبيلة	١٢
٨٠	الفصل الثاني: الحروب	١٣
٩٣	- صورة الموت والفاء في شعرهم	
٩٧	الفصل الثالث: أسواق العرب في الصحراء	١٤
١٠٢	- الفخر في شعرهم	
١١٠	الفصل الرابع : شعر الصعاليك	١٥
١١٨	الفصل الخامس: الكرم والحكمة من شعرهم	١٦
	الباب الثالث (طبيعة الصحراء في الشعر الجاهلي ومكوناتها)	١٧
		١٣٥
١٣٦	الفصل الأول: مفردات الصحراء في الشعر الجاهلي	١٨

١٣٧	المبحث الأول: الطبيعة المتحركة (الحية)	١٩
١٥٧	المبحث الثاني: الطبيعة الساكنة (الصامتة)	٢٠
١٨٦	الفصل الثاني : الأوصاف الحسية الخارجية للشعر في الصحراء	٢١
٢٠٢	الفصل الثالث : مدلول الوقفة الطللية في الصحراء	٢٢
٢١٠	الفصل الرابع: الموقف النفسي للشاعر الجاهلي	٢٣
٢٤	الباب الرابع (مظاهر الصحراء في الخصائص الفنية للشعر الجاهلي)	
	٢١٧	
٢١٨	الفصل الأول: البناء الفني للقصيدة الجاهلية في الصحراء	٢٥
٢٢٩	- خصائص القصيدة الشعرية في الصحراء	
٢٣٦	الفصل الثاني: أثر الصحراء في اللغة الشعرية	٢٦
٢٤٦	الفصل الثالث: الأسلوب – الخيال والتصوير	٢٧
٢٦٥	الفصل الرابع: المبحث الأول التشبيه والاستعارة	٢٨
٢٧٦	المبحث الثاني الوزن والموسيقى	
٢٨٣	الخاتمة والنتائج والتوصيات	٢٩
٢٩٠	الفهارس	٣٠
٢٩١	فهرس الآيات القرآنية	٣١
٢٩٤	فهرس الشواهد الشعرية	٣٢
٢٩٩	فهرس الإعلام	٣٣
٣٠٣	فهرس البلدان	٣٤
٣٠٦	فهرس المصادر والمراجع	٣٥
٣٠٧	الفهرس العام للموضوعات	٣٦